كنوز الأدب العالمى

(١)

أوليفر تويست

تشارلز ديكنز

obeikandl.com

شركة الدلتا اليوم للصحافة والنشر والتوزيع والدعايه

دار دلتا للنشر

رئيس مجلس الأدارة

المحاسب

أحمد التلاوى

الناشر

سليمان القلشى

مستشار النشر

أحمد سويلم

الطبعة الأولى
الكتاب : أوليفر تويست
المؤلف : تشارلز ديكنز
تصنيف الكتاب : رواية
تصميم الغلاف : محمد جمال
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٩٩٣٧ / ٢٠١٥
الترقيم الدولي : 3 - 112 - 776 - 977 - 978

العنوان : ٧ شارع الموسيقار على إسماعيل الدقى

التليفون : ٣٣٣٧٨٣١٩ - ٣٣٣٨٧٠٣٩

email : elyoumnew@gamil.com

obeikandl.com

مؤلف الرواية

هو سيد من سادات الأدب فى العالم أجمع، وعلم من أعلام القصة الإنسانية المبرزين، وخير كتابها فى اللغة الإنجليزية غير منازع ولا مدافع، وقد ولد شارل ديكنز فى بلدة لاندبورت قرب ميناء بورتسماوث فى ٧ فبراير سنة ١٨١٢، وتوفى بمقاطعة كنت قرب بلدة روشستر فى ٩ يونيو ١٨٧٠. ومن العجيب أن شارل ديكنز لم يذهب إلى المدرسة غير مدة لا تتجاوز أربع سنوات. ومع هذا فقد كتب قرابة عشرين قصة من أروع قصص العالم، وهى تمتاز على السواء بالتصوير الخالق، والتحليل الشائق، والسخرية اللاذعة، والفكاهة البارعة، ولقد صدق فولتير حين قال: إن السخرية سلاح الأعزل المغلوب على أمره. ولهذا نرى تلك الملكة أقوى ما تكون فى الشعوب المستضعفة والطبقات التى يقسو عليها الدهر، وفى الأفراد الذين شددت عليهم الحياة النكير، وهم مع هذا من خيار الناس حضور بديهية وصفاء قريحة وذكاء فؤاد.

وقد سلخ هذا الكاتب العظيم طفولة مليئة بالآلام والمتاعب. فكان استقبال الدنيا لذلك العبقرى الفذ استقبال عداء لا يبشر بالخير، ولولا القوة الكامنة التى ركبتها الطبيعة فى فطرة أبنائها الممتازين، لألقى شارل السلاح واستنام لكلكل الدهر، ولا سيما بعد أن تراكمت الديون على والده

فـزج بـه الدائنـون فـى السـجن ولشـارل مـن العمـر يومئـذ عشـر سـنوات لا تزيد، ووجـدت أمـه نفسـها عاجـزة عـن إعالـة أطفالهـا الأربعـة، فحملتهـم إلى السـجن كـى تعيـش علـى نفقـة الدولـة مـع زوجهـا الحبيـس. أمـا الولـد الخامـس شـارل فقـد شـق طريقـه بعـد جهـد جهيـد إلى وظيفـة فـى مصنـع للصـق البطاقـات علـى زجاجـات الدهـان الـذى يسـتخدم لتلميـع الأحذيـة. وقـد خلـد ديكنـز فظائـع تشـغيل الأحـداث فـى المصانـع والقسـوة عليهـم فـى الإصلاحيـات فـى هـذه الروايـة الخالـدة "أوليفـر تويسـت"، ويرجـع توفيقـه العظيـم فـى ذلـك، بعـد عبقريتـه الفطريـة، لطـول معاشـرته للأطفـال المشـردين، فكـم مـن ليلـة قضاهـا نائمـا معهـم فـى جحـر واحـد، فلمـس خفايـا نفوسـهم عن كثـب، ولم يكـن دافع السـخرية عنـد ديكنـز هـو شـقاء طفولتـه فحسـب، بـل أيضا شـقاء رجولتـه. فمن سـخرية الأيـام أن ذلـك الكاتـب الـذى أبـدع تصويـر مناعـم السـعادة الزوجيـة، منـى فـى حياتـه الزوجيـة بفشـل ذريـع أليـم، فقضـى ثلاثـة وعشـرين سـنة لا يحبهـا أدنـى حـب. بيـد أن غيـاب الحـب عـن مخـدع تلـك الأسـرة لم يحـل دون إنجابهمـا عشـرة أطفـال بالتمـام والكمـال! ولم ينجـح إنجـاب الأطفـال فـى تخفيـف حـدة الشـقاء الزوجـى الـذى راح يتفاقـم بمـرور الوقـت سـنة بعـد سـنة، ففـى الحـين الـذى كان العـالم المتحضـر راكعـا عنـد قدمـى الكاتـب العظيـم، كان بيتـه مثـالا تامـا للتعاسـة، ومـرة أخـرى ترسـب المـرارة فـى أعمـاق الكاتـب العظيـم، ويصـدق لديـه بالتجربـة أن متـاع الدنيـا غـرور، وأنـه باطـل الأباطيـل.

وإن فحولـة ديكنـز لتظهـر واضحـة فـى كل مـا تركـه مـن آثـاره الأدبيـة، فمـا أشـبه فـى ذلـك بالقديـس الـذى تتمثـل بركتـه وكراماتـه فـى كل جارحـة مـن جسـمه، بـل فـى الهـين الدانـى مـن أهـداب ثوبـه! وليـس أدل علـى ذلـك مـن أن الكاتـب الكبـير اشـتغل ردحـا مـن حياتـه بالصحافـة اليوميـة والأسـبوعية، فكانـت هـذه المهنـة تقتضيـه فـى كثـير مـن الأحيـان أن يكتـب موضوعـات غفـلا مـن التوقيـع. وهنـا أيضـا تظهـر سـخرية

الأيام في حياة تشارلز ديكنز بالغة الأثر، لأنه كان المؤسس لأكثر من صحيفة قوية حظيت بإقبال الجمهور وتأييده، ومن هذه الصحف صحيفة الديلي نيوز التي تعد إلى اليوم من أقوى الصحف البريطانية.

ومن عجب أنه ما كاد يفرغ من تأسيس صحيفة من تلك الصحف ونفخ روحه فيها إلى أن تستوى قوية فتية، حتى تتآمر الجريدة على إخراجه، لأنه كان بعبقريته وامتيازه أقوى من أن يغتفر له حساده غضه من شأنهم، لا بعمل إيجابي، بل بالفراق الواقعي الهائل بين حضيضهم وارتفاعه الشاهق.

obeikandl.com

شخصيات الرواية

أوليفر تويست : طفل يتيم نشأ لا يعرف له أهلا وربى فى ملجأ، ثم هرب من القسوة ووقع فى يد عصابة لصوص ونشالين.

فيجن : شيخ لا ضمير له، هو زعيم عصابة اللصوص، يصيد الغلمان والفتيات ويعلمهم السرقة والنشل. جبان ماكر شحيح.

جاك دوكنز : غلام يعد أبرع تلاميذ فيجن، يتظاهر بالرجولة برغم صغر سنه، ويعرف باسم "المراوغ" أو "المراوغ الداهية".

تشارلى بيتس : غلام آخر من تلاميذ فيجن البارعين. كثير الضحك والمرح.

بيل سيكس : لص خطير جرئ يسطو على البيوت ولا يهاب أحدا. شديد القسوة، من أفراد عصابة فيجن ويخشاه هذا ويتمنى هلاكه.

نانسى : فتاة بائسة علمها فيجن النشل والسرقة منذ كانت طفلة صغيرة، صديقة بيل سيكس وأمته الذليلة. لا تخلو من مروءة برغم انحطاطها.

توبى كراكيت : فرد آخر من أفراد العصابة الكبار.

المستر بمبل : معاون الملجأ الذى نشأ فيه أوليفر تويست، شديد الغرور.

المستر سوربرى : حانوتى استخدم أوليفر تويست مدة بعد أن أخذه من الملجأ.

المستر براوتلو : شيخ من الوجهاء عطف على أوليفر تويست وآواه.

المستر جريمويج : صديق المستر براونلو. شيخ غريب الأطوار.

المسز بدوين : مديرة بيت المستر براونلو. سيدة عجوز رحيمة القلب.

المسز مايلى : سيدة موسورة عطفت على أوليفر تويست وآوته بعد أن وقع فى يدها جريحا متهما بالسطو على بيتها.

روز : ابنة أخى المسز مايلى. فتاة جميلة رحيمة القلب كانت خير صديق لأوليفر تويست.

المستر جيلز : ساقى المسز مايلي، وقور يحب أن تنسب إليه الشجاعة.

برتيلز : خادم قديم فى بيت المسز مايلى، فى حوالى الخمسين من عمره ولا يزال يسمى "ولدا".

السنوات الأولى

obeikandl.com

- ١ -

جلس أحد الأطباء إلى جانب سرير فى حجرة زهيدة الأثاث بأحد الملاجئ. ووقفت بالقرب منه فقيرة لاجئة مسنة، وكانت تحمل بين ذراعيها طفلا ولد حديثا كان يصرخ صراخا عاليا. وتحرك دثار ممزق كان ملقى على السرير دون عناية، وارتفع برفق من فوق الوسادة وجه شاحب لامرأة شابة، وقالت بصوت واهن:

– دعونى أشاهد الطفل ثم أموت!

فقال لها الطبيب بعطف:

– أوه. لا ينبغى لك أن تذكرى كلمة الموت بعد!

وأردفت اللاجئة المسنة التى كانت تؤدى مهمة الممرضة قائلة:

– كلا! بارك الله فيها. إنها يا سيدى بعد أن تعيش قدر ما عشت أنا وتكون قد ولدت ثلاثة عشر طفلا ماتوا جميعا، ما عدا اثنين يعيشان معى فى الملجأ، فعندئذ تعرف كيف تقول خيرا مما قالته الآن!

فهزت الأم الشابة رأسها ومدت يدها نحو الوليد، فوضعته الممرضة بين ذراعيها، فقبلته فى جبينه بشفتيها الباردتين البيضاويتين، ومسحت بيدها على وجهه، ونظرت حولها فى ذهول ثم سقطت على فراشها وقد لفظت نفسها الأخير!

وقال الطبيب:

– لقد انتهى الأمر!

فمالت العجوز عليها لتأخذ الطفل قائلة:

– أجل! يا للعزيزة البائسة!

وقال الطبيب وهو يضع قبعته على رأسه:

– لقد كانت فتاة حسناء. . من أين جاءت ؟

فأجابت المرضة قائلة:

– لقد جئ بها إلى هنا فى الليلة الماضية بعد إذ وجدت راقدة فى الطريق، وكانت قد مشت مسافة طويلة؛ إذ كان حذاؤها قد تمزق. ولكن لا يدرى أحد من أين جاءت، ولا إلى أين كانت تقصد.

فهز الطبيب رأسه قائلا:

– وقد لا يعلم أحد ذلك. . مساء الخير!

وخرج ليتناول طعام العشاء! أما اللاجئة فقد جلست فوق كرسى واطئ، وأخذت تلبس الطفل ثيابه. وأزاحت الدثار الذى كان هو غطاؤه الوحيد فبدا متجردا، لا يدرى أحد أهو ابن أحد النبلاء أم ابن أحد المتسولين. ووضعت فى مكان الدثار ثيابا قطنية قديمة أصفر لونها من كثرة استخدامها لمثل هذا الغرض. وكانت هذه الثياب تدل الناس جميعا على مكانة هذا الطفل فى الهيئة الاجتماعية – فهو طفل معدم من يتامى أحد الملاجئ، ذليل مهين جائع، يزدريه الجميع ولا يعطف عليه أحد!

- ٢ -

ثم أرسل الطفل إلى معهد على بعد نحو ثلاثة أميال، انتظم نحو عشرين أو ثلاثين من أمثاله اليتامى الفقراء واللقطاء، تحت رعاية أرملة مسنة تدعى المسزمان، وكانت تقبض من الحكومة بضعة بنسات عن كل طفل فى مقابل طعامه، ولكنها كانت تستأثر لنفسها بالجانب الأكبر من هذا المبلغ، ولا تطعم الأطفال فى رعايتها إلا ما لا يكاد يقوم بأودهم. فلا عجب إذن أن ينشأ الطفل مع قلة التغذية ضعيف الجسم، حتى إذا بلغ التاسعة من عمره كان شاحب الوجه، قصير القامة، نحيل البدن. ولكن الطبيعة وهبته روحا قويا وجنانا جريئا. وربما كان ذلك هو الذى أبقاه حيا تسع سنين. وأيا كان السبب، فقد كان اليوم هو عيد ميلاده التاسع. وكانوا قد ضربوا ضربا مبرحا، ثم حبستهم المسزمان لأنهم تجرأوا على القول بأنهم جائعون!

وجلست المسزمان فى غرفة الاستقبال، تستقبل المستر بمبل معاون الملجأ، وقال هذا لها:

– لقد جئت للعمل، فإن الطفل المسمى أوليفر تويست قد بلغ اليوم التاسعة من عمره.

فقال المرأة فى رياء: "بارك الله فيه".

واستطرد المستر بمبل قائلا: "إن الملجأ كان قد أعلن عن جائزة قدرها عشرة جنيهات لمن يدل على والد هذا الطفل أو على اسم أمه أو حقيقة ظروفه، ولكنا لم نصل إلى شئ من ذلك".

فسألته المسزمان: "كيف صار له اسم إذن؟"

فأجابها المعاون بكبرياء: "لقد اخترعت له اسما!"

– أنت يا مستر بمبل ؟

– أجل!. . أنا يا مسزمان! إننا نسمى الأطفال بترتيب الحروف الهجائية. وقد كان آخر حرف وصلنا إليه هو حرف S فسميت الطفل سوابل. وبعده حرف T فسميت الطفل يليه تويست. والطفل الذى يأتى بعده سيكون اسمه أونوين. لقد أعددت أسماء يبدأ كل منها بحرف من الحروف الهجائية حتى نصل إلى حرف Z.

فقالت له المسزمان: "حقا إنك لأديب !"

فرد المعاون وقد سره هذا المديح : "ربما كنت كذلك يا مسزمان. والآن لنعد إلى العمل. . إن أوليفر قد أصبح سنه لا تؤهله للبقاء هنا، ولذا قررنا أن يعود إلى الملجأ. وقد جئت بنفسى لكى آخذه فهيا دعينى أره فورا".

فقالت المسزمان: "سأجيك به توا".

وغادرت الغرفة لهذا الغرض، ثم أخرجت أوليفر من المخزن، وغسلت له وجهه ويديه على عجل وقادته إلى حضرة المستر بمبل. وقالت له: "احن رأسك للسيد يا أوليفر".

وسأله المستر بمبل: "أتأتى معى يا أوليفر؟"

وهم أوليفر بأن يجيب بأنه يذهب مع أى إنسان عن طيب خاطر، ولكنه لما رفع بصره التقى ببصر المسزمان، وكانت واقفة خلف كرسى المعاون مقطبة الجبين، تهز لأوليفر قبضيتها منذرة. فأدرك الطفل ما تعنيه وقال: "أنا لا أريد أن أترك المسزمان.. أيمكن أن تأتى معى ؟"

فأجاب المستر بمبل: "كلا! لا يمكنها ذلك. . ولكنها ستأتى لزيارتك أحيانا".

ولم يكن ذلك مما يبعث الطمأنينة فى نفس الطفل. . ولكنه، على صغر سنه، كان من الذكاء بحيث يدعى الأسف لفراقها. ولم يكن عسيرا عليه أن يستدر الدمع من عينيه. . فإن الجوع والألم الحديث العهد، مما يساعد كثيرا على البكاء، وقد كان بكاء أوليفر طبيعيا حقا. . وقد منحته المسزمان قبلا كثيرة، والأهم من ذلك أنها زودته بقطعة خبز وزبد حتى لا يبدو شديد الجوع حتى يصل إلى الملجأ!

ثم خرج به المستر بمبل من تلك التعيسة التى لم يلق فيها قط كلمة عطف أو نظرة حنان لتضئ ظلمات السنوات الأولى من حياته. ومع ذلك انهمر الدمع من عينيه حيث أغلق الباب وراءه. فإن رفاقه الصغار وشركاءه فى الشقاء الذين خلفهم وراءه هم الأصدقاء الذين لم يعرف له أصدقاء غيرهم. ولأول مرة شعر بوحدته فى هذا العالم الواسع تثقل على نفسه!

- ٣ -

صار أوليفر فى الملجأ أشد شقاء مما كان فى دار المسزمان. فقد صار عليه الآن أن يعمل، فيزيده ذلك جوعا. وكان لا يعطى من الطعام سوى ثلاث وجبات كل يوم من حساء رقيق كثير الماء تضاف إليه بصلة واحدة مرتين فى الأسبوع، ونصف رغيف صغير كل يوم أحد، وكانت الحجرة التى يتناول فيها الغلمان طعامهم قاعة حجرية فسيحة، يقف عند أحد طرفيها خادم تساعده امرأة أو امرأتان، وكان فى وقت الطعام يغترف الحساء من وعاء كبير. وكان لكل غلام ملء سلطانية صغيرة واحدة، ولم تكن هذه الآنية تحتاج إلى غسل لأن الغلمان كانوا ينظفونها بملاعقهم حتى تلمع. .. فإذا فرغوا من هذه المهمة التى لا تستغرق وقتا طويلا، جلسوا يحملقون فى الوعاء بأعين مفتوحة، وكأنهم يلتهمون المعدن الذى صنع منه، وقد يلعقون أيضا أصابعهم بكثير من العناية حتى لا يفلت منهم رذاذ من الحساء ربما يكون قد وقع عليها!

وقد صبر أوليفر تويست مع رفاقه ثلاثة أشهر على آلام الموت البطئ جوعا! وأخيرا استفزهم الجوع، حتى أن أحدهم، وكان أطول قامة من سنه، صارحهم بأنه إذا لم يعط طاسا ثانيا كل وجبة فقد يأكل ليلا أقرب غلام إلى سريره فى أثناء نومه! وكانت عيناه تنمان عن جوع وهياج، فلم يرتابوا فى صدق ما قاله. وعلى ذلك عقدوا اجتماعا وقع فيه الاختيار على غلام منهم ليذهب إلى الخادم بعد العشاء ويطلب منه مزيدا من الحساء. وكان ذلك الغلام هو أوليفر تويست!

وفى المساء، اتخذ الغلمان مقاعدهم من المائدة، ووقف الخادم بجوار الوعاء وخلفه مساعدتاه وأخذ يغترف الحساء. وسرعان ما اختفى فى بطون الغلمان. ثم أخذ هؤلاء الغلمان يتهامسون ويشيرون إلى أوليفر، وصار من بجوارهم يدفعونه. ومع صغر سنه استمد شجاعة من جوعه وبؤسه، فقام عن المائدة وتقدم نحو الخادم وفى يده الطاس والملعقة، وقال له: "أرجو منك يا سيدى أن تعطينى مزيدا من الحساء".

وكان الخادم رجلا بادنا صحيح الجسم، ولكن وجهه أصفر حين سمع ذلك، ونظر إلى الثائر الصغير برهة وهو بادى الدهشة ثم قال له بصوت ضعيف: "ماذا تقول؟"

– أرجو يا سيدى أن تعطينى مزيدا من الحساء!

وعندئذ سدد الخادم ضربة للعقته الخشبية إلى رأس أوليفر، ثم أمسكه بين ذراعيه وصاح يطلب النجدة. وجاء المستر بمبل إلى القاعة مسرعا. .. ولما أنبئ بالجرم الذى ارتكبه أوليفر صاح مندهشا: "طلب المزيد؟!. . إن هذا الغلام سوف تنتهى حياته على حبل المشنقة!"

واقتيد أوليفر توا إلى غرفة حبس فيها. وتباحث موظفو الملجأ فى أمره، وكانت النتيجة أن علق فى اليوم التالى إعلان على الباب الخارجى للملجأ، بمنح جائزة قدرها خمسة جنيهات لأى شخص يأخذ أوليفر تويست. وبعبارة أخرى يمنح الملجأ خمسة جنيهات لأى رجل أو امرأة يحتاج إلى صبى له، فى أية مهنة أو صناعة!

الفصل الثانى

ملآن جديد للآلام

obeikandl.com

- ١ -

بعد أن ارتكب أوليفر جريمة طلب مزيد من الحساء، مكث أسبوعا وهو سجين غرفة مظلمة موحشة، وكان يسمح له بالتريض صباح كل يوم فى فناء مرصوف بالحجر. وبين يوم وآخر يحمل إلى القاعة التى يتناول الغلمان فيها طعامهم، ويضرب علنا ليكون لهم نذيرا وعبرة. كذلك كان ينقل كل مساء إلى تلك القاعة ليستمع إليهم وهم يصلون ويدعون الله أن يجعلهم طيبين، قانعين، مطيعين!. وكان يبكى كثيرا بالنهار، فإذا حل الليل الطويل بسط يده أمام عينيه وحاول أن يستيقظ بين حين وآخر ويقترب من الحائط حتى ليلتصق به وكأنما يحسب سطحه البارد اليابس وقاء له فى الظلمة والوحدة المحيطتين به!

ويبقى الإعلان الذى يعرض أوليفر تويست صبيا لمن يشاء معلقا على باب الملجأ دون أن يبدى أحد رغبة فى أخذ ذلك الغلام. ثم حدث فى ذات يوم أن قابل المستر بمبل خارج الباب المستر سوربرى الحانوتى، وكان أصحاب الشأن فى الملجأ قد اتفقوا معه على أن يتولى دفن كل من يموت من اللاجئين. وهو رجل طويل القامة نحيل الجسم، يرتدى بذلة سوداء قديمة، ويبدو على ملامحه الحزن، وهو ما يلائم مهنته!

وقال وهو يصافح المستر بمبل: "لقد اتخذت التدابير لدفن المرأتين اللتين ماتتا فى الليلة الماضية".

فقال له معاون الملجأ: "إنك سوف تكون ثروة يا مستر سوربرى".

فاعترض الحانوتى قائلا: "أتظن ذلك؟ إن الأجور التى يدفعها الملجأ هى أجور صغيرة!"

فأجاب المستر بمبل قائلا: : "وكذلك التوابيت!"

وقد أعجب المستر سوربرى بهذه النكتة وضحك منها طويلا ثم قال: "حسنا حسنا يا مستر بمبل! إنى لا يسعنى إلا أن أقول إن نظام التغذية المتبع فى الملجأ هو الذى يؤدى إلى كون التوابيت ضيقة ضحلة. ولكن يجب أن نجنى بعض الربح. والخشب المجفف جيدا مادة غالية الثمن وجميع المقابض الحديدية تأتى عبر القناة من برمنجهام!

– إن لكل مهنة مساوئها!

– طبعا يا مستر بمبل، ولكن على أن أكافح أشد هذه المساوئ: وهى أن السمان الأبدان يموتون قبل غيرهم، والناس الذين اعتادوا اليسر والرخاء هم أول من يموتون حين يأتون إلى الملجأ. وفرق ثلاث بوصات أو أربع فى التابوت يحدث نقصا كبيرا فى الأرباح خصوصا إذا كان للإنسان أسرة يعولها!

وكان المستر سوربرى يتكلم بلهجة الرجل المغبون. فتبين المستر بمبل فى كلامه لوما خفيا لأصحاب الشأن فى الملجأ، ولذا آثر أن يغير موضوع الحديث. فسأله قائلا: "ألا تعرف أحدا محتاجا إلى صبى؟ بشروط سخية يا مستر سوربرى؟"

وإذ قال ذلك رفع عصاه إلى الإعلان الذى على الباب الخارجى وضرب بها ثلاث مرات على كلمتى "خمسة جنيهات".

فقال الحانوتى: "ان هذا هو ما أردت أن أكلمك فيه. .. إننى أدفع قدرا كبيرا من الضرائب لصالح الفقراء. . وما دمت أدفع لهم كثيرا فإن لى الحق فى أن آخذ منهم أكثر ما استطيع. ولذا احسبنى آخذ الغلام لنفسى !"

فأمسكه المستر بمبل من ذراعه وقاده إلى داخل المبنى. ولم تمض خمس دقائق حتى دبر أمر ذهاب أوليفر إليه فى مساء اليوم نفسه!

حـان وقـت مغـادرة الملجـأ وشـيكا، ووقـف أوليفـر متأهبـا للذهـاب، ومتاعـه فـى يـده ولم يكـن يرهقـه حملـه لأنـه قـد احتوتـه كلمـة لفـة صغـيرة مـن الـورق. وأمسـكه المستر بمبـل مـن يـده الأخـرى وقـاده إلى مـكان جديـد لـلآلام!

وكان الحانوتـى قـد أغلـق دكانـه منـذ لحظـة وأخـذ يكتـب حسـاب عمـل اليـوم فـى ضـوء شمعـة. وأنـه لكذلـك إذا بالمستر بمبـل قـد جـاء يقـول: "هأنـذا أحضـرت إليـك الغـلام يـا مستر سـوربرى".

– أهذا هو الولد؟

ورفـع الشـمعة فـوق رأسـه لـيرى أوليفـر جيـدا فـى ضوئهـا. ثـم صـاح قائـلا: "يـا مستر سـوربرى: هـل لـك أن تأتـى لحظـة إلى هنـا يـا عزيزتـى؟"

فجـاءن مـن غرفـة صغـيرة خلـف الـدكان، امـرأة قصـيرة القامـة، نحيفـة الجسـم. لهـا وجـه يشـبه وجـه الثعلـب. وقـال لهـا المستر سـوربرى باحـترام ظاهـر: "يـا عزيزتـى هـذا هـو غـلام الملجـأ الـذى حدثتـك عنـه".

فقالت امرأة الحانوتى: "رباه! إنه صغير القد جدا !"

وعندئذ قال المستر بمبل: "أجل. إنه صغير الجسم حقا".

ونظر إلى أوليفر وكأنه المسئول عن بطء نموه ثم قال:

– إنـه صغـير الجسـم. . ولا يمكـن نكـران ذلـك. ولكنـه سـوف ينمـو يـا مستر سـوربرى. سـوف ينمـو!

فقـال المـرأة فـى كـدر: "آه أحسـبه" سـينمو علـى طعامنـا وشـرابنا. إن أطفـال الملجـأ تتكلـف رعايتهـم أكثـر ممـا يسـتحقون. اهبـط إلى الطابـق الأدنـى أنـت يـا كيـس العظـام الصغـير!

وفتحت امرأة الحانوتى بابا جانبيا ودفعت أوليفر أمامها فهبط بعض الدرج إلى مخزن حجرى مظلم رطب، يستخدم كمطبخ. وكانت به فتاة غير مرتبة الملابس تلبس حذاء خلقا وجوربا أزرق ممزقا. وقالت لها المسز سوربرى وكانت قد تبعت أوليفر:

– أعط هذا الغلام بعض قطع اللحم الباردة التى كانت محجوزة للكلب. . إن الكلب لم يعد إلى البيت منذ الصباح ولذا يمكنه أن يستغنى عنها!

ولمعت عينا أوليفر عند سماعه كلمة اللحم، ثم وضعت أمامه صحفة، وأخذ يأكل بنهم وامرأة الحانوتى ترقبه وقد ساءها منه قوة شهيته!

ولما أتم تناول طعامه قال له: "تعال معى".

وقادته إلى أعلى ثم قالت له: "إن فراشك تحت منضدة الصراف. .. لعلك لا تبالى أن تنام بين التوابيت! ولكن سواء عليك أأحببت ذلك أم كرهته، فلا مكان لنومك غير هذا المكان. هيا ولا تبقنى هنا طول الليل!"

فتبع أوليفر سيدته الجديدة طائعا!

- ٢ -

ولما صار أوليفر وحده فى دكان الحانوتى، نظر حواليه خائفا، ولعل من هم أكبر منه سنا يدركون ذلك. . وكان فى وسط الغرفة تابوت لم يتم صنعه وقد مثل فيه الموت فتملكت أوليفر قشعريرة، وخيل إليه أن شبحا مخيفا يوشك أن يرفع رأسه من ذلك التابوت فيذهب بعقله رعبا! وكان على الحائط صف طويل من ألواح الخشب قطعت لتصنع منها توابيت، فبدت مع قلة الضوء كأنها أشباح عالية الأكتاف! وكان الجو فى الحجرة حارا والهواء مثقلا برائحة التوابيت. وكان الفراغ الذى تحت لوحة الصراف، والذى حشرت فيه مرتبة أوليفر، أشبه الأشياء بالقبر. ولما زحف إلى فراشه الضيق، ود لو كان هذا تابوته حتى يدفن فى فناء كنيسة وينام نومه هادئة إلى الأبد!

وفى الصباح استيقظ على صوت أحد يركل باب الدكان بشدة من الخارج. وقد تكرر ذلك نحو خمس وعشرين مرة قبل أن ينتهى من ارتداء ثيابه. ولما شرع يزيح السلسلة التى وراء الباب سكتت القدمان عن الركل وسمع صوت أحد يصيح به:

– هيا افتح الباب!

فرد أوليفر قائلا: "سأفتحه يا سيدى توا". فاستطرد من بالخارج يقول من ثقب الباب:

– أحسبك الغلام الجديد. أليس كذلك؟

فقال أوليفر: "أجل يا سيدى".

– تسع سنين يا سيدى.

فقال له صاحب الصوت: "إذن سأضربك حين أدخل!"

وكان أوليفر قد ضرب مرارا وتكرارا فلم يشك فى أن صاحب الصوت سيفعل ما قاله.

وسحب المزلاج بيد مرتعشة وفتح الباب. ووجد أمامه شابا كبير الجسم فى نحو السابعة عشرة من عمره، وكان كبير الرأس، ذا عينين تنمان عن مكر، وأنف أحمر.

ثم قال له:

– لعلك لا تدرى من أنا يا ابن الملجأ ؟

فأجاب أوليفر قائلا: "كلا يا سيدى !"

– إننى المستر نوح كلايبول. . وأنت تحت رياستى. أنزل المصراعين أيها الوغد الكسول الصغير!

وإذ قال ذلك ركل أوليفر بقدمه ودخل الدكان بكبرياء!

ولم يلبث المستر سوربرى وزوجته أن جاءا بعده. وكان أوليفر قد أنزل المصراعين وتبع نوح كلايبول إلى المطبخ ليتناول طعام الفطور!

وقالت شارلوت: "تعال قرب الموقد يا نوح. . لقد حجزت لك قطعة صغيرة من لحم الخنزير المقدد من فطور السيد. وأنت يا أوليفر.. أطلق الباب الذى وراء المستر نوح. وتناول الشاى والخبز فوق ذلك الصندوق. أسرع لأنهم يريدون منك أن تنظف الدكان. . أسامع أنت؟"

وقال نوح كلايبول مكررا له القول : "أسامع أنت يا ابن الملجأ ؟"

وهنا قالت شارلوت: "آه يا نوح. . يا لك من مخلوق مسل حقا.. لماذا لا تدع الولد وشأنه ؟"

فقال نوح: "أدع الولد وشأنه ؟" إن كل إنسان يدعه وشأنه، ولا يتدخل فى أمره أبوه ولا أمه. إن كل ذوى قرباه يدعونه يسير فى طريقه. أليس كذلك يا شارلوت؟".

فقهقهت الفتاة ضاحكة، واشترك معها نوح فى الضحك، ثم قالت له: "يالك من شاب مضحك !"

ثم نظر كلاهما بازدراء إلى أوليفر تويست وقد جلس يرتعش فوق صندوق فى أبرد ركن بالغرفة، ويأكل القطع التى تركت خصيصا له:

وكان نوح غلاما فقيرا ولكنه لم يكن من أيتام الملجأ، وكان يعرف أبويه، إذ كانت أمه غسالة، وكان أبوه جنديا سكيرا. وكان صبيان الحوانيت فى الناحية قد اعتادوا أن يسخروا من نوح لفقره، وكان يتحمل إهانتهم دون أن يجيب، أما الآن فإنه يقدر أن يوفى بدينه مع الفائدة، إلى ذلك اليتيم الذى لا أهل له، والذى رماه القدر فى طريقه!

الفصل الثالث

أوليفر يهرب !

obeikandl.com

- ١ -

فى الأشهر التى تلت ذلك، صار أوليفر يصحب المستر سوربرى فى الجنازات، وبذا عرف الكثير من خفايا طبائع البشر: فمثلا لحظ أنه حين يتولى الحانوتى دفن عجوز غنية أو شيخ غنى، كان من يحيطون بهما من أبناء الأخوة والأخوات وبناتهم، يبدون فرحين، مع أنهم كانوا قبل ذلك يظهرون الحزن فى خلال مرض قريبهم أو قريبتهم. ولحظ أيضا أن الرجال والنساء الذين يبرح بهم الحزن فى أثناء الجنازة، سرعان ما يولى عنهم الحزن ويعودون إلى مرحهم، حين يرجعون إلى بيوتهم ويتناولون الشاى!

وفى خلال تلك الأشهر أيضا ظل أوليفر يعانى القسوة من نوح كلايبول. ولما كان نوح يسئ معاملته، فقد جعلت شارلوت تقسو عليه تبعا لذلك. وقد حاول المستر سوربرى أن يبدى له جانب المودة، ولكن ذلك الحانوتى كان تحت سيطرة زوجته التى تبغض الغلام. وهكذا لم يكن أوليفر جد سعيد، بينما أولئك الأشخاص الثلاثة ضده، وعليه عمل كثير يؤديه!

- ٢ -

وفى أحد الأيام هبط أوليفر ونوح إلى المطبخ فى ساعة الغداء المعتادة. ولما كانت شارلوت قد دعيت لبعض المهام فقد اضطر إلى الانتظار قليلا. ورأى نوح كلايبول أن خير ما يمضى فيه تلك الفترة من الزمن هو أن يضايق أوليفر، ومن ثم أخذ يشد شعره ويلوى أذنيه ويحاول بكل طريقة أن يجعله يبكى، ولكن أوليفر لم تسقط من عينيه دمعة، حتى خطر لنوح أن يضرب على وتر حساس فى قلب الغلام، فقال له: "يا ابن الملجأ. . كيف حال أمك؟ ".

فأجابه أوليفر: "لقد ماتت ! لا تقل شيئا عنها!"

وارتفع الدم إلى وجهه وهو يقول ذلك، وزاد تنفسه سرعة، وصار فمه ومنخره يتحركان حركة عصبية. فحسب نوح أن ذلك منه مقدمة للبكاء ولذا استطرد يقول: "بأى شئ ماتت يا ابن الملجأ؟"

فقال أوليفر: "لقد تحطم قلبها كما قيل لى ! وأحسبنى أعرف كيف يموت الإنسان من ذلك!"

وانحدرت دمعة على خد أوليفر فقال له نوح مسرورا: "ما الذى جعلك تبكى؟"

فمسح أوليفر دمعته وأجاب: "لست أنت الذى جعلتنى أبكى. . لا تظن ذلك ".

فضحك نوح وقال: "لست أنا ؟ ماذا تقصد؟ ".

– أقسد أنى لم أبك منك ! والآن كفى لا تقل لى شيئا عنها، إن ذلك خير لك!

– خير لى ؟ خير لى؟! أنت تعلم يا ابن الملجأ أنه ليس باليد حيلة الآن. . ولم تكن بالطبع تستطيع شيئا فيما مضى. وأنا شديد الأسف لذلك. وأنا موقن أننا جميعا آسفون وأننا نرثى لك. ولكن يجب أن تعلم يا ابن الملجأ أن أمك كانت امرأة سوء!

فألقى أوليفر عليه نظرة سريعة وقال له: "ماذا تقول؟"

فكرر نوح قوله: "امرأة سوء". ثم أردف قائلا: "وحسنا فعلت يا ابن الملجأ إذ ماتت حين ماتت وإلا لكانت الآن تشتغل بأشغال شاقة فى السجن إن لم تشنق!"

فاحمر وجه أوليفر من الغضب وانقض على نوح وأمسكه من عنقه وأخذ يهزه هزا حتى صارت أسنانه تصطك فى رأسه. ثم جمع كل قوته فى ضربة واحده طرحه بها أرضا!

لقد كان الغلام منذ دقيقة واحدة وديعا حزينا كما شاء سوء المعاملة أن يصنع به. ولكن نخوته استنفرت أخيرا، والإهانة التى وجهت إلى أمه الميتة جعلت دمه يغلى، ولمعت عيناه وصار شخصا آخر وهو واقف فوق الجبان الضخم الراقد عند قدميه!

وصرخ نوح قائلا: "سيقتلنى! يا شارلوت!. يا سيدتى! إن الغلام الجديد قد هم بقتلى! النجدة!. إن أوليفر قد جن! يا شارلوت!"

وانطلقت على أثر صراخه ولولة عالية من شارلوت، وأخرى أعلى منها من المستر سوربرى. واندفعت أولاهما إلى المطبخ من الباب الجانبى، ووقفت الأخرى على السلم حتى تأمن كل خطر إذا تقدمت. وصاحت شارلوت وهى تمسك أوليفر بكل قوتها التى تكاد توازى قوة رجل:

– أوه! أنت أيها الوغد الفاتك الناكر للجميل!

وكانت بين كل مقطع من حرف وآخر تهوى عليه بضربة مصحوبة بصرخة. ولم تكن قبضة يدها خفيفة بحال! ولكن المسز سوربرى خشيت ألا يكفى ذلك الضرب لتهدئة ثائرة أوليفر، فدخلت المطبخ وأخذت تعاون شارلوت على إمساكه بإحدى يديها بينما تخدش وجهه بالأخرى. ورأى نوح فى ذلك فرصة مواتية فقام من الأرض وجعل يضرب أوليفر فى ظهره!

ولما أخذ منهم الكلل مأخذه ولم يستطيعوا مزيدا من الضرب، سحبوا أوليفر وهو يجاهد ويصيح حتى وصلوا به إلى المخزن وأوصدوا الباب عليه. حتى إذا تم ذلك جلست المسز سوربرى على كرسى وانفجرت باكية. فقالت شارلوت:

– راح الشر! إنها توشك أن يغمى عليها!. ائتنى بكوب ماء يانوح يا عزيزى! أسرع!

فقالت المسز سوربرى: "آه يا شارلوت! من رحمة الله بنا أننا لم نقتل جميعا ونحن نيام فى فراشنا!"

فأجابت الفتاة: "هذا من رحمة الله حقا يا سيدتى! ولعل فى ذلك درسا للسيد كيلا يستخدم بعد اليوم أحدا من غلمان الملجأ الأشرار الذين لم يولدوا إلا لكى يصبحوا قتلة ولصوصا من المهد. . يالنوح المسكين!. لقد كاد يقتل يا سيدتى حين دخلت عنده!"

فنظرت المسز سوربرى إلى نوح بعطف وقالت: "ياللمسكين!"

ولا تنس أن قمة رأس أوليفر لا تصل إلى أعلى من صدر نوح!. . فمسح هذا عينيه بيديه إذ كان موضع الشفقة فاستدر ذلك دمعه. ثم صاحب المسز سوربرى قائلة: "ما الذى ينبغى عمله؟ إن سيدكما ليس بالبيت الآن. وليس بالدار من رجل. ولا يلبث ذلك الغلام عشر دقائق حتى يفتح الباب ركلا بقدميه!"

فقالت شارلوت: "لا أدرى يا سيدتى. . اللهم إلا إذا استدعينا الشرطة".

وأردف نوح قائلا: "أو جنود الجيش!"

ولكن المستر سوربرى تذكرت فى تلك اللحظة صديق أوليفر القديم فقالت: "كلا! بل اذهب جريا إلى المستر بمبل يا نوح وادعه إلى هنا توا دون أن يضيع دقيقة واحدة. . لا تبال قبعتك! أسرع!"

ولم ينتظر نوح حتى يجيب بل مضى فورا بأسرع ما يستطيع!

obeikandl.com

- ٣ -

ولما وصل نوح إلى الملجأ صاح قائلا: "يا مستر بمبل! يا مستر بمبل! يا سيدى! إن أوليفر قد. ...".

فسأله المستر بمبل بلهفة: "ماذا؟ هل هرب أوليفر؟ هل هرب يا نوح؟"

– كلا يا سيدى! إنه لم يهرب يا سيدى ولكنه جن! لقد شرع فى قتلى يا سيدى. ثم شرع فى قتل شارلوت. . ثم سيدتى. آه ما أشده ألما يا سيدى. إنه عذاب يا سيدى!

وصار يتلوى بجسده بحركات شتى ليلقى فى روع المستر بمبل أن أوليفر قد ضربه وآله فقال له هذا: "يا ولدى المسكين! ولكن أين كان المستر سوربرى؟"

– لم يكن بالبيت وإلا لقتله أيضا. . لقد قال إنه يود لو يقتله!

– آه!. . قال إنه يود لو يقتله؟

– أجل يا سيدى ! إن سيدتى ترجو منك أن تأتى توا وتضربه لأن السيد ليس بالبيت!

فقال المستر بمبل: "بالتأكيد يا بنى. بالتأكيد".

وأخذ عصاه وذهب مع نوح إلى دكان الحانوتى. ولم يكن الموقف بداخله قد تحسن.

ولم يعد المستر سوربرى بعد، ومكث أوليفر يركل باب المخزن، فوضع المستر بمبل فاه على ثقب المفتاح فى قفل الباب وقال بصوت عميق: "يا أوليفر".

فقال أوليفر من الداخل: "تعال أخرجنى من هنا!"

فسأله المستر بمبل: "أتعرف هذا الصوت يا أوليفر؟"

– نعم!

– ألست خائفا منه يا سيدى؟ ألا ترتعد فرقا وأنا أكلمك يا سيدى؟

فأجاب أوليفر فى شجاعة: "كلا!"

ودهش المستر بمبل إذ تلقى هذا الجواب الذى يختلف كل الاختلاف عما كان ينتظره، وعما اعتاد أن يتلقاه منه. فتراجع عن ثقب المفتاح ورفع قامته إلى أقصى مداها ونظر إلى رفاقه الثلاثة فى دهشة بالغة. وقالت المسز سوربرى: "لابد أنه قد جن يا مستر بمبل! إن أى ولد بكامل عقله لا يمكن أن يكلمك هكذا!"

فقال المستر بمبل بعد أن فكر بضع لحظات: "إنه ليس الجنون يا سيدتى. إنه اللحم!"

فسألته المسز سوربرى: "ماذا؟"

وأجاب بمبل قائلا: "اللحم يا سيدتى. . اللحم!. . لقد أفرطت فى تغذيته يا سيدتى. لقد نفخت فيه روحا وجرأة لا تلائم حاله!. وماذا يفعل الفقراء اللاجئون بمثل هذه الروح أو الجرأة؟. يكفى كل الكفاية أن نبقى لهم أجسادهم حية، ولو أنك غذيت هذا الولد بالحساء فقط، كما كنا نغذيه فى الملجأ، لما حدث قط ما حدث!"

وكانت المسز سوربرى لا تعطى أوليفر إلا فضلات الطعام القذرة التى يعافها كل شخص غيره ولكنها قالت: "رباه! هذه هى عاقبة السخاء!"

وفى تلك اللحظة عاد المستر سوربرى. فذكر له ما ارتكبه أوليفر من جرم مع كثير من المبالغة، وسرعان ما فتح باب المخزن وسحب صبيه من خناقه. وكانت ثياب أوليفر قد تمزقت من الضرب الذى ناله،

ووجهه قد أصابته خدوش، وكان شعره مسدلا بغير انتظام فوق جبينه. ولكن حمرة الغضب لم تكن قد غاضت عن وجهه، ولما جذبه من سجنه نظر إلى نوح فى غير خوف!

وهزه المستر سوربرى ثم ضربه على وجهه وهو يقول له: "أنت ولد طيب. . أليس كذك ؟"

فأجاب أوليفر قائلا: "لقد سب أمى !"

وهنا قالت المسز سوربرى: "وماذا لو سبها، يا أيها الشقى الصغير الناكر للجميل؟

إنها أهل لما قاله عنها وما هو أسوأ منه!"

– كلا!

– بل هى كذلك!

فقال أوليفر : "هذا كذب!"

وعندئذ انهمر الدمع من عينى المسز سوربرى. . وكان الحانوتى يود لو يشفق على أوليفر بالقدر القليل الذى يسمح به سلطانه. ولكنه لما بكت زوجته لم يسعه إلى أن يضربه ضربا شديدا. وهو يعلم أنه لو تردد فى ذلك لحظة لاتهمته زوجته بأنه بهيم، وبأنه زوج غير طبيعى، ومخلوق مهين وشبه رجل، ووجهت إليه شتائم أخرى!. . وبلغ من قسوته على أوليفر أنه لم تكن هناك ضرورة لضرب المستر بمبل إياه بالعصا، وهو ما حدث عقب ذلك. ثم حبس الغلام بقية ذلك اليوم. وفى الليل أمرته المسز سوربرى بأن يأوى إلى فراشه الحقير!

وقد صبر أوليفر حتى صار وحده فى الدكان المظلم، وعندئذ أطلق لشعوره العنان. وكان قد تلقى إهانتهم بازدراء، وتحمل ضرباتهم من غير

أن يصرخ صرخة واحدة. ولكنه وقد صار حيث لا يراه أو يسمعه أحد، ركع على ركبتيه فوق الأرض، وأخفى وجهه براحتيه، وأخذ يذرف من الدمع ما نسأل الله أن يقى الكثير من أمثاله كل سبب له!

ومكث برهة طويلة بلا حراك فى ذلك الوضع. ثم نهض على قدميه، وربط منديلا على القليل الذى يملكه من الثياب، وجلس ينتظر بزوغ الفجر!

ولما نفذ أول شعاع من الضوء من خلال باب الدكان، قام أوليفر وفتح الباب ونظر حواليه نظرة خوف، ووقف لحظة مترددا، ثم أغلق الباب وراءه وصار فى الشارع.

ثم نظر يمينا ويسارا وهو لا يدرى إلى أين يهرب. وتذكر أنه كان يرى العربات تمضى صعدا إلى التل حين تغادر البلدة، فسار فى الطريق نفسها وكانت تمر على المعهد الذى قضى فيه السنوات الأولى من حياته فى عهدة المسز مان.

ووصل إلى ذلك البيت، وكان السكون يشمله فى تلك الساعة المبكرة، فوقف ونظر إلى الحديقة، وكان هناك طفل، فرفع وجهه الشاحب وتبين أوليفر فى ملامحه أحد رفاقه السابقين. وقد فرح أوليفر إذ رآه قبل ذهابه. وكان هذا الغلام صديقه ورفيقه فى اللعب، وإن يكن أصغر منه سنا، وكثيرا ما تحملا معا عذاب الضرب والجوع والحبس!

ولما جرى الغلام نحو الباب الخارجى ليحيى أوليفر قال له هذا: "صه يا ديك. هل استيقظ أحد؟"

فأجاب الغلام: "لم يستيقظ أحد سواى!"

فقال له أوليفر: "لا تذكر أحد أنك رأيتنى يا ديك. إننى هارب. فإنهم يضربوننى ويسيئون معاملتى يا ديك. وأنا ذاهب لأبحث عن مستقبلى بعيدا عن هنا. ولست أدرى أين. ولكن مالى أرى وجهك شاحبا؟"

– لقد سمعت الطبيب يذكر لهم أنى سأموت! إننى سعيد لرؤيتك ولكن امض فى سبيلك ولا تقف هنا. لا تقف!

– بل أقف لأودعك! وسوف أراك مرة أخرى يا ديك. وسوف تكون سعيدا وبتمام صحتك!

فأجاب الطفل: "آكل ذلك! ولكن بعد أن أموت لا قبل ذلك. . إنى أعرف أن الطبيب لابد أن يكون على صواب يا أوليفر، لأنى أحلم كثيرا بالجنة وأرى فى منامى وجوها شفيقة لا أرى مثلها أبدا فى اليقظة!"

ثم صعد الطفل الباب الواطئ، وأحاط عنق أوليفر بذراعيه وقال له: "قبلنى!. . وداعا ! باركك الله!"

وكانت تلك القبلة من ثغر طفل، ولكنها كانت أول قبلة تلقاها أوليفر فى حياته. ولم ينسها قط بعد ذلك، وسط متاعبه وآلامه وتقلبات حياته!

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع

أولبفر يجد لنفسه مثوى

obeikandl.com

- ١ -

خشى أوليفر أن يتبعه ويدركه أحد، فصار يعدو حينا ويختبئ حينا آخر، حتى حان وقت الظهر، وعندئذ جلس يستريح إلى جوار أحد معالم الطريق، وأخذ لأول مرة يفكر أين يذهب وأين يستقر؟!

وكان الحجر الذى جلس بجانبه قد كتب عليه أن المسافة من عنده إلى لندن سبعون ميلا، وأثار هذا الاسم فى ذهن الغلام سلسلة من الأفكار. لندن!. لا أحد، حتى ولا المستر بمبل نفسه، يستطيع أن يعثر عليه هناك!. لقد طالما سمع الشيوخ فى الملجأ يقولون: إن أى فتى ذا عمة لن يشعر بالعوز فى لندن!. إنها إذن هى المكان الملائم لغلام شريد مآله الموت فى الطريق إن لم يلق من يعاونه!

وفكر فى وسيلة الوصول إليها. وكان معه كسرة خبز وقميص رخيص وزوجا جوارب فى الربطة التى يحملها. وكان معه أيضا بنس واحد فى جيبه. وقال يحدث نفسه: "إن قميصا نظيفا هو من وسائل الرفاهية. كذلك زوجان من الجوارب. وأيضا بنس واحد. ولكنها قليلة الجدوى فى المشى سبعين ميلا فى فصل الشتاء!" وكان يسيرا عليه كغيره من غالبية الناس، أن يتعرف الصعاب، ولكنه عجز عن أن يجد سبيلا للتغلب عليها. وبعد أن فكر طويلا بلا جدوى، وضع حمله على كتفه واستأنف المسير!

قطع أوليفر عشرين ميلا فى ذلك اليوم. ولم يذق طول الوقت شيئا سوى تلك الكسرة من الخبز اليابس وبضع جرعات من الماء استجداها على أبواب الأكواخ بالطريق. ولما حل الليل لجأ إلى حقل وزحف تحت بيدر للدريس معتزما أن يرقد هناك حتى الصباح. وقد داخله الخوف فى البداية وشعر بالبرد والجوع وثقلت عليه الوحدة بشكل لم يسبق له من قبل. بيد

أنـه لشـدة تعبـه غلبـه النـوم وشـيكا ونسـى همومـه!

ولـما اسـتيقظ فـى صبـاح اليـوم التـالى شـعر بالـبرد والجمـود، واشـتد بـه الجـوع حتـى اضطـر أن ينفـق البنـس الوحيـد الـذى معـه فـى شـراء رغيـف صغير مـن أول قريـة مـر بهـا! ولـما أقبـل عليـه المسـاء لم يكـن قـد قطـع فى يومه سـوى اثنـى عشـر ميـلا، وقـد تقرحـت قدمـاه، وضعفـت سـاقاه حتـى صارتـا ترتعشـان تحتـه. وقضـى ليلـة أخـرى فـى العـراء والرطوبـة فصـارت حالـه أسـوأ مـن قبـل. حتـى إذا اسـتأنف رحلتـه فـى الصبـاح التـالى كاد يعجـز عـن أن يجـر قدميـه!

وعانـى أوليفـر هـذه المشـاق سـتة أيـام متوالية. ولـولا أن أشـفق عليه قروى طيـب وعجـوز رحيمـة، لسـقط ميتـا بالطريـق. ولكـن ذلـك القـروى أعطـاه وجبـة غـذاء مـن الخبـز والجـبن. أمـا السـيدة العجـوز فقـد كان لهـا حفيـد غرقـت بـه سـفينة فهـو يهيـم علـى وجهـه حافـى القدميـن فـى مـكان مـا بأقصـى العـالم، ولـذا أشـفقت علـى أوليفـر ومنحتـه طعامـا، ومعـه كلمـات رحمـة ودمـوع حنـان، وقـد اسـتقرت هـذه فـى أعمـاق نفسـه وبلغـت منهـا مكانـا لم تبلغـه كل آلامـه!

وفـى باكـورة صبـاح اليـوم السـابع مـن مغادرتـه موطنـه، مشـى متثاقلا إلى داخـل بلـدة بارنـت التـى تبعـد بضعـة أميـال عـن لنـدن. وكانـت الشـوارع خالية مـن السـابلة ولـما يسـتيقظ أحـد لمباشـرة عمـل اليـوم. غـير أن ضـوء النهـار أبـدى للغـلام وحدتـه، إذ جلـس علـى عتبـه بـاب وقـد دميـت قدمـاه وغطاهـا التـراب!

بـدأت الأبـواب تنفتـح تدريجيـا والنـاس يروحـون ويغـدون، ووقـف قليـل منهـم يتفرسـون فـى أوليفـر لحظـة، ولكـن لم يمـد أحـد منهـم يـد المعونـة إليـه ولم يهتـم أحـد بـأن يسـأله كيـف جـاء إلى ذلـك المـكان. ولم يجـرؤ علـى الاسـتجداء ولـذا قبـع فـى مكانـه!

ومكـث فـوق تلـك العتبـة فـترة مـن الزمـن. وكانـت عربـات البريـد والسـفر تمـر أمامـه فيعجـب كيـف تسـتطيع أن تقطـع فـى بضـع سـاعات مـا قطعـه هـو فـى أسـبوع اسـتنفذ فيـه مـن الجـرأة والجلـد مـا يعلـو علـى سـنه. ثـم

لفت نظره غلام كان قد مر أمامه بغير اكتراث منذ بضع دقائق، ثم عاد وأخذ يتفرس فيه من الجانب الآخر من الطريق. ولم يعره أوليفر التفاتا فى البداية ولكن الغلام بقى فى مكانه وقتا طويلا وهو ينظر إليه، فرفع أوليفر رأسه ورد على نظرته بمثلها. وعندئذ عبر الغلام الطريق وجاء إلى أوليفر وقال له: "هالو ماذا يكربك؟"

وكان فى مثل سن أوليفر تقريبا، ولكن شكله أعجب شكل رآه أوليفر لغلام من قبل. لقد كان أفطس الأنف سوقى الوجه، أقذر ما يمكن أن يتمنى إنسان رؤيته... ولكنه مع ذلك كان له سمت الرجال ومسلكهم. وكان قصير القامة، مقوس الساقين إلى حد ما، ذا عينين صغيرتين حادتى البصر، قبيحتى المنظر، وكانت قبعته موضوعه على أم رأسه دون تثبيتها حتى لتوشك أن تقع كل لحظة! ولعلها كانت تقع مرارا وتكرارا لولا أن لابسها اعتاد أن يحرك رأسه بين حين وآخر حركة تعيد القبعة إلى مكانها من رأسه !. وكان يرتدى سترة رجل تكاد تصل إلى كعبيه، وقد ثنى كميها فوق ذراعيه ليتسنى له إخراج يديه منهما!

وقال هذا السيد الصغير العجيب لأوليفر: "ما همك؟"

فأجاب أوليفر وقد اغرورقت علياه بالدموع: "أشعر بجوع شديد وتعب. ..لقد مشيت مسافة طويلة. .. لقد مكثت أمشى سبعة أيام متوالية !"

فصاح الغلام متعجبا : "مشيت سبعة أيام؟!. . إنك تحتاج إلى الطعام وستجده. إنى أنا نفسى لا أملك مالا كثيرا ولكنى سأدفع ثمن طعامك. هيا معى!"

وساعد أوليفر على النهوض ثم أخذه إلى دكان بدال واشترى له قليلا من لحم الخنزير المقدد ورغيفا من البز. ثم صحبه إلى مشرب عام وطلب وعاء جعة. ولبى أوليفر دعوة صديقه الجديد فأكل وشرب ملء بطنه. وكان الغلام الغريب يتفرس فيه حتى انتهى من تناول طعامه. وعندئذ سأله: "أذاهب أنت إلى لندن؟"

– أجل!

– وهل لك مأوى فيها؟

– كلا!

– هل معك نقود؟

– كلا!

فصفر الغلام العجيب ووضع ذراعيه فى جيبه بقدر ما سمح به كما السترة الكبيرة. ثم سأله أوليفر: "أتسكن لندن؟"

– أجل حين أكون فى بيتى. أحسبك تحتاج إلى مكان تبيت فيه الليلة. أليس كذلك؟"

– أجل. فى الحقيقة. .. أننى لم أنم تحت سقف منذ غادرت الريف!

فقال له الغلام: "لا تقلق من هذه الناحية. . علىّ أن أكون الليلة فى لندن، وأنا أعرف سيدا شيخا يعيش هناك، وهو يمنحك المسكن بغير مقابل إذا قدمك إليه سيد يعرفه. وهو يعرفنى حق المعرفة!"

وقبل أوليفر منه هذه الدعوة شاكرا! ثم تلا ذلك حديث ودى بينهما، عرف أوليفر فى خلاله أن ذلك الغلام يدعى جاك دوكنز ولكن أصحابه يسمونه "المراوغ الداهية"، وأنه قريب إلى قلب ذلك السيد الشيخ الذى ذكره له والذى سيجد لأوليفر عملا دون شك! ولما كان المراوغ قد أبى أن يدخل لندن قبل المساء، فقد كانت الساعة الحادية عشرة تقريبا حين وصلا إلى تلك المدينة. وذهبا مسرعين إلى حى من أحقر الأحياء، ولم ير أوليفر فى حياته أقذر ولا أتعس من ذلك المكان. وكان الشارع ضيقا موحلا، والجو مليئا بروائح كريهة. وكان السكارى من الرجال والنساء يتشاجرون فى أركان منه، وهناك أشخاص ضخام الأجسام يبدو

الشر واضحا فى هيئاتهم، وهم يخرجون من بيوت شتى، وتدل الدلائل على أن وجهتهم لا تخلو من الشر والأذى!

وبدا أوليفر يسأل نفسه: "أليس من الخير لى أن أهرب؟ .". وإذا بدوكنز قد أمسكه من ذراعه ودفع باب بيت هناك فانفتح، ثم جذب أوليفر إلى الداخل وأغلق الباب وراءه. وصاح صوت من آخر الردهة يقول : "من هناك؟"

وكان الجواب: "المراوغ".

فبان ضوء شمعة ضعيف على الحائط فى طرف الردهة، وأطل وجه رجل وقال: "إنى أرى اثنين. من هو الآخر؟"

فأجاب جاك دوكنز وهو يسحب أوليفر إلى الأمام: "صديق جديد! هل فيجن فوق؟"

– نعم. إنه ينظر إلى المناديل. هيا اصعدا!

ثم حملت الشمعة إلى الخلف واختفى وجه الرجل!

وتحسس أوليفر طريقه بإحدى يديه، بينما قبض رفيقه على يده الأخرى قبضة ثابتة، وصعد درجات السلم المظلمة المتكسرة بمشقة كبيرة. أما المراوغ فكان يصعدها بسرعة ويسر، فدل ذلك على اعتياده صعودها. ثم فتح باب غرفة خلفية وجذب أوليفر وراءه! وكانت جدران الحجرة وسقفها قد اسودت تماما من القدم والقذارة، وكانت هناك مائدة أمام الموقد، وضعت فوقها شمعة فى زجاجة، وعلى جوانبها فنجانان أو ثلاثة، ورغيف خبز وزبدة وطبق. وهناك قدر فوق النار بها منبار يطهى. ووقف إلى جانب القدر شيخ يهودى ممسكا شوكة طويلة بيده، وكان وجهه ينذر بالشر، وقد غطى نصفه بشعر أحمر، وعليه جلباب قذر من الصوف مفتوح عند العنق، وكان التفاته موزعا بين القدر وبين حبل علق به كثير من المناديل الحريرية. وعلى الأرض عدة سرر خشنة أعدت من أكياس

قديمة وقد وضع بعضها بجانب بعض. وجلس حول المائدة أربعة غلمان أو خمسة ليس فيهم من هو أكبر سنا من المراوغ، ولكنهم كانوا يدخنون فى قصاب طويلة ويحتسون الجعة، كما يفعل أواسط السن من الرجال. وازدحم هؤلاء حول رفيقهم وهو يهمس بضع كلمات لليهودى. ثم استداروا ونظروا إلى أوليفر. وكذلك فعل اليهودى أيضا. ثم قال له جاك دوكنز: "هذا صديقى يا فيجين. هذا أوليفر تويست!" فابتسم اليهودى وانحنى انحناءة خفيفة لأوليفر ثم أمسك بيده وقال له:

– أرجو أن تشرفنى بصداقتك!.

وعندئذ جاء السادة الصغار ذوو القصاب، البيب، وأحاطوا بأوليفر وصافحوه بكلتا يديه بشدة خصوصا يده التى بها الربطة الصغيرة. وكان سيد صغير منهم تواقا لأن يعلق له قبعته فى المشجب، فى حين أبدى له آخر جانب المعاونة حتى إنه وضع يديه فى جيوبه ليكفيه مؤونة تفريغها مما بها نظرا لتعبه!

وقال له اليهودى: "إننا سعداء برؤيتك يا أوليفر. جد سعداء!. . أخرج المنبار يا مراوغ واجذب كرسيا قرب النار لأوليفر. آه: إنك تنظر إلى مناديل الجيب يا عزيزى!. عندنا كثير منها. أليس كذلك؟ لقد أعددناها منذ لحظة للغسيل. هذا كل ما فى الأمر يا أوليفر. كل ما فى الأمر. . ها. ها. ها!

وأثارت الجملة الأخيرة من كلامه صيحة ضحك عالية من جميع تلاميذ ذلك الشيخ المرح. وجلسوا يتناولون طعام العشاء وسط ذلك الضحك!

وقد أكل أوليفر نصيبه. ثم أعطى فراشا على الأرض وما لبث حتى راح فى سبات عميق!

obeikandl.com

الفصل الخامس

مهنة المراوغ

oberkanal.com

- ١ -

كان الوقت ضحى حين استيقظ أوليفر من سبات عميق طويل، ولم يكن بالغرفة أحد سوى اليهودى العجوز يجهز لنفسه قهوة فى وعاء لطعام الفطور، ولما أتم إعداد القهوة استدار ونظر إلى أوليفر وناداه باسمه، وكان هذا قد صحا من نومه ولكنه لم يستيقظ تماما ولذا لم يجب. فحسب اليهودى أنه مازال نائما ومشى برفق إلى الباب فأوصده ثم سحب علبة من جحر خفى بالأرض، ووضعها بعناية فوق المائدة، ولمعت عيناه إذ رفع غطاءها ونظر إلى ما تحتويه. ثم جذب كرسيا قديما إلى المائدة وجلس عليه وأخرج منها ساعة ذهبية فاخرة، وابتسم ابتسامة كريهة وهو يقول: "يالهم من أشخاص لطاف! مخلصين إلى النهاية! إنهم لم يشوا قط بفيجن العجوز. على أن ذلك ما كان لينجيهم من حبل المشنقة! لا. لا. لا. لقد كانوا حقا شجعان!"

ثم أعاد الساعة إلى مأمنها، وأخرج ما لا يقل عن ست ساعات أخرى من العلبة نفسها وصار ينظر إلى كل واحدة منها بمثل ذلك السرور. وكانت فى العلبة أيضا خواتم وأساور وغيرها من الحلى!

ثم قال يحدث نفسه: "حقا إن عقوبة الإعدام شئ بديع! إن الموتى لا يحزنون أبدا، إن الموتى لا يقصون ما حدث! آه. إن الإعدام شئ نافع للمهنة.. خمسة شنقوا صفا ولم يترك أحد منهم كى لايشاركنى فى الغنيمة أو لكى يشى بى!"

ولما قال ذلك. وقعت عيناه على وجه أوليفر، وكان الغلام ينظر إليه فى فضول فأدرك اليهودى أنه كان يراقبه، وعندئذ أغلق غطاء العلبة بعنف وأمسك بيده سكينا كانت على المائدة ووقف على قدميه ولكنه كان يرتعش فى تلك اللحظة حتى أن أوليفر رأى السكين تهتز فى يده. وصاح

بالغلام قائلا: "لماذا كنت تراقبنى؟ لماذا استيقظت؟ ماذا رأيت؟ تكلم يا ولد! وأسرع إذا أردت أن أبقى على حياتك!"

فأجاب أوليفر قائلا: "لم أقدر أن أواصل النوم يا سيدى. . وأنا آسف إذا كنت قد أزعجتك يا سيدى!"

فتطلع فيجن إليه برهة فى وحشية ظاهرة، ثم غير بغتة من مسلكه نحوه وقال له: "أنما أردت أن أخيفك يا عزيزى. . أنت ولد شجاع. . ها. ها. ها. أنت ولد شجاع يا أوليفر!"

ومسح يديه إحداهما بالأخرى وهو يضحك، ولكنه مع ذلك نظر إلى العلبة فى قلق ثم قال له: "هل رأيت شيئا من تلك الأشياء الجميلة يا عزيزى؟"

فأجاب أوليفر: "أجل يا سيدى!"

فاصفر وجه اليهودى وقال له: "آه. . إنها. . إنها لى يا أوليفر. . إنها متاعى القليل إنها كل ذخرى فى الكبر. . إن الناس يقولون إنى بخيل يا عزيزى. . بخيل فقط. هذا كل ما فى الأمر!"

وخطر لأوليفر أن ذلك الشيخ لابد أن يكون شحيحا حتى إنه يرضى لنفسه أن يعيش فى ذلك المكان القذر وهو الذى يملك كل تلك الساعات العديدة. ولكنه لم يقل شيئا! وفى تلك اللحظة جاء المراوغ وكان بصحبته غلام مرح كان أوليفر قد رآه يدخن فى الليلة الماضية، وقد قدمه إليه الآن باسم تشارلى بيتس، فقام أوليفر وغسل وجهه وجلس الأربعة يتناولون طعام الفطور!

وقال اليهودى وهو ينظر إلى أوليفر بخبث، موجها الكلام إلى المراوغ: "لعلكما كنتما تعملان هذا الصباح يا عزيزى؟"

فأجاب دوكنز: "كنا نعمل باجتهاد".

وأضاف تشارلى بيتس: "بمزيد من الاجتهاد".

فقال اليهودى حسنا يا ولدى. حسنا! وماذا جئت به يا مراوغ؟"

فأجاب هذا السيد الصغير: "زوج من المحافظ".

فسأله اليهودى بشغف: "مملوءتان؟"

– تقريبا!

وأبرز محفظتين: إحداهما خضراء والأخرى حمراء. فنظر اليهودى إلى محتوياتهما باهتمام وقال: "ليستا ثقيلتين كما ينبغى ولكنهما دقيقتا الصنع. إن المراوغ صانع بارع. أليس كذلك يا أوليفر؟"

فأجاب أوليفر: "جدا يا سيدى".

وعندئذ قهقه تشارلى بيتس ضاحكا، فتعجب أوليفر من ذلك لأنه لفرط سذاجته لم يجد سببا لضحكه!

ثم قال فيجن لتشارلى بيتس: "ماذا أحضرت أنت يا عزيزى؟"

فأجاب بيتس قائلا: "مناديل!" وأبرز أربعة منها. ففحصهما اليهودى عن كثب وقال: "أنها جيدة جدا!. . ولكنك لم تعلمها كما يجب يا تشارلى. وعلى ذلك ستزال العلامات منها بابرة، وسنعلم أوليفر كيف يفعل ذلك. أليس كذلك يا أوليفر؟ ها. ها. ها. ها!"

– إذا شئت يا سيدى!

– إنك تود لو تصنع مناديل الجيب بمثل السهولة التى يصنعها بها تشارلى بيتس. أليس كذلك يا عزيزى؟

– أود ذلك حقيقة يا سيدى. . إذا علمتنى يا سيدى!

وعندئذ قهقه بيتس ضاحكا من جديد!

ولما انتهى تناول طعام الفطور أخذ الشيخ المرح والغلامان يلعبون معا لعبة عجيبة غير شائعة. . فقد وضع الشيخ علبة فضية فى أحد جيبى سراويله، ومحفظة فى الجيب الآخر، وساعة فى جيب صديريته. وشبك دبوسا من الماس الزائف فى قميصه، وزرر سترته حتى لصقت بجسمه. ثم وضع فى جيبها علبة النظارة ومنديلا، وصار يروح ويجئ فى الغرفة ممسكا بعصا، مقلدا السادة الشيوخ حين يمشون فى الشوارع فى أية ساعة من ساعات النهار. وصار يقف حينا عند الموقد، وحينا آخر عند الباب، وكأنه يتفرج على واجهات الحوانيت. وعندئذ كان ينظر حوله باستمرار كأنه يخشى النشالين، ويتحسس جيوبه كلها ليستوثق من أنه لم يسرق منه شئ. وكان يفعل ذلك كله بشكل طبيعى يبعث على الضحك، فضحك أوليفر حتى سقط الدمع من عينيه. وفى خلال ذلك كله كان الغلامان يتبعانه عن كثب، وكلما التفت جانبا اختبآ وراءه حتى لا يراهما، فصار من المحال أن يتتبع حركاتهما. وأخيرا وطئ المراوغ أصابع قدميه، فى حين دفعه تشارلى بيتس من الخلف. وفى هذه اللحظة القصيرة أخذا منه فى مثل لمح البصر: العلبة الفضية والمحفظة وساعة الجيب ودبوس القميص ومنديل الجيب، بل كذلك علبة النظارة. وكلما أحس الشيخ يدا فى أحد جيوبه صاح دالا على مكانها، ثم تبدأ اللعبة من جديد!

ولما كرروا هذه اللعبة عدة مرات، قال تشارلى بيتس: "إن الوقت قد حان للخروج". فأعطى اليهودى العجوز غلاميه نقودا لينفقاها، وعلى ذلك غادرا الدار!

ثم قال فيجن لأوليفر: "لقد رأيت يا عزيزى! أليست هذه حياة سارة؟ لقد خرجا للرياضة بقية اليوم!"

فسأله أوليفر: "هل انتهينا من العمل يا سيدى؟"

فأجابه اليهودى: "أجل! إلا إذا صادفهما عمل على غير انتظار فى أثناء رياضتهما. وثق بأنهما فى هذه الحالة لن يهملا العمل. اتخذ منهما قدوة لك، وافعل كل ما يأمرانك به، واستشرهما فى جميع أمورك، خصوصا المراوغ. إنه سوف يصبح رجلا عظيما، وسوف يجعل منك رجلا عظيما، هل منديلى يارز من جيبى؟

– أجل يا سيدى!

– حاول أن تأخذه من غير أن أشعر كما رأيتهما يفعلان حين كنا نلعب!

فأمسك أوليفر بأدنى الجيب بإحدى يديه كما رأى المراوغ يفعل، وجذب المنديل، بخفة باليد الأخرى. وصاح اليهودى قائلا: "هل راح؟"

فأراه أوليفر المنديل فى يده قائلا: "ها هو ذا يا سيدى!"

فربت فيجن رأسه وقال له: "أنت ولد بارع يا أوليفر. إنى لم أر قط صبيا أذكى منك. . هاك شلنا لك. . إذا استمررت بهذا الشكل فسوف تصبح أعظم رجال العصر! والآن تعال هنا لأريك كيف تزيل العلامات من المناديل!

وقد عجب أوليفر فى نفسه كيف أن نشل منديل السيد الشيخ فى اللعب سيجعل منه رجلا عظيما! ولكنه لم يكن قد بلغ العاشرة من عمره، فلاريب أن ذلك اليهودى الذى هو أكبر منه سنا بكثير يعرف ما لا يعرفه هو. وتبعه فى هدوء إلى المائدة، وسرعان ما استغرق فى هذه الدراسة الجديدة!

- ٢ -

مكث أوليفر عدة أيام فى غرفة اليهودى مشتغلا بإزالة العلامات من المناديل، وكان كثير منها يؤتى به إلى هناك. وأحيانا كان يشترك فى اللعبة التى وصفناها والتى كان اليهودى والغلامان يلعبونها بانتظام صباح كل يوم. وأخيرا وجد نفسه محتاجا إلى الهواء الطلق، وطلب إلى الشيخ مرارا أن يسمح له بالخروج إلى العمل!

وفى صباح أحد الأيام لبى الرجل طلبه. ولم تكن هناك مناديل يشتغل بها يومين أو ثلاثة، ولعل هذا هو السر فى قبول الشيخ رجاءه. وقد رخص له فى الخروج فى عهدة المراوغ وتشارلى بيتس!

وخرج الغلمان الثلاثة، وكان المراوغ قد قلب كمى سترته ووضع قبعته على قمة رأسه كالعادة، وسار بيتس ويداه فى جيبه، ومشى أوليفر بينهما يسائل نفسه أين يذهبان؟ وأى نوع من أنواع الصناعة سيتعلمه أولا؟

وكان يمشيان فى تراخ وبطء حتى حسب أوليفر أنهما سيخدعان الشيخ ولا يذهبان إلى عملهما أصلا. ثم وقف المراوغ فجأة ووضع إصبعه على شفتيه وجذب رفيقه إلى الوراء باهتمام شديد. فسأله أوليفر: "ماذا حدث؟"

فأجابه المراوغ همسا: "صه! أترى ذلك الشيخ الذى أمام دكان الكتب؟"

فقال أوليفر: "ذلك الشيخ الذى بالجانب الآخر من الطريق؟ أجل إنى أراه:".

فقال المراوغ: "إنه يصلح !"

وقال بيتس: "إنها فرصة من الدرجة الأولى".

وردد أوليفر بصره بينهما مندهشا. ثم سار الغلامان بهدوء عبر الشارع وزحفا خلف السيد الشيخ عن قرب. وخطا أوليفر بضع خطوات وراءهما، ثم لم يدر ما يفعل فوقف فى مكانه ينظر!

وكان ذلك السيد الشيخ رجلا بادى الوقار، ذا شعر أبيض ومنظار من الذهب. وكان قد أخذ كتابا من رف أمام الدكان ووقف مستغرقا فى قراءته وكأنه جالس فى كرسى مريح ببيته!. وقد انهمك فى القراءة إذ شاقه الكتاب حتى لم يعد يرى المكتبة ولا الشارع ولا الغلامين ولا أى شئ سوى الكتاب نفسه!

وما كان أشد فزع أوليفر واشمئزازه، إذ رأى المراوغ يضع يده فى جيب ذلك السيد ويخرج منه منديلا ثم يناوله إلى تشارلى بيتس، وبعدئذ يجرى الاثنان حول ركن الشارع بأقصى ما يستطيعان من سرعة!

لقد اتضح له فجأة سر المناديل وساعات الجيب والحلى، وبانت له خافية أمر ذلك الشيخ اليهودى! ووقف فى مكانه لحظة ساكنا، ثم تولاه الخوف والاضطراب فأخذ يعدو فى الشارع بأسرع ما تلمس قدماه الأرض وهو لا يدرى ماذا يفعل !

حدث ذلك كله فى دقيقة واحدة. وفى اللحظة التى بدأ أوليفر يجرى، وضع ذلك السيد يده فى جيبه، فلما لم يجد منديله نظر حواليه فرأى أوليفر يجرى هربا فأدرك بالبداهة أنه هو الذى نشل منديله. وعندئذ صاح بأعلى صوته يقول: "أمسكوا اللص!"

وشرع يجرى خلفه والكتاب لا يزال فى يده!

الفصل السادس

أوليفر يجد أصدقاء

obeikandl.com

- ١ -

« قف ! لا تأخذه ! بالله قف لحظة ! »

"أمسكوا اللص! أمسكوا اللص!" إن فى هذه الصيحة لسحرا!: فالتاجر يترك حانوته. والسائق يغادر عربته. والقصاب يرمى ذبيحته. والخباز يهجر سلته. واللبان يدع جانبا وعاءه. والتلميذ يدع كتبه. والطفل يهجر لعبته. والجميع يجرون صائحين متدافعين يسقط بعضهم بعضا عند أركان الشوارع، والكلاب تستيقظ من سباتها من جراء هذه الضجة!

ولم يكن ذلك السيد الوقور وحده الذى يصيح. فإن المراوغ وبيتس لم يكادا يسمعان تلك الصيحة حتى كفا عن الجرى وأخذا يصرخان: "أمسكوا اللص!" وانضما إلى الجمع الذى يطارد اللص كما ينبغى لمواطنين طيبين مثلهما!

"أمسكوا اللص. أمسكوا اللص!". لقد ردد الصيحة مئات الأصوات، وازداد الجمع عند كل ركن من أركان الطريق. إن فى قرارة قلب الإنسان غراما بالصيد والمطاردة! وهناك طفل واحد بائس قد تقطعت أنفاسه وبان الخوف والألم فى عينيه وتساقط العرق مدرارا على وجهه،

وهـو يبـذل قصـارى جهـده للفـرار مـن مطارديـه. وإذ يتبعونـه ويـزدادون منـه اقترابـا، يـرون قوتـه تتناقـض فيصيحـون فرحـا بذلـك.

وأخـيرا وقـف! وبضربـة بارعـة واحـدة سـقط علـى الأرض فأحـاط بـه الجمـع. وقـال واحـد منهـم: "انتحـوا جانبـا. . ولا تحبسـوا عنـه الهـواء!"

– أين السيد الذى نشله؟

– هاهو ذا قادم! افسحوا للسيد!

– أهذا هو الغلام الذى نشلك يا سيدى؟

– أجل هو!

وكان أوليفـر راقـدا علـى الأرض يعلـوه وحـل وتـراب، والـدم ينـزف مـن فيـه وجعـل ينظـر ذاهـلا إلى الوجـوه التـى حولـه، وإذا بذلـك السـيد قـد دفـع حتـى وصـل إلى دائـرة المحيطـين بالغـلام ذاهـلا إلى الوجـوه التـى حولـه، وإذا بذلـك السـيد قـد دفـع حتـى وصـل إلى دائـرة المحيطـين بالغـلام، وقـال: "أجـل هـذا هـو الغـلام! ياللمسـكين! لقـد آذى نفسـه!"

فتقـدم شـخص ضخـم الجسـم إلى الأمـام وقـال: "أنـا فعلـت بـه ذلـك يـا سـيدى! وقـد كادت يـدى تقطـع إذا ضربـت بهـا فاه. أنا الذى وقفته يا سـيدى!"

وكان ذلـك الشـخص يلمـس قبعتـه مبتسـما وقـد توقـع أن يعطـى شـيئا فى مقابـل الجهـد الـذى بذلـه. ولكـن السـيد الشـيخ نظـر إليـه نظـرة تتجلـى فيهـا الكراهيـة. وفـى هـذه اللحظـة جـاء شـرطى وشـق طريقـه وسـط الزحـام وأمسـك بأوليفـر مـن خناقـه. وقـال لـه بشـدة: "هيـا انهـض وتعـال معـى!"

فقـال لـه أوليفـر: "لسـت أنـا اللـص يـا سـيدى! لقـد كان هنـاك ولـدان. . وهمـا الآن هنـا فـى مـكان مـا!"

فقال له الشرطى ساخرا: "كلا. ليسا هنا!"

ولكن الشرطى كان صادقا فإن الناس حين أدركوا أوليفر، جرى المراوغ وبيتس فى أول شارع صادفهما. وعاد الشرطى يقول لأوليفر: "هيا قم!"

وعندئذ قال له السيد الشيخ بعطف: "لا تؤذه!"

فأجاب الشرطى وقد كاد يخلع سترة أوليفر من فوق ظهره: "كلا! لن أؤذيه. . ألا تقف على قدميك أنت أيها الشيطان الصغير؟"

ثم أخذ الشرطى يسحبه فى الشارع، وإذا برجل متقدم فى السن يرتدى بذلة قديمة، قد جاء يجرى ويصيح وهو يلهث من التعب : "قف! لا تأخذه! بالله قف لحظة!" فسأله الشرطى: "ما هذا؟ ومن أنت؟"

فأجاب الرجل: "لقد رأيت الحادث من بدايته. وأنا صاحب المكتبة. لقد شهدت ثلاثة غلمان، غلامين وهذا الغلام. وكانوا واقفين على الجانب الآخر من الطريق حين كان المستر براونلو يقرأ فى الكتاب. . ولقد كان السارق ولدا غير هذا. لقد رأيته يسرق فى حين بدت الدهشة على هذا الولد!"

وعندئذ قال الشرطى: "إذا كان هذا الغلام بريئا فلا أقدر أن أقبض عليه!"

ورفع يده عن خناق أوليفر فسقط هذا على الأرض توا فاقد الوعى، وقد غاض الدم من وجهه فصار أشبه بوجوه الموتى! وانحنى المستر براونلو عليه وقال: "يا للغلام المسكين! يا للغلام المسكين! لينادِ أحد منكم عربة فورا!"

وجئ بعربة فوضع أوليفر على مقعد بها فى رفق، وجلس السيد الشيخ على المقعد الآخر وقال له صاحب المكتبة: "هل لى أن أصحبك؟"

فأجاب المستر براونلو مبادرا: "بالطبع. لقد نسيتك! ولا يزال معى ذلك الكتاب التاعس. اقفز. . يا للغلام المسكين! لا يصح أن نضيع وقتنا!"

وركب صاحب المكتبة العربة فمضت بهم مسرعة. ولما وصلوا إلى المكتبة نزل منها صاحبها. ثم مضت العربة حتى وقفت أمام بيت وجيه فى شارع هادئ تظلله الأشجار. وأعد سرير لأوليفر ومكث المستر براونلو حتى رآه يوضع عليه بعناية!

obeikandl.com

- ٢ -

نبهت الضجة التى بالسلم فيجن وكان جالسا أمام النار. وقد ارتسمت على فمه ابتسامة خبيثة حين التفت إلى مصدر الصوت. ثم أرهف أذنه نحو الباب. وأخذ يستمع. وما لبث حتى غاضت الابتسامة من فيه وقال: «وكيف ذلك؟! إنهما اثنان فقد فأين ثالثهما؟ ما أحسبهم قد لقوا متاعب!»

ثم اقترب وقع الخطى، وفتح الباب فى بطء، ودخل المراوغ وتشارلى بيتس. فقام فيجن من مكانه وسألهما غاضبا: «أين أوليفر؟ أين الغلام؟»

فنظر اللصان الصغيران إلى معلمهما بخوف، وتبادلا نظرة قلقة، ولكنهما لم يجيبا عن سؤاله. وعندئذ أمسك فيجن بخناق المراوغ وقال له بشدة: «ماذا جرى للغلام؟ تكلم وإلا خنقتك!»

فأجاب المراوغ: «لقد قبض عليه البوليس. هيا دعنى. هل سمعت؟»

وأتى بحركة خرج بها من السترة الواسعة فصار فيجن لا يمسك سواها فى يده، ثم التقط مدية من فوق المائدة وتأهب للدفاع بها عن نفسه. ولما رأى فيجن ذلك منه تراجع إلى الوراء وتناول وعاء جعة فقذف به رأس المراوغ ولكن هذا تفاداه، فكاد الوعاء يصيب رجلا دخل الغرفة فى تلك اللحظة!

وزمجر الأخير قائلا بصوت عميق: «من الذى رمانى بهذا؟ لحسن الحظ قد أصابتنى الجعة دون الوعاء وإلا لقتلت أحدا من الناس!. كان ينبغى لى أن أعلم أن أى أحد غير يهودى شيخ سارق، يبعثر الماء لا أى مشروب آخر! ماذا حدث يا فيجن؟»

وكان الرجل الذى غمغم بهذه الكلمات شخصا قوى البنية فى الخامسة والثلاثين من عمره. يرتدى سترة سوداء وسراويل قصيرة قذرة

وجوارب قطنية سمراء تحتوى قدمين ضخمتين. إنهما قدمان من ذلك النوع الذى لا يكمل منظره دوت أصفاد حولهما. . وكان له وجه عريض ثقيل قد نمت به لحية لم تحلق منذ ثلاثة أيام. وعلى إحدى عينيه دلائل ضربة حديثة أصابتها. . وتبعته إلى داخل الغرفة امرأة شابة كانت حسنة الوجه فى الأيام الخالية ولكن وجهها الآن يحمل دلائل عيشة الإثم.

وقال الرجل: «لماذا تقف هكذا فى الخارج! كأنما تخجل من سيدك!»؟

وعندئذ دلف إلى الغرفة كلب أبيض بوجهه خدوش وجروح عديدة!

ثم قال له صاحبه: «لماذا لم تدخل من قبل؟ إن الكبر بدأ يداخل نفسك حتى لتكره أن أكون صاحبك! أليس كذلك: ارقد هنا!»

وصحب هذا الأمر ركلة من قدمه قذفت بالحيوان إلى أقصى الغرفة. ولكن بدا أنه اعتاد ذلك. فقبع فى ركن هناك دون أى صوت!

ثم قال الرجل: «ماذا أنت بصدده يا فيجن؟ أتسئ معاملة الأولاد أنت أيها الشيخ؟ يا من تتلقى الأشياء المسروقة؟ إنى لأعجب كيف لا يقتلونك؟! لو كنت فى مكانهم لفعلت! لو كنت من صبيانك لقتلتك من زمان!»

فصاح به اليهودى وهو يرتعد: «صه ! صه يا مستر سيكس! لا تتكلم هذا بصوت مرتفع!»

فقال له الآخر: «دع عنك لقب مستر هذا الذى تنادينى به. إنك دائما تنوى لى أذى حين تلقبنى به!. أنت تعرف اسمى فهيا انطق به!»

فرد فيجن بانكشار: «حسنا. حسنا إذن يا بيل سيكس! يبدو عليك الكدر يابيل!»

وأجاب سيكس: «لعلى كذلك!. وأحسبك متكدرا أيضا مادمت تقذف بالأوعية حولك. ناولنى مشروبا. . ومشروبا آخر لنانسى. . إيه يا بنت؟»

فأومأت الشابة برأسها موافقة. ثم أردف سيكس قائلا له: «حاذر أن تضع به سما!»

وقد قال ذلك على أنه نكتة. ولكن لو أنه رأى نظرة الشر التى ارتسمت على وجه فيجن اذ استدار نحو الخزانة، لأدرك أن ذلك التحذير كان فى محله!

وبينما تجرع سيكس كأسين أو ثلاثا من الخمر، قص المراوغ كيف قبض البوليس على أوليفر. حتى إذا انتهى من ذلك قال فيجن: «أخشى أن يقول شيئا يسبب لنا متاعب!» فرد سيكس وهو يبتسم: «هذا أمر محتمل!. إنه سيخبر البوليس بأمرك يا فيجن!»

فرد اليهودى وهو يرقب صاحبه عن كثب: «وأخشى إذا قبض على أن يقبض على آخر سواى أيضا!. ويكون موقفك عندئذ شرا من موقفى يا عزيزى!»

ففزع الرجل، ثم ساد الصمت برهة، وبدا أن الجميع قد استغرقوا فى أفكارهم، حتى الكلب جعل يلعق شفتيه وكأنه يفكر فى الهجوم على قدمى أول سيد أو سيدة يصادفهما فى الطريق حين يخرج!

ثم قال سيكس بصوت ألين كثيرا من صوته حين جاء: «يجب أن يبحث أحد عما حدث له!»

فأومأ فيجن برأسه موافقا، ثم أردف سيكس قائلا: «يجب أن تستحوذ عليه بأى شكل!»

فأومأ الشيخ برأسه مرة أخرى ثم قال: «دع نانسى تذهب إلى المكتبة وتستعلم. وسيريها المراوغ أو تشارلى الطريق. ويمكنها أن تدعى أنها أخت أوليفر!»

فقال سيكس: «هذه فكرة صائبة! أسرعى يا نانسى!»

وعلى ذلك تأهبت نانسى للخروج وقد ربطت مئزرا نظيفا أبيض اللون فوق ثيابها، ثم قال لها فيجن: «انتظرى لحظة يا عزيزتى!»

وأعطاها سلة صغيرة وقال لها: «أمسكى هذه فى يدك. إنها أدعى إلى احترام الناس إياك يا عزيزتى!»

وقال سيكس: «أعطها مفتاح باب لتمسكه فى يدها الأخرى. . إن هذا يحسن المظهر».

فعلق فيجن مفتاحا كبيرا بسبابة يدها اليمنى قائلا: «أجل. أجل يا عزيزتى. صدقت. . هذا بديع جدا. . يا عزيزتى!»

وصاحت نانسى باكية: «آه يا أخى! يا أخى الصغير البرئ المسكين! ماذا جرى لك؟ إلى أين أخذوك؟ آه. . أشفقوا على وأخبرونى ماذا حدث للولد الصغير!»

وقالت ذلك بصوت يدل على حزن مبرح، فسر سامعوها من إجادتها تمثيل دورها. وعندئذ سكتت وابتسمت لهم، وخرجت بصحبة تشارلى بيتس!

وقال فيجن: «آه. . إنها فتاة ماهرة يا عزيزى!»

فقال المستر سيكس: «إنها تشرف بنات جنسها!»

وملأ كأسه وضرب المائدة بقبضته الضخمة وقال: «هذا نخبها. وأتمنى لو كن جميعا مثلها!»

- ٣ -

لما عادت نانسى سألها فيجن فى قلق: «هل عرفت شيئا عن أوليفر؟»

فقالت له: «لقد آواه السيد الذى خطف المراوغ منديله!. وصاحب المكتبة يعرف اسمه. . وهو يدعى براونلو، ولكنه لا يعرف أين يسكن!»

وقصت عليهم كيف عطف المستر براونلو على أوليفر. . وقد توصلت إلى معرفة ذلك من الكتبى. فقال اليهودى مهتاجا: «يجب أن نعثر عليه».

ثم التفت إلى تشارلى بيتس وقال له: «يا تشارلى. . دع كل شئ وراقب دكان الكتب فقد يعود السيد الشيخ إليه».

وقال للفتاة: «وأنت يا نانسى، يا عزيزتى، يجب أن استعيد الغلام. وأنا أعتمد عليك يا عزيزتى. . عليك وعلى سيكس والمراوغ. . انتظروا، انتظروا».

وفتح درجا بيد مرتعشة وقال: «ها كم نقودا يا أعزائى. . وسأغلق هذا البيت توا. . وستعلمون أين تجدونى. . لا تمكثوا هنا دقيقة. . ولا لحظة يا أعزائى!»

ودفعهم من الغرفة وهو يقول ذلك. ثم أوصد الباب خلفهم بعناية وأخرج العلبة، التى سبق أن رآها أوليفر من مخبئها. وشرع يضع ما بها من ساعات وحلى فى جيوبه على عجل!

وسمع قرع الباب، فصاح بصوت يدل على الخوف: «من هناك؟»

فأجاب المراوغ من خلال ثقب القفل: «أنا». فصاح به فيجن بضجر: «ماذا تريد؟»

– إن نانسى تريد أن تعرف ما إذا كانت تأخذ أوليفر إلى البيت الآخر!

فأجاب فيجن: «أجل! على أثر وضع يدها عليه! ابحثوا عنه. ابحثوا عنه. هذا كل ما هنالك. وسأعرف ما ينبغى علمه بعد ذلك. لا تخافوا أبدا!»

فهبط المراوغ السلم مسرعا وراء رفيقيه.

وقال اليهودى يحدث نفسه: إنه لم يقل شيئا بعد. وإلا لكان البوليس هنا.. لا يزال فى إمكاننا أن نسكت لسانه!»

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السابع

أولبفر لا يعود

obeikandl.com

- ١ -

لقى أوليفر تويست فى بيت المستر براونلو من العناية والحنان ما لا حد له. ولكنه مكث أياما عديدة لا يشعر بعطف أصدقائه الجدد، وكانت الشمس تشرق ثم تغيب أياما متوالية والغلام ممدد فى فراشه، وهو يزداد ضعفا من حرارة الحمى التى يعانيها. إن الدود لا ينال من أجساد الموتى قدر ما تناله هذه النار البطيئة من المرضى الأحياء!

وأخيرا صحا، ضعيف الجسم نحيل البدن شاحب الوجه، وكأنه استيقظ من حلم طويل مضطرب. وقعد فى السرير يضعف ونظر حوله قلقا وقال: «أية غرفة هنا؟ من أين جاءوا بى؟ ليس هذا هو المكان الذى نمت فيه!»

قال ذلك بصوت واهن، فسمع صوته توا. وقامت سيدة عجوز حنون حسنة الهندام من كرسى كبير كانت جالسة عليه إلى جانب سريره وهى تشتغل بالإبرة، وقالت له برقة:

– صه يا عزيزى. . يجب أن تبقى هادئا وإلا عاودك المرض.ارقد ثانيا يا عزيزى!

ووضعت رأسه برفق شديد على الوسادة، وأخذت ترتب شعره الذى كان قد تدلى على جبينه، وجعلت تنظر إليه فى عطف وحنو حتى لم يسعه إلا أن يضع يده النحيلة فى يدها وجذبها حول رقبته!

فقالت السيدة العجوز والدمع يترقرق من عينيها: «يا لك من غلام عزيز يعرف الجميل! إنه لمخلوق جميل! ماذا كانت أمه تشعر به لو أنها جلست إلى جواره ورأته الآن!»

فهمس أوليفر قائلا: «لعلها ترانى الآن!. . ولعلها جلست إلى جوارى. . إنى أكاد أشعر بذلك!»

– هذا من أثر الحمى يا عزيزى!

– أظن ذلك لأن الجنة بعيدة جدا، والقوم هناك أسعد حالا من أن يهبطوا إلى جوار سرير ولد مسكين. ولكن لو أنها عرفت أنى مريض، لأشفقت على حتى وهى هناك. بيد أنها لا يمكن أن تدرى شيئا عنى، ولو أنها رأت ما أصابنى من أذى لحزنت على. لكن وجهها كان يبدو لى دائما حلوا ينم عن السعادة كلما رأيتها فى منامى!

فلم تجب السيدة العجوز على ذلك، ولكنها مسحت الدمع الذى سقط على خديها. ثم أحضرت لأوليفر شرابا باردا. وبعدئذ ربتت خده وقالت له: «ينبغى أن ترقد فى هدوء وإلا مرضت من جديد!»

وعلى ذلك لزم أوليفر السكون وكان تواقا لأن يطيع هذه السيدة العجوز الرحمية فى كل شئ. وكذلك كان قد أجهده الكلام الذى نطق به. ولم يلبث حتى راح فى سبات رقيق، ثم أيقظه منه ضوء شمعة على مقربة من السرير. وكان هناك سيد له ساعة جيب ذهبية كبيرة تحدث صوتا عاليا، وقد وقف يحبس نبضه، وقد قال له هذا السيد: «إنك الآن أحسن كثيرا من قبل. أليس كذلك؟»

فأجاب أوليفر: «أجل. شكرا لك يا سيدى».

– أجل. إنى أعلم أنك أحسن من قبل. وأنت أيضا جائع. أليس كذلك؟»

فأجاب أوليفر: «كلا يا سيدى!»

فقال السيد» كلا !. إنى أعرف أنك لست جائعا. . إنه ليس جائعا يا مسز بدوين».

فحنت السيدة العجوز رأسها باحترام وكأنها تريد أن تقول إن الطبيب بارع جدا. . وبدا أن الدكتور يعتقد مثل هذا الاعتقاد عن نفسه. ثم سأل أوليفر:

– أنت تشعر بالرغبة فى النوم. أليس كذلك؟

– كلا يا سيدى!

فكرر الطبيب قوله: «كلا. . لا تحس ميلا إلى النوم. كذلك لست ظمآن. .. أليس كذلك؟»

فأجاب أوليفر: «أجل. إنى أشعر بالظمأ يا سيدى!»

فقال الدكتور: «تماما كما كنت أتوقع يا مسز بدوين. من الطبيعى جدا أن يشعر بالظمأ. . يمكنك أن تعطيه قليلا من الشاى مع قليل من الخبز المقمر دون أى زبدة. لا تدعيه فى دفء كثير. وكذلك لا تدعيه يشعر بالبرد!»

وأسرع الطبيب خارجا، وكان حذاؤه يقرقع وهو يهبط الدرج بشكل يدل على الأهمية والرخاء. . وبعد قليل من ذلك حيت السيدة العجوز أوليفر تحية الليل. . وبقى مستيقظا برهة من الزمن. وقد دله ظلام الغرفة وسكونها على أن الموت كان قريبا منه عدة أيام وليال. ثم أدار وجهه فوق الوسادة وأخذ يدعو الله!

كانت أيام النقاهة تلك أياما سعيدة فى حياة أوليفر. فقد كان كل شئ حوله هادئا، منظما. وكان كل إنسان شفيقا به رفيقا. وخيل إليه أنه يعيش فى الجنة بعد كل ماعاناه من ضجة ونصب، ولما استطاع أن يغادر فراشه أمرت السيدة مديرة بيت المستر براونلو – بأن يحمل إلى غرفتها الخاصة. وهناك صار يجلس أمام الموقد. ولما صار من القوة بحيث يقدر أن يرتدى ثيابه، كلف المستر براونلو من جاءه ببذلة جديدة، وقبعة جديدة وحذاء جديد!

وفى مساء يوم كان بغرفة المسز بدوين يحتسى طاس حساء. ورأى أوليفر أن هذا الحساء من القوة والدسم بحيث يكفى لإطعام مائة غلام بالملجأ لو أضيف إليه المقدار الكافى من الماء. . ثم بعث المستر براونلو يطلب أن يراه فى غرفة مكتبه وأن يتحدث معه قليلا!

فقالت المسز بديون: «باركنا الله ونجانا! اغسل يديك ودعنى أمشط شعرك لك يا بنى. لو أنا علمنا انه سيبعث فى طلبك لأعددنا لك ياقة نظيفة!»

ففعل أوليفر كما أمرته السيدة العجوز، وذهب إلى غرفة المكتب. وكانت حجرة صغيرة مملوءة بالكتب، ولها نافذة تطل على حديقة غناء. وكان المستر براونلو جالسا إلى منضدة يقرأ فى كتاب أمام النافذة. ولما رأى أوليفر ترك الكتاب جانبا وأشار إليه أن يقترب من المنضدة ويجلس. فأطاع أوليفر وجعل يسائل نفسه: «أين يوجد أناس ليقرأوا كل تلك الكتب التى تؤلف ليصبح العالم أعقل مما هو؟»

ولحظ المستر براونلو فضوله وهو ينظر إلى الكتب التى على الرفوف فقال له:

– ها هنا كتب كثيرة. أليس كذلك يا بنى؟

فأجاب أوليفر قائلا: «عدد كبير من الكتب يا سيدى. . أنى لم أر قط كتبا بهذه الكثرة!»

فقال السيد الشيخ برفق: «سوف تقرأها إذا كان مسلكك حسنا! ألا تتمنى أن تصبح رجلا عظيما وتؤلف كتبا؟»

– أحسبنى أفضل أن أقرأها يا سيدى!

– ماذا؟ ألا تحب أن تصبح مؤلف كتب؟

ففكر أوليفر هنيهة ثم أجاب بأنه يفضل أن يصبح بائع كتب. . وعندئذ ضحك السيد الشيخ من أعماق قلبه، وذكر له أن ما قاله

حسن جدا. . وفرح أوليفر بذلك وإن لم يتبين وجه الصواب فيما قاله!

ثم قال المستر براونلو بلهجة أقرب إلى الجد: «الآن أريد منك أن تلتفت لما سأقوله لك. وأنا موقن أنك تفهم ما أقوله مثل الذين هم أكبر سنا منك!»

فصاح أوليفر وقد روعته لهجة الجد التى بدأ يخاطبه بها : «أوه. . لا تقل يا سيدى إنك ستطردنى من هنا! لا تطردنى ياسيدى لأتشرد فى الطرق من جديد! دعنى أمكث هنا لأكون خادما! ارحمنى يا سيدى!»

فقال له السيد الشيخ: «يا بنى العزيز: لا حاجة لأن تخشى أن أتخلى عنك إلا أذا كنت أنت سببا فى ذلك!»

فقال أوليفر: «لن يحدث هذا منى أبدا. أبدا!»

– آمل ألا يحدث. ولا أظنك ستكون سببا. . إن الناس الذين عاونتهم من قبل قد خدعونى، ولكنى أحسبنى أقدر أن أثق بك. إن جميع من كنت أحبهم يرقدون الآن فى قبورهم. وإذا كانت بهجة حياتى قد دفنت أيضا فإنى مع ذلك لم أجعل من قلبى تابوتا.. وأنا إنما أقول لك ذلك لأن لك قلبا واعيا. والآن وقد علمت أنى قاسيت الكثير من الحزن والألم، أحسبك ستحرص على ألا تجرح نفسى من جديد. إنك تقول إنك يتيم. فخبرنى من أين جئت، ومن الذى رباك، وكيف صرت بصحبة السوء كما وجدوك! قل الحق وستجدنى صديقا لك ما حييت!

ولما بدأ أوليفر يقص قصة حياته سمع على باب البيت قرع مزدوج يدل على قلة الصبر. وجرى الخادم إلى الطابق الأعلى وأنبأ سيده بقدوم المستر جريمويج.

فسأله أوليفر: «هل أذهب يا سيدى؟»

فأجاب المستر براونلو: «كلا! بل أفضل أن تبقى هنا. إن المستر جريمويج صديق قديم لى. وهو خشن المسلك إلى حد ما ولكنه رجل طيب فى قرارة نفسه!»

وعندئذ دخل فى الغرفة سيد عجوز بادن الجسم، وكان يعتمد على عصا غليظة. وكان بإحدى قدميه شئ من العرج، ويحمل فى احدى يديه قشرة برتقال. وما لبث أن قال: «أنظر! أترى هذه ؟ أليس عجيبا شاذا ألا أزور رجلا دون أن أجد هذه القطعة التى هى صديقة الأطباء فوق السلم؟. لقد نشأ عرجى مرة من قشرة برتقال، وأنا موقن أن قشر البرتقال سوف يكون سبب موتى فى النهاية. أجل إن قشر البرتقال سوف يأتينى بالموت، وإلا فإنى أقنع بأن آكل رأسى!»

وكانت هذه الجملة الأخيرة هى الحجة التى يؤيد بها المستر جريمويج كل ما يقوله. . ثم كرر قوله: «سآكل رأسى!»

ولمح أوليفر فقال: «هالو. . من هذا؟»

فأجابه المستر براونلو قائلا: «هذا هو الصغير أوليفر تويست الذى كنا نتحدث عنه». فصاح المستر جريمويج صيحة ظفر: «هذا هو الغلام الذى كانت معه البرتقالة. . إذا لم يكن هو الذى رمى قطعة القشر على السلم فأنى سآكل رأسى. . ورأسه أيضا».

فضحك المستر براونلو وقال: «كلا. كلا. لم يكن معه برتقال. . تعال. دع قبعتك جانبا وتحدث مع صديقى الصغير!»

– إنى شديد الإحساس بشأن هذا الموضوع. يوجد دائما على رصيف شارعنا قشر برتقال، وأنا أعلم حق العلم أن صبى الطبيب هو الذى يضعه فى ركن الشارع. وإذا لم يكن هو الذى يضعه، فإنى. . .

وهنا ضرب الشيخ الأرض ضربة قوية بعصاه. . وكان أصدقاؤه يفهمون دائما من هذه الضربة أنها تؤدى معنى الجملة الحبيبة إليه حين لا ينطق بها. ثم وضع منظاره على عينيه وتفرس فى أوليفر. وقال له المستر براونلو:

– إنه غلام وسيم. أليس كذلك؟

– لست أدرى. . إنى لا أرى أى فرق بين الأولاد. وإنما هناك نوعان اثنان منهم: أولاد نحاف، وأولاد ذوو وجوه بقرية!

– من الأولاد النحاف. . إن لأحد أصدقائى ابنا بقرى الوجه، والناس يقولون عنه إنه ولد لطيف. وله رأس مستدير وخدان أحمران وجسمه أضخم من أن يلائم ثيابه. وله صوت عامل وشهية ذئب. إنى أعرفه حق المعرفة! ذلك الوغد!

فقال له المستر براونلو: «هذه الصفقات لا تنطبق على أوليفر تويست، فلا يحق لك أن تغضب!»

فأجاب المستر جريمويج: «لا تنطبق عليه؟ قد تكون له صفقات أسوأ منها. من أين جاء؟ من هو؟ ماذا هو؟»

والواقع أن المستر جريمويج كان فى قرارة نفسه مرتاحا إلى مظهر أوليفر وسلوكه، ولكنه كان شغوفا بالمعارضة، وقد زاد من شغفه بها فى تلك الساعة عثوره على قشرة البرتقال بالسلم. ولذا عزم منذ البداية أن يعارض صديقه فيما يقوله. ثم سأله: «متى تستمتع إلى قصة حياة هذا الولد كاملة صحيحة؟»

فأجابه المستر براونلو: «صباح غد. . إنى أفضل أن يكون وقتئذ وحده معى. تعال إلى يا أوليفر فى الساعة العاشرة غدا!»

فقال أوليفر: «أجل يا سيدى!»

وعندئذ همس المستر جريمويج: «سأقول لك الواقع : إنه لن يأتى إليك فى الصباح غد. إنه يخدعك يا صديقى الطيب!»

فرد المستر براونلو بحماسة: «إنى أقسم أنه لا يخدعنى!»

وعندئذ صاح المستر جريمويج: «إذا كان لا يخدعك فإنى. ..». وضرب بعصاه على الأرض! وفى هذه اللحظة دخلت المسز بدوين فى

الغرفة ومعها ربطة من الكتب وقالت للمستر براونلو:

– لقد كنت يا سيدى تعتزم إعادة هذه الكتب الى المكتبة مساء اليوم!

وهنا قال المستر جريمويج بابتسامة ساخرة: «ابعث أوليفر بها. . إنه بلا ريب سيسلمها فى أمان».

فقال أوليفر: «أرجو منك يا سيدى أن تدعنى آخذها إلى الكتبى وسأذهب جريا».

فقال السيد الشيخ: «أجل ستأخذها إليه، وبذا تبرهن على أنى أستطيع أن أثق بك. وعليك أن تقول للكتبى إنك جئت لتعيد إليه هذه الكتب وتدفع له الجنيهات الثلاثة التى له قبلى. هاك ورقة نقد بخمسة جنيهات وعليك أن تجيئنى بجنيهين بقيتها!»

فوضع أوليفر ورقة النقد فى جيبه والكتب تحت إبطه وانحنى باحترام وغادر الغرفة.

وتبعته المسز بدوين إلى باب الشارع وهى تدله على أقرب طريق وعلى اسم الكتبى واسم الشارع.

ولما ذهب قالت: «بارك الله وجهه الحلو. إنى لأكره أن أدعه يغيب عن بصرى».

- ٣ -

أخرج المستر براونلو ساعته من جيبه ووضعها على المنضدة وقال: سيعود بعد عشرين دقيقة ويكون الظلام قد حل عندئذ».

فاعترض المستر جريمويج قائلا: «أوه ! اتعتقد حقا أنه سيعود؟ أتعتقد ذلك؟!»

فرد المستر براونلو وقال: «وأنت ألا تعتقد أنه سيعود؟»

فرد المستر جريمويج وهو يضرب المنضدة بقبضة يده وقال: «كلا!. . إنى لاأعتقد ذلك. إن الغلام يرتدى الآن بذلة جديدة على جسده، ومعه مجموعة من كتب قيمة تحت إبطه، وورقة نقد بخمسة جنيهات فى جيبه، إنه سيلحق بأصدقائه القدماء اللصوص ويسخر منك. إذا عاد ذلك الولد فى أى وقت إلى هذا البيت، فإنى سآكل رأسى!»

وإذ قال ذلك جذب كرسيا إلى جوار المنضدة، وجلس الصديقان وساعة الجيب بينهما. وأظلم المكان فأضيئت المصابيح. وكانت المسز بدوين واقفة بباب الدار تنتظر فى قلق. وجرى الخادم إلى الشارع نحو عشرين مرة ليرى إن كان أوليفر آتيا. ولبث السيدان الشيخان جالسين والساعة بينهما!

الفصل الثامن

فى قبضة فيجن

obeikandl.com

- ١ -

مضى أوليفر فى سبيله، وهو يفكر فى السعادة التى وافته حتى قرب من المكتبة. ولكنه ارتاع إذ فاجأته صيحة امرأة شابة تقول بأعلى صوتها: «آه يا أخى العزيز!»

ولم يكد ينظر أمامه ليرى ما حدث حتى أحاطت عنقه بذراعيها بشكل لا يدعه يفلت.

فوقف عن السير وقال لها وهو يحاول الخلاص منها: «دعينى أذهب. من أنت؟ لماذا تمنعينى عن السير؟»

وكان الجواب على سؤاله عدة صيحات عالية من تلك الشابة التى أمسكت به والتى كانت تحمل سلة ومفتاحا فى يدها!

وصاحت تقول له: أوه! الحمد لله. لقد وجدته! آه يا أوليفر! آه يا أوليفر! آه. أنت أيها الولد الشقى! لقد سبب لى آلاما شديدة! تعال معى إلى البيت يا عزيزى. هيا! الحمد لله. لقد وجدته!»

وانهمل الدمع من عينيها حتى إن امرأتين كانتا سائرتين هناك فى تلك اللحظة وقفتا وسألت إحداهما عما حدث، فأجابت الشابة: «لقد هرب من البيت منذ شهر تقريبا. وأبواه يكسبان رزقهما بعرق الجبين، وهما جديران بالاحترام، ولكنه فر منهما ولحق بجماعة من اللصوص والأرازل، فسبب لأمه التعاسة والحزن!»

وعندئذ صاحب إحدى المرأتين: «يا لك من نذل».

وقالت له الأخرى: «عد إلى بيتك يا أيها الوحش الصغير».

فقال أوليفر وقد تملكه الخوف: «إنى لا أعرفها. وليست لى أخت ولا أب ولا أم، إنى يتيم».

وهنا قال له غلام كان حتى تلك اللحظة واقفا بباب بيت قريب: «عد إلى البيت مع نانسى فى هدوء يا أوليفر!»

فرفع أوليفر رأسه ووقع بصره على تشارلى بيتس، فتراجع إلى الوراء خوفا ودهشة. وصاح قائلا: «هذا تشارلى».

وعندئذ قالت الشابة للمشاهدين الذين ازدحموا حولهم: «ها انتم أولاد ترون أنه يعرفنا! دعوه يعد معى أيها الناس الطيبون وإلا ماتت أمه وأبوه كمدا وتحطم قلبى من أجله!»

وشق رجل طريقه بين المتفرجين وكان يتبعه كلب أبيض وقال: «ما هذا! أنت يا أوليفر الصغير. . عد إلى أمك المسكينة فورا. .!»

وصاح أوليفر وهو يحاول الفكاك من قبضته القوية: «إنى لست منهم! أنا لا أعرفهم! النجدة! النجدة!»

فقال له الرجل: «النجدة؟ . أجل. . أنا سأنجدك، أنت أيها الوغد الصغير! ما هذه الكتب التى معك، هل سرقتها؟ أليس كذلك؟ أعطنى إياها؟

وانتزع الكتب من يدى أوليفر وضربه على رأسه. فقال واحد من النظارة: «لقد أصبت! هذه هى الطريقة الوحيدة لتأديبه!»

وقالت إحدى السيدتين: «إن هذا سوف ينفعه!»

وعندئذ قال الرجل: «وسينال حقه من الضرب!»

وضربه ضربة أخرى قوية وأمسك بخناقه وقال: «هيا بنا أيها الوغد!»

ثم قال لكلبه: «أنت يا عين الثور عليك به! عليك به!»

- ٢ -

وبعد بضع دقائق وقفوا فى ركن مظلم، والتفت سيكس إلى تشارلى بيتس الذى كان يتبعهم، وأمره أن يسبقهم جريا لينبئ فيجن بقدومهم. ثم أمر أوليفر بعنف أن يمسك بيد نانسى وقال له وهو يقبض على يده: «أعطنى يدك الأخرى!»

ثم نادى كلبه قائلا: «هنا. . يا عين الثور!»

فرفع الكلب بصره وقال له سيكس وهو يضع يده الأخرى على حنجرة أوليفر:

– إذا قال كلمة رقيقة أخرى فأمسكه من هنا. هل فهمت؟

فزمجر الكلب مرة أخرى وأخذ يلعق شفتيه وهو يتفرس فى أوليفر كأنه يتوق إلى أن ينقض على عنقه!

ونظر سيكس إلى الكلب بسرور وحشى وقال: «إنه مستعد وكأنه آدمى!» ثم التفت إلى أوليفر وقال له: «الآن أنت تعرف ما ينتظرك يا بنى فهيا ناد بقدر ما تستطيع فإن الكلب لا يلبث حتى يسكتك!»

وهز «عين الثور» ذنبه سرورا بكلمات المديح هذه التى لم يعتدها من صاحبه. . ثم زمجر مرة أخرى لأجل خاطر أوليفر ومضى أمامهم!

وكانت الليلة مظلمة كثيرة الضباب. وكانوا قد خطوا بعض خطواتهم ومروا أمام سور عال لأحد السجون فدقت ساعة الكنيسة، وقالت نانسى: «الساعة الثامنة يابيل!»

– ولماذا تخبريننى بذلك؟ إن لى أذنين أسمع بهما. أليس كذلك؟»

– إنى أتسائل: أيمكنهم أن يسمعوا دقات الساعة فى السجن؟

فأجاب سيكس: «بالطبع يسمعونها!.. حين كنت فى السجن كنت أسمع كل صوت فى خارجه!. وحين كانت الزنزانة توصد علىَّ ليلا كان السكون يسود حتى لأكاد أكسر رأسى على قضبان الباب!»

فقالت نانسى: «يالهم من أناس مساكين! فى المرة القادمة حين تدق الساعة الثامنة سيخرج الحراس ببعضهم لكى يشنقوا!.. لو كنت أنت بينهم يا بيل لما أسرعت فى المشى هكذا، بل كنت أطوف حول المكان حتى أسقط من الأعياء، حتى لو كان الجليد يغطى الأرض ولم أحمل شالا يدفئنى!»

فقال لها سيكس: «وماذا كان يفيدنى ذلك؟ إذا لم ترمى إلى فى هذه الحالة مبردا أبرد من القضبان، ومقدار عشرين ياردة من الجبال المتينة، فإنى لا أبالى أن تكون ماشية على بعد خمسين ميلا أولا تمشى أصلا!»

فقهقهت الفتاة ضاحكة، ولكن أوليفر شعر بيدها ترتعش فى يده، ونظر إلى ضوء مصباح بالطريق مروا أمامه، فرآه وقد علته صفرة الموت!

ومضوا فى طريقهم نصف ساعة على الأقل. وأخيرا دلوا فى زقاق ضيق شديد القذارة قامت على جانبيه حوانيت المابس القديمة. وتقدمهم الكلب ثم وقف أمام باب حانوت منها كان مغلقا، ويبدو أنه خال وقد علقت على بابه لافتة كتب عليها: «للإيجار»، وكأنهما وضعت هناك منذ سنوات لما يبدو عليها من قدم وقذارة!

ونظر سيكس حوله حذرا ولكن الشارع كان خاليا من السابلة. ثم أخرج من جيبه مفتاحا وفتح به الباب ودخل الجميع البيت فى هدوء، ثم سحب أوليفر فوق سلم مظلم وبعدئذ فتح باب غرفة واطئة، كريهة الرائحة، فاستقبلتهم قهقهة عالية وقال تشارلى بيتس ضاحكا:

– هذا هو ! انظر إليه يا فيجن! إن شكله مضحك لدرجة لا أتمالك معها نفسى من الضحك!

وتناول شمعة من فوق المائدة وتقدم نحو أوليفر وأخذ يتفرس فيه. ثم خلع قلنسوته وانحنى أمامه مرارا! ولما كان المراوغ لا يغفل فرصة للسرقة فقد أخذ فى خلال ذلك يفرغ جيوب أوليفر بعناية فائقة!

وقرب تشارلى الشمعة من سترة أوليفر الجديدة حتى كاد يحرقها وقال: «انظر إلى ثيابه! إنها من أحسن قماش! وكتبه أيضا! لقد أصبح من السادة يا فيجن!»

فقال له اليهودى وهو ينحنى له ساخرا: «يسرنى أن أراك بأحسن حال يا عزيزى، سيعطيك المراوغ بذلة أخرى خشية أن تفسد هذه البذلة. . لماذا لم تكتب إلينا يا عزيزى لتنبئنا بعودتك؟ إننا كنا نعد لك طعاما دافئا للعشاء!»

وفى هذه اللحظة سحب المراوغ من جيب أوليفر ورقة النقد ذات الخمسة الجنيهات، أخذها اليهودى فتقدم نحوه سيكس وقال له: «هالو! ما هذا! إنها لى يا فيجن!»

فرد فيجن قائلا: «كلا. كلا. يا عزيزى. إنها لى يا بيل. إنها لى. وستأخذ أنت الكتب!»

فوضع سيكس قبعته على رأسه وقال: «إذا لم آخذها فإنى أعيد الغلام حيث كان!»

فقال فيجن: «إن هذا ليس بالعدل يا بيل. أليس كذلك؟»

فأجاب سيكس قائلا: «عدل أو غيره!. . أعطنى الورقة. . أقول لك أعطنيها أنت أيها الهيكل العظمى الشحيح!»

وأخذ ورقة النقد من بين أصابع اليهودى ثم طواها عدة طيبات ووضعها فى جيبه وهو ينظر إلى وجه ذلك الشيخ فى برود! ثم قال له: «هذا جزائى على جهدى. وهو لا يوازى نصف ما استحقه. ويمكنك أن تحتفظ بالكتب إذا كنت شغوفا بالاطلاع. . وإلا فبعها!»

فركع أوليفر على ركبتيه عند قدمى فيجن وقال له متوسلا: «إنها للسيد الشيخ. . لذلك الشيخ الطيب الرحيم الذى آوانى فى بيته وأحاطنى برعايته حين أشرفت على الموت من الحمى، أرجوك أن تعيدها إليه. . أرسل إليه الكتب والنقود. أبقنى هنا طوال حياتى ولكن أرجو أن ترسلها إليه. وإلا ظن أنى سرقتها. . كذلك السيدة العجوز ستظن ذلك. أوه. . رحمة بى. . أرسلها إليه!»

فقال فيجن: «إن الغلام على حق!. .لقد أصبت يا أوليفر. . إنهم بالفعل سيظنون أنك سرقتها. . ها. ها. ها!»

وضحك وهو يمسح يديه إحداهما بالأخرى ثم أردف قائلا: : «ما كان يمكن أن يحدث خير مما حدث!»

فقال سيكس: «بالطبع ما كان يمكن أن يحدث خير من ذلك. فإن أولئك القوم الذين آووا أوليفر هم ذوو قلوب رقيقة. . ولن يسألوا أى سؤال خشية أن يقبض عليه ويزج به فى السجن. . إن الغلام فى أمان تام!»

وردد أوليفر بصره بين الاثنين وهو لا يكاد يفهم معنى لما يقولانه. ولكن ما أتم سيكس كلامه حتى وقف على قدميه واندفع هاربا من الغرفة وهو يصرخ. فتبعه اليهودى وتلميذاه ، وصاحت نانسى وقد جرت نحو الباب وأغلقته: «امنع عنه الكلب يا بيل! امنع عنه الكلب! إنه سيمزق الولد إربا!»

فقال لها سيكس وهو يحاول زحزحتها عن الباب: «إنه يستحق ذلك! ابعدى وإلا حطمت رأسك بالباب!»

فصاحت نانسى وهو تجاهده: «لا أبالى ذلك يا بيل! إن الغلام لن يمزقه الكلب إلا إذا قتلتنى أولا!»

– سأقتلك توا إذا لم تبتعدى من طريقى!

وقذف بها إلى أقصى أطراف الغرفة فى اللحظة التى عاد فيها اليهودى والغلامان ساحبين أوليفر وراءهم. ونظر فيجن حواليه ثم قال: «ماذا حدث؟»

فرد سيكس بوحشية قائلا: «أحسب أن الفتاة قد جنت!»

فقالت نانسى بصوت مرتفع: «كلا! إنها لم تجن!»

وعندئذ قال لها اليهودى: إذن الزمى الهدوء!»

ثم التفت إلى أوليفر وقال له: «إذن. . لقد أردت أن تهرب يا عزيزى ، أليس كذلك؟»

وتناول عصا كانت فى ركن بالغرفة ثم قال: «أردت أن تستغيث، وأن تنادى البوليس، أليس كذلك؟ هيه؟ سنشفيك من ذلك يا سيدى الصغير!»

وأمسك بذراع الغلام وضربه بشدة على كتفيه. ورفع العصا ليضربه مرة أخرى، وإذا بالفتاة قد اندفعت نحوه واختطفت العصا من يده وقذفت بها فى النار، وصاحت قائلة: «لن أقف ساكتة وأنت تضربه يا فيجن! لقد استعدت الغلام فماذا تريد بعد ذلك؟ دعه وشأنه. . إنه منذ هذه الليلة سيصبح لصا، وسيتعلم الكذب وكل ما هو سوء. ألا يكفيك بعد ذلك؟ دعه وشأنه. . إنه منذ هذه الليلة سيصبح لصا، وسيتعلم الكذب وكل ما هو سوء. ألا يكفيك ذلك أنت أيها العجوز التاعس، حتى تضربه؟!»

فقال لها اليهودى بصوت لين : «تعالى. تعالى يا نانسى. . لا ينبغى لك أن تتكلمى هكذا!»

فـردت الفتـاة قائلـة: «هـل تسـتحق أن أكلمـك إلا هكـذا أنـت أيهـا الوغـد!. . لقـد كنـت أسـرق لـك وأنـا طفلـة فـى مثـل سـن هـذا الولـد، وأشـارت إلى أوليفـر، وقـد مكثـت فـى هـذه الصناعـة وهـذه الخدمـة اثنـى عشـر عامـا بعـد ذلـك. ألا تعـرف ذلـك؟ تكلـم. انطـق!»

وضربـت الفتـاة الأرض بقدمهـا بعنـف. وكان وجههـا قـد عـاض منـه الـدم مـن شـدة الغضـب التـى تملكهـا وهـى تتكلـم!

فقـال لهـا فيجـن وهـو يحـاول تهدئتهـا: «حسـنا. حسـنا! إنـه مـورد رزقـك كمـا تعلمـين!»

فـردت الفتـاة وهـى لا تتكلـم بـل تصـب الكلمـات صبـا فـى صيحـة مسـتمرة: «أجـل إنـه كذلـك!. إنـه معاشـى. . والشـوارع البـاردة المبتلـة هـى مثـواى! وأنـت الوغـد الـذى دفعنـى إليهـا منـذ زمـان بعيـد والـذى سـيبقينى هنـاك، ليـل نهـار، حتـى أمـوت!»

فقال لها اليهودى: «سأفعل بك ما هو شر من ذلك إذا لم تسكتى!»

وعندئـذ مزقـت الفتـاة شـعرها وثوبهـا فـى سـورة الغضـب وهجمـت علـى فيجـن. ولكنهـا قبـل أن تصـل إليـه كان سـيكس قـد أمسـكها مـن معصميهـا. . وبعـد أن جاهدتـه قليـلا أغمـى عليهـا. فأرقدهـا سـيكس فـى ركـن مـن الغرفـة وقـال: «إنهـا بخـير الآن!»

فمسـح اليهـودى جبهتـه وقـال مبتسـما: «هـذا شـر مـا فـى التعامـل مـع النسـاء. ولكنهـن بارعـات ولا يمكـن الاسـتغناء عنهـن فـى حرفتنـا. . هيـا يـا تشـارلى أر أوليفـر سـريره».

فسـأله بيتـس وهـو يبتسـم: «أظـن أنـه لا يحسـن بـه أن يرتـدى أحسـن ثيابـه غـدا يـا فيجـن. أليـس كذلـك؟»

فرد اليهودى على ابتسامة بيتس بمثلها وقال: «بالطبع لا !»

وتناول بيتس الشمعة وقاد أوليفر إلى الغرفة المجاورة حيث كان هناك سريران أو ثلاثة من السرر التى نام عليها من قبل. وقدم له بذلة قديمة قذرة وأشار عليه بأن يخلع ثيابه الجديدة. فخلعها أوليفر المسكين كارها. وعندئذ لفها بيتس تحت ذراعه وغادر الغرفة بعد أن ترك أوليفر فى الظلام وأوصد الباب عليه!

ولعل قهقهة تشارلى وأصوات الآخرين كانت تحول بين آخرين وبين النوم فى ظروف خير من تلك التى أحاطت بأوليفر. ولكنه كان مريضا متعبا، وسرعان ما راح فى سبات عميق!

obeikandl.com

الفصل التاسع

سجين

obeikandl.com

- ١ -

فى صباح اليوم التالى كان بيل سيكس جالسا فى الحجرة وحده، مستغرقا فى الفكر، وكان الكلب قابعا عند قدميه، ينظر إلى سيدة بين حين وآخر وينبح. فقال له سيكس بغتة وهو يركله بقدمه: «صه!» وقد اعتادت الكلاب ألا تنتقم لنفسها من أصحابها لما ينزلونه بها من أذى، ولكن عين الثور كان متوحشا مثل صاحبه، فما لبث أن أنشب أنيابه فى حذائه، وبعد أن هزل ذيله استقر تحت كرسى وهو يزمجر. فتناول سيكس عصا بإحدى يديه وسحب بالأخرى مدية طويلة وصاح بالكلب: «أتريد أن تعضنى؟ تعال هنا. . أيها الشيطان بسليقته. تعال هنا! أسامع أنت؟»

ولا ريب أن الكلب قد سمعه ولكنه لم يرد أن يقطع عنقه ولذا بقى فى مكانه، وأخذ يزمجر بوحشية أشد من قبل. وفى الوقت نفسه أمسك طرف العصا بين أسنانه وأخذ يعض عليها كحيوان مفترس. وقد زادت مقاومته هذه من غضب سيكس فركع على ركبتيه أخذ يؤذى الكلب أشد من قبل، وأخذ هذا يقفز من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين، وهو يعض، ويمزجر، وينبح. وكان سيكس يسب ويلعن ويضرب. ثم فتح الباب فجأة ودخل فيجن الغرفة، وعندئذ خرج الكلب مسرعا، تاركا بيل سيكس وفى يديه العصا والمدية!

فقال سيكس وقد انتقل غضبه من الكلب إلى فيجن: «لماذا تتدخل بينى وبين كلبى؟»

فأجاب فيجن بانكسار: «لم أكن أعلم، يا عزيزى، لم أكن أعلم!»

– ما كنت تعلم أنت أيها اللص الجبان؟ ألم تسمع الضجة؟

– لم أسمع شيئا يا بيل!

– ورددت لو كنت أنت فى مكان الكلب منذ لحظة.

فسأله فيجن وهو يبتسم ابتسامة مغتصبة: «لماذا؟»

فأجابه سيكس وهو يطوى المدية: «لأن الحكومة التى تحافظ على حياة الأشخاص أمثالك، تدع الإنسان يقتل كلبه كما يحلو له، هذا هو السبب!»

فمسح فيجن يديه إحداهما بالأخرى، ثم جلس إلى المائدة وتظاهر بالضحك من نكتة صديقه. . ولكنه كان بادى القلق. . ونظر اليه سيكس باحتقال وقسوة وقال له: «اضحك كما تشاء ولكنك لن تضحك علىَّ. إن يدى هى العليا فوقك يا فيجن وسأدعها كذلك، وأنا إذا رحت، رحت معى، فلا تنس ذلك!»

فقال له اليهودى: «حسنا. حسنا. يا عزيزى. إنى أعرف كل ذلك. إن مصالحنا واحدة يا بيل. وقد جئتك الآن بنصيبك من السرقة الأخيرة. وأنا أعطيك أكثر مما تستحق يا عزيزى، ولكنى موقن أنك سترد لى هذا الصنيع فى فرصة أخرى!»

فقاطعه اللص قائلا: «دعك من هذا الهراء. أين نصيبى! هيا سلمنى إياه!»

– أجل. أجل. يا بيل. لا تتعجل! ها هو ذا لم يمس بسوء!»

وأخرج من عبه منديلا قطنيا قديما وفك عقدة فى طرفه فانكشف عن كيس صغير من ورق أسمر. واختطفه منه سيكس وفتحه بسرعة وعد الجنيهات الذهبية التى يحتويها، ثم سأله قائلا: «هل هذا كل ما كان فيه؟»

– أجل كله!

فسأله بارتياب: «ألم تفتح الربطة وتختلس منها واحدا أو اثنين وأنت قادم؟ لا تتظاهر بالاستياء من هذا السؤال. . فقد فعلت ذلك عدة مرات. . حسنا. أنا ذاهب الآن لأشترى لنفسى شرابا!»

obeikandl.com

- ٢ -

بعد ذهاب اللص، مكث فيجن لحظة ونظرة البغض مرتسمة على ملامحه، ثم حلت محلها ابتسامة خبيثة، واتجه نحو الغرفة التى كان أوليفر محبوسا بها ففتح قفلها ودخل. ثم جلس إلى جوار الغلام وشرع يحدثه عن نكران الجميل، وذكر له أنه قد دل على هذا النكران بغيابه مدة عن فيجن وتلاميذه، ثم تضاعف ذنبه بمحاولته الفرار بعد أن بذلوا ذلك الجهد العظيم فى سبيل استعادته اليهم. وذكر أوليفر بأنه آواه فى فى الوقت الذى كان سيموت جوعا فيه لولا تلك المعونة. وحكى له قصة ولد صغير كان قد مد له يد المساعدة على هذا النحو، ولكنه كان ناكرا للجميل فحاول أن يشى به للبوليس. وذكر له فيجن كيف استطاع أن ينجى نفسه وأصدقاءه بالشهادة الكاذبة التى كانت سببا فى الحكم على ذلك الغلام بالإعدام شنقا. وأتم قصته بوصف متاعب الشنق وصفا غير سار. ثم قال لأوليفر بكثير من المودة والأدب : «على أنى أرجو ألا تدعو الضرورة إلى أن تموت أنت تلك الميتة!»

وقد جمد الدم فى عروق أوليفر وهو يستمع إلى هذا الكلام من الشيخ، وأدرك بشكل مبهم ما تحمله كلماته من وعيد ونذير. ولما رفع رأسه بخوف وتقابل نظره ونظر فيجن، أحس أن هذا قد لحظ ما به من صفرة فى الوجه ورعشة فى الأعضاء وأنه قد سر من ذلك!

ثم ربت اليهودى رأس أوليفر وهو يبتسم، وقال له: «إذا بقيت هادئا وتعلمت مهنتنا فلا يزال فى الإمكان أن نصبح صديقين حميمين!» وبعدئذ خرج وأوصد الباب وراءه.

وهكذا بقى أوليفر سجين تلك الغرفة فى هذا اليوم وفى أيام عديدة تالية. وكان يظل لا يرى أحدا من باكرة الصباح إلى منتصف الليل، ويمضى ساعات الليل الطويلة وحيدا مع أفكاره. وهى أفكار حزينة، وتتجه دائما نحو المستر براونلو والمسز بدوين، وسوء رأيهما فيه بعد ما حدث!

وبعد انقضاء أسبوع تقريبا، صار اليهودى يترك باب الغرفة غير موصد فكان أوليفر حرا فى التجوال بداخل البيت. وكان بيتا شديد القذارة، وقد تركت العناكب نسجها فى كل زاوية من جدرانه وسقفه. وأحيانا كان أوليفر يمشى برفق فى الغرفة فتجرى الفئران خائفة على الأرض، قاصدة إلى جحورها. وبعد أن يرخى الليل سدوله ويكل أوليفر من الانتقال من غرفة إلى أخرى، كان أحيانا يجلس بركن إلى جوار الباب المؤدى إلى الشارع ليكون أقرب ما يكون إلى الناس الأحياء. وقد يمكث فى جلسته هذه يستمع، ويعد الساعات حتى يعود فيجن أو يعود تلاميذه!

وكانت النوافذ محكمة الإغلاق فى جميع الغرف. والقضبان التى وراءها داخلة فى الخشب، ومن هنا كان الضوء الوحيد الذى يدخل الغرف إنما ينفذ من خلال ثقوب فى أعلى النوافذ، وكان ذلك يزيد الغرف عتمة ويملؤها بظلال عجيبة. وهناك نافذة فى غرفة خلفية، صدئت قضبانها، وليست لها ضلف، فكان أوليفر يمكث عند هذه النافذة ساعات طويلة وهو ينظر حزينا إلى الخارج، ولكنه كان لا يبصر منها سوى عدد متزاحم من قمم البيوت والمداخن التى علاها سواد!

- ٣ -

وبعد ظهر أحد الأيام، أمر المراوغ، أوليفر، أن يمسح له حذاءه، إذا كان عليه أن يخرج فى المساء. وقد سر أوليفر أنه يؤدى عملا ما، وأن يرى بعض الوجوه مهما يكن بها من سوء. ولذا بادر إلى إبداء الطاعة. وجلس المراوغ فوق المائدة وتشارلى بيتس يتفرج، فى حين جلس أوليفر القرفصاء على الأرض وبدأ يلمع الحذاء بقدر ما يستطيع.

وأخذ المراوغ يدخن غليونه ويحتسى كوبا من الجعة وهو يهز إحدى قدميه إلى أمام وخلف فى غير اكتراث. ثم نظر إلى أوليفر من عل وعلى وجهه أمارات التفكير وتأوه وقال كأنه يحدث نفسه وبيتس:

– واحسرتاه! واحسرتاه على أنه ليس لصا!

ثم تأوه مرة أخرى واستمر فى تدخين غليونه. وكذلك فعل تشارلى بيتس. ومضت برهة وهما يدخنان صامتين ثم استطرد المراوغ يقول:

– إننى لص. وكذلك تشارلى. وكذلك فيجن. وكذلك سيكس. وكذلك نانسى! إننا جميعا لصوص حتى الكلب أيضا. وهو أمهر الجميع!

فأردف تشارلى قائلا: «وهو آخر من قد يشى بنا إلى البوليس».

وقال دوكنز: «بل إنه لن ينبح فى قفص الشهود! حتى لو ربطته فيه وتركته هناك دون طعام مدة أسبوعين!»

ثم التفت تشارلى إلى أوليفر وقال له: «لماذا لا تضع نفسك تحت رعاية فيجن يا أوليفر؟»

وقال المراوغ على استحياء: «إنى لا أحب ذلك! بودى لو تركونى أذهب. . إنى أفضل أن أذهب من هنا!»

فقال له تشارلى: «ولكن فيجن لا يؤثر ذلك!»

وكان أوليفر يعلم ذلك حق العلم، فتنهد وعاد ينظف الحذاء. ثم صاح به المراوغ قائلا:

– تذهب؟ أين كرامتك إذن؟ . أتذهب وتدع أصدقاءك يعولونك؟

وقال تشارلى بيتس: «إنى كما كنت أرضى لنفسى ذلك!»

وأخرج من جيبه قبضة من الشلنات والبنسات: «انظر!. إننا نعيش عيشة مبهجة!»

وماذا يعينك من الطريقة التى نحصل لها على الأشياء؟ أمسك هذه النقود. إن الذين نأخذها منهم لديهم وفرة منها. . ألا ترغب فى ذلك أنت أيها الأحمق؟»

وقال تشارلى بيتس: «إن فيجن سوف يجعل منك شيئا يذكر، وإلا كنت أنت أول من يفشل معه ولا يكسب من ورائه. ويحسن بك أن تبدأ توا، لأنك سوف تجد نفسك تباشر هذه الحرفة قبل أن تفكر بوقت طويل. إنك انما تضيع الوقت يا أوليفر».

وقال له المراوغ: «إذا كنت أنت لا تأخذ المناديل والساعات من الناس فسيأخها أحد غيرك. وبذا يكون أصحابها الذين يفقدونها خاسرين، وتكون أنت خاسرا أيضا. ولن يكسب أحد سوى أولئك الذين استحوذوا عليها، مع أن لك الحق فيها مثلهم تماما!»

وهنا دخل فيجن من غير أن يلحظه أوليفر فقال: «بالتأكيد. بالتأكيد! إن المراوغ على حق. ولتركن إلى صدقه! إنه يفهم حرفتهم!»

ومسح الشيخ يديه إحدهما بالأخرى فرحا، وجذب كرسيا إلى مقربة من النار. ثم أخذ يبين لأوليفر مزايا المهنة، وذكر مهارة المراوغ وينوِّه بسخائه هو. ثم تكلم عن السرقات التى ارتكبها هو فى أيام شبابه، وضمن كلامه كثيرا مما يضحك، ولم يسع أوليفر إلا أن يضحك من كل قلبه وقد شاقه ما سمعه برغم أخلاقه العالية!

وقصارى القول إن ذلك الشيخ الماكر أوقع الغلام فى شباكه. وكان قد أعد ذهنه بالوحدة والظلمة لأن يؤثر أى مجتمع على أفكاره السوداء. والآن أخذ يدس السم تدريجيا فى نفسه حتى تتسمم إلى الأبد!

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل العاشر

الخطة

obeikandl.com

- ١ -

بعد بعضة أيام من ذلك، غادر فيجن مغارته فى ليلة باردة مطيرة، وكانت سترته مشدودة بالأزرار على جسده النحيل، وياقته مرفوعة فوق أذنيه لتغطى الجزء الأدنى من وجهه. ووقف على عتبة الباب لحظة بعد أن أغلقه وراءه. وبعد أن استمع قليلا – تسلل إلى الشارع بأقصى ما يستطيع من سرعة. وكانت الأرض عليها طبقة كثيفة من الوحل، وفوق الطرق ضباب معتم. بينما المطر يتساقط، وكل شئ بارد رطب الملمس. وكانت الليلة بالإجمال ملائمة لخروج رجل مثل فيجن من وكره. وأخذ ذلك الشيخ القبيح المنظر يدب فى الشارع ببطء ملازما الجدران والمداخل التماسا للوقاية، فكأن أشبه بثعبان كريه ولد فى القذارة والعتمة اللتين يزحف فيهما!

وأخيرا انقلب إلى شارع لا يضيئه سوى مصباح واحد فى أقصاه وقرع باب بيت هناك وقال بضع كلمات لمن جاء يفتح له ثم صعد الدرج. وزمجر كلب إذ لمس مقبض باب إحدى الغرف، وصاح رجل من الداخل: من القادم؟ فقال له فيجن، وهو ينظر إلى داخل الغرفة، : «إنه أنا بيل!»

فقال له سيكس: «أدخل جسمك إذن. . ارقد على الأرض يا عين الثور. ألا تعرف الشيطان إذا ارتدى سترة؟»

والظاهر أن الكلب قد خدعه رداء فيجن الخارجى، فلما فك أزراره ثم رماه على ظهر كرسى، ارتد الكلب إلى الركن الذى كان قد نهض منه، وصار يبصبص بذنبه وهو ذاهب. . ثم سأل سيكس فيجن: «ما وراءك؟»

فأجاب اليهودى قائلا: «حسنا يا عزيزى ! آه. ها هنا نانسى!»

وقال ذلك وهو لا يدرى كيف تستقبله الفتاة، لأنه لم يكن قد لقيها منذ ذلك المساء الذى اختطف فيه أوليفر. ولكن سرعان ما بدد مسلكهما شكوكه. وبدا أنها قد نسيت غضبها منه، فأشارت إليه بأن يسحب كرسيا إلى جوار النار لأن الليلة باردة الجو!

فقال لها فيجن وهو يدفئ يديه اللتين نتأت عظامهما: «حقا! إن الجو بارد يا نانسى يا عزيزتى. ويخيل إلى أن البرد ينفذ فى جسدى!»

فقال سيكس: «لابد أن البرد شديد حتى إنه يشق طريقه إلى قلبك أنت! حسنا ما وراءك؟»

فأجاب بصوت منخفض: «جئت بشأن الذى فى شرتسى يا بيل. متى يحصل السطو يا بيل؟»

ثم صاح وهو يمسح يده إحداهما بالأخرى: «ما أبدع الآنية الفضية التى به!»

فقال له بيل ببرود: «لن يحصل السطو مطلقا!»

فردد فيجن قوله وكأنه صدى لصوته: «لن يحصل السطو مطلقا؟!»

– كلا. لن يحصل! أو على الأقل إنه لن يكون عملية مرتبة كما كنا نتوقع، فقد مكث توبى كراكيت يتسكع حول البيت نحو أسبوعين من غير أن يستطيع إغواء أحد الخدم بمعاونته».

– أتعنى بذلك أنه لم يقدر أن يكسب لصفنا أحد الرجلين اللذين يقومان بالخدمة هناك؟»

– أجل أعنى ذلك. . إنها فى خدمة السيدة العجوز منذ عشرين عاما. ولو أعطيتهما خمسمائة جنيه لما قبلا الاشتراك فى السرقة. وكذلك

الخادمات فإنهن جد مخلصات لسيدتهن حتى انهن لم يقبلن أن يجدن على توبى كراكيت بنظرة!

فتأوه اليهودى وقال: «إذن أخشى أن نضطر إلى العدول عن هذه المسألة!. . ومع ذلك من المؤلم حقا يا عزيزى أن نفقد تلك الغنيمة الوفيرة بعد أن عقدنا عليها الآمال!»

فقال سيكس: «إن الأمر كذلك. حظنا سئ!»

وتلت ذلك فترة صمت كان اليهودى فيها مستغرقا فى التفكير. ثم قال سيكس فجأة:

– أتعطينى يا فيجن خمسين جنيها فوق نصيبى إذا تمت السرقة بأمان من الخارج؟

فأجاب اليهودى وقد تنبه فجأة : «أجل!»

فقال سيكس: «إذن لتتم السرقة بأسرع ما تريد. . لقد تسلقت أنا وتوبى سور الحديقة الليلة التى قبل الأخيرة. والبيت يوصد من الداخل بالمزلج وكأنه سجن، ولكن هناك نافذة صغيرة يمكننا فتحها. وكل ماهنالك هو أننا نحتاج إلى غلام، ويجب ألا يكون ضخم الجسم».

فأومأ فيجن برأسه مشيرا إلى نانسى، وكانت تنظر إلى النار، وأشار إلى سيكس إشارة تعنى رغبته فى إبعادها عن الغرفة. ولما طلب إليها اللص أن تجيئه ببعض الجعة. فقالت له وقد ضمت ذراعيها : «إنك لا تريد شيئاً من الجعة ! أتمر يا فيجن! إنى أعرف ما يريد أن يقوله يابيل».

ولكن فيجن بدا عليه التردد ، فنظر سيكس إلى الاثنين مندهشاً وقال :»لا تبال الفتاة يا فيجن! إنك تعرفها منذ زمن طويل فجدير بك أن تثق بها !»

فجاب فيجن : «بالطبع !. . ولكنى خشيت أن تكون منحرفة الصحة كما كانت فى تلك الليلة ! «

وعند إذن ضحكت نانسى ضحكةً عالية وهزت رأسها وقالت : «إنى بصحة جيدة يا فيجن. هيا كلم بيل عن أوليفر !»

فقال اليهودى : «ها ! إنك فتاة بارعة يا عزيزتى !. بل أنت أذكى فتاة عرفتها !. . حقاً إنى أردت أن أكلمه عن أوليفر !»

فسأله سيكس : ماذا تريد أن تقول عنه؟»

إنه الغلام الذى يصلح لك فى هذه المهمة يا بيل!

فقال سيكس أجل إن حجمه مناسب تماما

وقال فيجن : «وسيقبل كل ما تريده منه يا عزيزى. .. ولن يسعه إلا ذلك. .. هذا طبعاً إذا أخفته ! «

فردد سيكس قوله : «إذا أخفته ؟ سأريه كيف يكون الخوف! و إذا أتى أى ذنب بعد أن نبدأ العمل فلن تراه حياً مرة أخرى يا فيجن. .. فكر فى ذلك قبل أن تبعثه لى».

– لقد فكرت فى ذلك من قبل. . وقد راقبته عن كثب. إنه متى شعر بإنه صار واحداً منا، ومتى ملأت ذهنه بأنه كان لصاً فعند إذن يصبح ملك يميننا طول حياته !»

فقال له سيكس : «ما الذى يجعلك تهتم كل هذا الاهتمام بذلك الغلام الذى يشبه وجهه التباشير ؟

إن فى الشوارع خمسين غلاماً يبيتون على قوارعها كل ليلة ، ونستطيع أن تلتقط وتختار منهم من نشاء !»

قال سيكس: «إذن يحسن بك أن تحضر الغلام إلى هنا الليلة القادمة. وقد وضعنا أنا وتوبى لإنجاز المسألة ليلة بعد غد. وسأغادر هذا البيت بعد ساعة من انبثاق الفجر.

وكل ما عليك عمله هو أن تمسك لسانك وتعد الإناء الذى فيه الآنية الفضية!»

وبعد مناقشة قليلة تقرر أن تذهب نانسى إلى بيت فيجن فى مساء اليوم التالى وأن تحضر أوليفر معها. وقال فيجن بخبث: «إننى مستعد لمرافقة الفتاة فإنها فى المدة الأخيرة قد ساعدتنى أكثر من شخص آخر». ونظر إلى الفتاة متفرسا قبل أن يخرج وقد تبين فيها الاخلاص والجد فى هذا الأمر. مثل سيكس نفسه. وفى طريقه إلى بيته قال يحدث نفسه: «إنهن هكذا دائما. . إن شر ما بهن أن أقل شئ يكفى لإثارة شعور ولى من زمن. وخير مابهن أن هذا الشعور لايستمر معهن أبدا!»

- ٢ -

لما استيقظ أوليفر فى صياح اليوم التالى، دهش إذ وجد إلى جوار سريره حذاء جديدا ذا كعب سميك متين. وقد سرته هذه اللقية ولكن سرعان ما ولى عنها سروره حين قال له فيجن: «سأذهب بك فى هذه الليلة إلى بيت سيكس». وسأله أوليفر فى قلق: «هل سأبقى هناك؟» فأجاب فيجن:

– كلا! كلا يا عزيزى! لا تخف يا أوليفر. . ستعود إلينا بالتأكيد. ها. ها. ها. إننا لن تبلغ بنا القسوة أن نطردك من هنا!»

فقال أوليفر: «إذن لماذا أذهب يا سيدى؟»

– اصبر حتى يخبرك بيل!

ولبث أوليفر صامتا حتى حل المساء واستعد للذهاب، وقال له فيجن: «يمكنك أن تشعل شمعة. . وهاك كتابا تقرأ فيه حتى يأتوك لأخذك. كن على حذر يا أوليفر! فإن بيل سيكس رجل عنيف ولا يبالى سكب الدم إذا غضب! ومهما يحدث فلا تقل شيئا، بل افعل ما تؤمر به. عم مساء!»

ولما غادر فيجن الغرفة أخذ أوليفر يفكر فيما قاله له، ولم يجد أى سبب يدعو لإرساله إلى سيكس. وأخيرا استنتج أنه وقع عليه الاختيار ليكون خادما لذلك اللص. فتنهد من أعماق قلبه وتناول الكتاب الذى أعطاه فيجن إياه. وأخذ يقلب صفحاته بغير اكتراث فى البداية، ولكنه ما لبث أن وجد به أشياء شائقة. وكان الكتاب يحوى ترجمة لحياة كبار المجرمين وسردا لتفاصيل محاكمتهم. وكانت صفحاته قذرة ملوثة لكثرة استخدامه. وقرأ فيه أوليفر عن جرائم مروعة جمد منها الدم فى عروقه. . وعن جرائم قتل ارتكبت فى جوانب الطرق الموحشة. . وعن جثث أخفيت عن الأنظار فى حفر وآبار. وكان الوصف دقيقا واقعيا

لدرجة أن الصفحات الصفراء بدت كأنها حمراء بالدم. وخيل إلى أوليفر أن الكلمات تطن فى أذنيه وكأنها همسات أشباح. فامتلأ قلبه رعبا وأغلق الكتاب وأزاحه بعيدا عنه. ثم ركع على قدميه وأخذ يدعو الله ألا يحكم عليه بأمثال تلك الفعال، وأن ينجيه من الأخطار التى تحيط به!

ودخلت نانسى الغرفة برفق فلم يشعر بدخولها. ولما رأته يصلى علا وجهها شحوب ثم ارتمت على كرسى وغطت وجهها وبكت قائلة: «غفر الله لى! إنى لم يخطر لى ذلك قط!»

فقام أوليفر على قدميه حين سمع صوتها وقال لها: «هل حدث شئ؟ أيمكننى أن أساعدك؟» بودى لو أفعل إذا استطعت!»

فتمايلت نانسى إلى الأمام وإلى الخلف، ثم جذبت شالها حولها إذ شعرت بقشعريرة، وجلست برهة صامتة ثم رفعت رأسها وقالت: «لا أدرى ماذا ينتابنى أحيانا. . إنها رطوبة هذه الغرفة فيما أظن. . والآن يا عزيزى أوليفر: هل أنت مستعد؟ يجب أن تأتى إلى بيل!»

وأدرك أوليفر أن له شيئا من التأثير فى العواطف النبيلة للفتاة. وخطر له لحظة أن يتوسل إليها أن تشفق عليه فى بؤسه. ولكنه تذكر أن الساعة الحادية عشرة فقط فلابد أن يكون بالشوارع أناس يمكن أن يصدقوه إذا ذكر لهم قصته. ولذا خطا إلى الأمام وقال لنانسى: «إننى مستعد!»

وقالت له الفتاة: «لقد أنقذتك من الإساءة مرة، وسأنقذك مرة أخرى! ولكن ينبغى لك ألا تقول شيئا ونحن فى الطريق، فقد وعدت بأن تبقى ساكنا ساكتا. وإلا فإنك إما تؤذى نفسك وتؤذينى معك، وربما يصل الأمر إلى قتلى. فتذكر ذلك! ولا تدعنى الآن أعانى المزيد من أجلك. لو أننى أمكننى أن أعاونك لفعلت ولكن لا قدرة لى على ذلك. إنهم لا يريدون بك سوءا. ومهما أجبروك على فعله فإن الذنب ليس ذنبك. صه! إن كل كلمة تقولها لى هى بمثابة ضربة تقع علىّ. أعطنى يدك. وأسرع!»

- ٣ -

لما عادت نانسى قال لها سيكس: «إذن فقد أحضرت الولد! هل جاء فى هدوء؟»

فأجابت نانسى: «كالحمل الوديع!»

فقال سيكس: يسرنى أن أسمع ذلك، لأجل خاطر بدنه الصغير الذى كان يصيبه الأذى لولا هذا. . تعال هنا يا ولد وتلق منى نصيحة!»

وجذب قبعة أوليفر ورماها فى ركن ثم أمسكه من كتفه وجلس إلى جوار المائدة والغلام واقف أمامه. ثم تناول مسدسا كان فوق المائدة وقال له: «الآن. أولا. أتعرف هذا؟»

فأجاب أوليفر: «أجل يا سيدى!»

وعبأ سيكس المسدس بعناية ثم قال: «إنه الآن معبأ».

– أجل يا سيدى.

ثم أمسكه بمعصمه ووضع فوهة المسدس أمام رأسه وقال له: «إذا قلت كلمة واحدة حين تخرج معى إلا إذا خاطبتك فإنى أطلق المسدس دون إنذار. فإذا كنت عازما على أن تتكلم بغير إذن فاتل صلواتك الآن!»

ثم أعدت نانسى طعام العشاء. وبديهى أن أوليفر لم تكن به شهية.. وبعد قليل ارتمى سيكس على سرير، وأمر نانسى أن توقظه فى الساعة الخامسة تماما. وتمدد أوليفر على حشية فوق الأرض فى حين جلست الفتاة أمام الموقد على أهبة لأن توقظها فى الوقت المحدد. ومكث أوليفر فترة طويلة مستيقظا، وقد خطر له أن نانسى قد تنتهز هذه الفرصة لكى تدلى إليه بنصيحة أخرى. ولكن الفتاة جلست مستغرقة فى الفكر دون أن تتحرك. وأخيرا أجهده الترقب والقلق فغلبه النعاس!

obeikandl.com

الفصل الحادى عشر

شروع فى سرقة

obeikandl.com

- ١ -

لما استيقظ أوليفر من نومه لم يكن النهار قد طلع بعد، إذ كانت الشمعة لا تزال مشتعلة، وكان الظلام دامسا فى الخارج. وكان سيكس مشغولا بوضع أدوات شتى فى جيوب معطفه الذى كان معلقا فوق ظهر أحد الكراسى، وكانت نانسى منهمكة فى إعداد طعام الفطور! وزمجر سيكس قائلا: «هيا! الساعة الآن الخامسة والنصف. تنبه وإلا فلن تحصل على فطور لأننا الآن متأخرون فعلا!»

وتأهب أوليفر بغير إبطاء. وناولته نانسى منديلا ليربطه حول عنقه وهى لا تكاد تنظر إليه. وأعطاه سيكس حرملة ليزررها فوق كتفيه: وبعد أن ارتدى ثيابه على هذا الشكل مد يده إلى سيكس فقاده هذا خارجا من غير أن يدلى بتحية الوداع إلى الفتاة! ولما خرجا إلى الطريق كانت الريح قوية والمطر يهطل والسحب كثيفة تنذر بعاصفة. وكانت الأمطار قد سقطت بغزارة فى الليلة السابقة. فتكونت برك عديدة فى الطريق. وكان ضوء النهار قد بدأ يلوح ضعيفا ولكن لم يكن أحد قد خرج من بيته بعد فى ذلك الحى.. وكانت نوافذ البيوت لا تزال مغلقة، والشوارع التى مر بها خالية من الناس والضوضاء. ثم بدأ النهار وفتحت الدكاكين تدريجيا، فصادفا بعض أناس متفرقين. ثم بدأت جماعات من العمال يسير أفرادها فى الطرق قاصدين إلى أماكن العمل. وظهر رجل ونساء حاملين سلال الأسماك فوق رؤوسهم. وسارت عربات محملة بالخضراوات. ومشت بائعات اللبن حاملات أوعيته. وتدفق سيل غير منطقع من الناس آتين بالزاد والمؤونة إلى ضواحى المدينة. وكلما اقترب سيكس وأوليفر من قلب العاصمة زادت الضجة والحركة تدريجيا. لقد بدأ مع الصباح نشاط نصف ساكنى لندن!

ومضى الرجل والغلام فى شوارع المدينة العظيمة مسرعين، ثم سارا إلى طرق ريفية حتى وصلا بعد الظهر إلى بلدة صغيرة، فدخل سيكس والغلام معه فى خان قديم وطلب غداء يتناولانه بجانب فرن المطبخ!

وأكلا لحما باردا، ثم جلسا بعد الأكل مدة طويلة ظل سيكس فى خلالها يدخن غليونه حتى حسب أوليفر أنهما لن يذهبا إلى أبعد من ذلك المكان. ولما كان قد أجهده المشى وقد استيقظ مبكرا فسرعان ما غلبه النوم!

وكان الظلام دامسا حين أيقظه سيكس بدفعة من يده. ثم أمسكه اللص من يده مرة أخرى واستأنفا السير، وكان الليل شديد البرد وقد ارتفع ضباب رطب من نهر قريب. ولم ينطق أحدهما بكلمة، ومشيا خلال أزقة مظلمة وحقول موحلة، حتى لاحت أضواء مدينة صغيرة على مسافة غير بعيدة. ولما نظر أوليفر أمامه رأى أنهما يقتربان من قنطرة، ولما بلغا بدايتها جذب سيكس أوليفر بغتة وحاد به عن طريق القنطرة إلى غرفة تحتها إلى اليسار! فكاد أوليفر يقع من الخوف وقال يحدث نفسه: «الماء! لقد جاء بى إلى هذا المكان الموحش ليغرقنى!»

وكان يرتمى على الأرض ويبذل آخر جهد لديه احتفاظا بحياته، وإذا به يرى أنهما أمام بيت منعزل كأنه إحدى الخرائب وليس به ضوء، وتدل الدلائل كلها على أنه لا يسكنه أحد. وفتح سيكس الباب بسكون وهو لا يزال ممسكا أوليفر من يده ودلف الاثنان إلى الداخل!

- ٢ -

وما إن دخلا حتى صاح صوت من الداخل : «هالو!»

فأغلق سيكس الباب وراءه وقال: «لا تحدث صوتا. . أضئ لنا يا توبى».

فسمعت خطوات قدمين على الأرض المجردة فى الغرفة التى إلى اليمين. وفتح الباب وظهر به رجل يحمل شمعة فى يده.

وقال توبى كراكيت: «أنا سعيد برؤيتك يا بيل. ادخل».

فدفع سيكس أوليفر أمامه قائلا: «هنا تدخل أنت أولا. أسرع وإلا دست على كعبيك!»

ودخلا غرفة واطئة معتمة بها نار تبعث دخانا وكرسيان أو ثلاثة كراس مكسرة وأريكة بادية القدم!

وقال توبى: «لقد كدت أخشى أن تعدل عن المسألة يا بيل. وفى هذه الحالة كنت سأحاول وحدى.. هل هذا هو الغلام؟» ونظر إلى أوليفر، فأجابه سيكس: «إنه أحد غلمان فيجن!»

فصاح توبى : «من غلمان فيجن؟ إنه سيكون عظيم النفع فى النشل من جيوب السيدات العجائز بالكنائس! إن البراءة المرتسمة على وجهه هى بمثابة ثروة له!»

فسحب سيكس كرسيا إلى مقربة من النار وقال: «والآن إذا قدمت إلينا شيئا من الطعام والشراب فى أثناء انتظار الموعد، فإنك تبعث فينا شيئا من الجرأة. اجلس أنت يا ولد بجانب الموقد واسترح. فإن عليك أن تذهب معنا من جديد هذه الليلة، إلى مكان غير بعيد من هنا!»

فنظر أوليفر إلى سيكس صامتا متسائلا فى خوف. وجلس مسندا رأسه الموجع إلى يديه وهو لا يكاد يدرى أين هو ولا ماذا يحدث حوله!

ووضع توبى بعض الطعام وزجاجة خمر على المائدة. ولم يقدر أوليفر أن يأكل شيئا سوى كسرة خبز صغيرة أغرياه بازدرادها. ولما شبع سيكس جلس هو وصاحبه على كرسيين لينامـا برهة قصيرة من الوقت. ونام أوليفر أيضا وجعل يحلم بالمناظر التى مرت عليه فى يومه المنصرم. ثم استيقظ على صوت توبى كراكيت وقد قفز من مكانه وصاح يقول: «إن الساعة الآن النصف بعد الواحدة».

وبعد لحظة واحدة كان سيكس واقفا على قدميه. وغطى هو وتوبى عنقيهما وذقنيهما بشالين كبيرين داكنى اللون، وجذبا معطفيهما فوقهما. وفتح توبى خزانة وأخذ منها عدة أدوات وضعها فى جيوبه. فسأله سيكس: «هل أخذت معك كل شئ؟»

فأجاب توبى: «لم أنس شيئا».

وتناول هراوتين من ركن بالغرفة وأعطى رفيقه إحداهما!

وقال سيكس لأوليفر: «الآن هيا بنا».

والتفت إلى توبى وقال له: «أمسكه من يده الأخرى يا توبى!»

وخرج اللصان يتوسطهما أوليفر، وكان الظلام حالكا، والضباب أكثف مما كان فى الشطر الأول من الليل. كما كان الهواء مثقلا بالرطوبة. وساروا فوق القنطرة ثم مضوا نحو الأضواء التى لمحها أوليفر من قبل، ولم تكن بعيدة وكانوا يمشون مسرعين، فلم يلبثوا حتى وصلوا إلى بلدة شرتسى وهمس سيكس فى أذن رفيقه: لنضمى فى وسط المدينة فلا يرانا أحد فى هذه الساعة، ومشوا مسرعين فى الشارع الرئيسى بتلك البلدة

الصغيرة وكان مهجورا فى تلك الساعة المتأخرة وكان نباح الكلاب يقطع أحيانا سكون الليل، ولكن لم يكن أحد من الناس خارج بيته، وكانوا قد خلفوا البلدة وراءهم حين دقت ساعة الكنيسة الثانية ثم ساروا فى طريق إلى اليسار زهاء ربع ميل حتى وقفوا أمام بيت محاط بسور، فتسلقه توبى كراكيت حتى وصل إلى قمته فى لحظة واحدة، وهو لا يكاد يقف ليأخذ نفسه، ثم قال لصاحبه: الولد بعدى، ارفعه إلىّ وأنا أمسك به، وقبل أن يتاح لأوليفر أن ينظر حوله، كان سيكس قد أمسكه من تحت ذراعيه، ثم لم تمض لحظة حتى كان هو وتوبى على أعشاب الحديقة بالجانب الآخر من السور، وتبعهما سيكس توا ثم تسللوا بحذر نحو البيت، والآن أدرك أوليفر لأول مرة وهو يكاد يجن من الحزن والفزع أن السطو والسرقة إن لم يكن القتل أيضا هما الغرض من هذه الرحلة، وشبك يديه معا وخذلته ساقاه فسقط على ركبتيه فقال ليه سيكس وهو يرتعد غضبا ويسحب مسدسا من جيبه : «قم. . قم.. وإلا بعثرت مخك فوق العشب».

فتوسل إليه أوليفر باكيا: «بالله دعنى أذهب. . دعنى أهرب. . وأمت فى الحقول.. إنى لن أعود إلى لندن أبدا ارحمنى ولا تدعنى أسرق».

فأخذ اللص يسب ويصخب ووضع فوقه مسدسه على رأس الغلام، ولكن توبى أسقطه من يده، وقال له: «صه. لا تطلق المسدس هنا. إذا نطق الولد بكلمة أخرى فسأضربه على رأسه فأسكته، إن هذا لا يحدث صوتا ولكنه مضمون النتيجة مثل طلقة المسدس».

فالتقط سيكس مسدسه من فوق الأرض، وأعاده إلى جيبه، ثم سحب هو وتوبى الغلام إلى مؤخرة البيت حيث توجد نافذة صغيرة لا تحميها سوى ضلفة من الخشب، وكانت الفتحة صغيرة لدرجة رأى معها ساكنو البيت انه لا خوف منها. لكنها كانت تتسع لأن يمر منها ولد بمثل حجم أوليفر. وتمكن سيكس بقليل من الجهد أن يكسر الضلفة وبفتح النافذة ثم أخرج من جيبه مصباحا وأضاءه وقال لأوليفر: «الآن أصغ إلىّ. .

سأجعلك تنفذ من هذه النافذة وستأخذ معك هذا المصباح، ثم تصعد بكل سكون سلما تجده أمام وبعد إذ تمضى فى ردهة صغيرة إلى الباب المؤدى إلى الشارع ثم تفتح لنا هذا الباب لندخل».

وثبت توبى قدميه تحت النافذة وظهره إلى الحائط بينما يداه على ركبتيه ليجعل من نفسه سلما، فصعد سيكس فوق ظهره وأدخل أوليفر فى النافذة وقدماه قبل جسمه، حتى وصل إلى الأرض فى داخل البيت دون أن يترك قناعه، ثم قال له من خلال النافذة : «خذ هذا المصباح. . أترى السلالم التى أمام».

فقال أوليفر لاهثا وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة: «أجل».

فأشار سيكس بمسدسه إلى باب البيت المؤدى إلى الشارع وذكره بأنه فى نطاق طلقة المسدس حتى يصل إلى ذلك الباب وبأنه سيقتله توا إذا تردد لحظة واحدة ثم همس قائلا: «فى اللحظة التى أتركك فيها تبدأ إنجاز مهمتك.. اسمع».

وقال له اللص الآخر: «ما هذا؟ وأصغيا باهتمام».

ثم قال سيكس: «لا شئ».

ثم تركا خناق أوليفر وقال له : «الآن».

وكان أوليفر قد اعتزم فى نفسه أن يندفع من الردهة إلى الطابق الأعلى ويوقظ ساكنى الدار. ولو مات فى سبيل ذلك. وبهذا العزم خطا خطوة إلى الأمام، فصاح به سيكس بغتة: «ارجع. . ارجع».

وارتاع من هذه الصيحة التى قطعت السكون الموحش، فأسقط المصباح الذى بيده وكرر سيكس النداء، وظهر ضوء ، ورأى رجلين عند قمة الدرج، ثم بدا وميض ضوء ، وسمع صوت طلقة تبعه دخان وسقط أوليفر على الأرض، ولكن سيكس كان قد أمسكه من خناقه قبل أن يتبدد

الدخـان وأطلـق مسدسـه علـى الرجلـين وكانـا قـد تراجعـا إلى الـوراء، ثـم سـحب الغـلام معـه، وقـال وهـو يجـره مـن خـلال النافـذة، : «أعطنـى شـالا يـا توبـى. . لقـد أصابـاه أسـرع مـا أشـد مـا ينـزف منـه الـدم».

ثـم سمـع أوليفـر صـوت جـرس يـدق وصيحـات رجـال، وشـعرا بـأن أحـدا يحملـه مسـرعا بـه فـوق أرض غـير معبـدة، ثـم غمـر قلبـه شـعور بـارد مميـت، ولم يعـد يـرى أو يسـمع شـيئا.

obeikandl.com

- ٣ -

زمجر سيكس بوحشية إذ سمع صيحات الناس عند البيت: «لتمزق الذئاب أعناقكم، وددت لو كنت بينكم وعندئذ كان صياحكم يصبح أعلى منه الآن؟!»

ووضع جسم الغلام الجريح على ركبتيه والتفت لحظة إلى مطارديه وكان لا يبصر شيئا كثيرا وسط الضباب والظلام، ولكن صياح الرجال ونباح الكلاب فى البيوت المجاورة وقد أيقظها دق الجرس كانا يشقان الجو، وصاح اللص وراء توبى كراكيت: «قف أيها الكلب الجبان. . قف».

وأغرى التكرار توبى بالوقوف إذ كان غير مطمئن إلى أنه بعيد عن مدى طلقة المسدس.

ووضع سيكس الغلام فى حجرة جافة عند قديمه، وسحب من جيبه مسدسا وقال للص الآخر:

«ارجع وساعدنى على العناية بالولد.. أسرع ولا تحاول أن تخدعنى».

وفى هذه اللحظة زادت الضجة ارتفاعا وتبين سيكس رجلين يتسلقان مدخل الحقل الذى وقف به وقال له توبى: «لقد انتهى الأمر يا بيل، دع الغلام ولنولهم الأدبار».

وآثر توبى كراكيت خطر قتله برصاص صديقه على القبض عليه، بأيدى أعدائه فجريا بأقصى سرعته وألقى سيكس نظرة واحدة حوله ثم رمى سترة على جسد أوليفر وتبع صاحبه بالفرار.

ووقف الرجلان بعد أن كانا تقدما مسافة فى داخل الحقل وقال أحدهما البادن الجسم: من المحال أن ندركهما. وأنصح لك، بل الأحرى أن أقول آمرك أن نعود توا إلى البيت»، فقال الآخر: «وكان شاحب الوجه خائفا: «إنى مستعد لأن أفعل كل ما تقوله لى. إن مركزى لا يسمح لى بأن أخالفك يا مسر جيلز.

فقال المستر جيلز وكان وجهه أكثر شحوبا : «أخائف أنت يا بريتلز».

فرد بريتلز قائلا: «من الطبيعى أن يخاف الإنسان فى مثل هذه الظروف».

ولما سمع المستر جليز هذا القول اعترف بأنه هو أيضا خائف، ثم أردف قائلا: «ولكن ما أعجب ما يقدم عليه الإنسان إذا ثارت ثائرته. إنى موقن أنى كنت سأصبح قاتلا إذا أمسكنا أولئك اللصوص.

وشجعا نفسهما بهذا الحديث، ولكنهما حرصا على أن يمشيا متلاصقين تقريبا، وهما عائدان إلى الدار، وكانا ينظران حولهما فى خوف كلما طرق آذانهما صوت، وكان المستر جيلز هو الساقى الخادم المنوط به الأكل والشرب لسيدة الدار العجوز، أما بريتلز فكان خادما يؤدى كل ما يطلب منه، ولما كانا قد دخلا خدمة هذه الأسرة وهو طفل، فإنه لبث يعامل كأنه غلام مع أنه تخطى الأربعين من عمره.

وزادت برودة الجوز حين اقترب النهار وغطى الضباب الأرض وكأنه سحابة كثيفة من الدخان، وكان العشب مبتلا والدروب والأماكن المنخفضة مملوءة بالوحل والماء، ومازال أوليفر راقدا بلا حراك ولا وعى فى البقعة التى تركه فيها سيكس.

الفصل الثانى عشر

أصدقاء جدد

obeikandl.com

- ١ -

بدأ أول شعاع خافت من الضوء على صفحة السماء وصارت الأشياء التى ظهرت غامضة مخيفة فى الظلام تزداد الآن وضوحا، وأخذ المطر يتساقط غزيرا سريعا، ولكن أوليفر لم يشعر به بعد، وهو يسقط عليه. فقط مكث راقدا بلا وعى ولا حول.

وأخيرا استيقظ الغلام فصاح صيحة ألم خافتة، لأن ذراعه اليسرى وكانت قد ربطت بغير عناية قد تعلقت بجانبه ثقيلة قليلة النفع، وكان الرباط قد بلله الدم، وكان من الضعف بحيث لم يكد يقدر على القعود إلا بمشقة ثم نظر حوله بضعف باحثا عن عون وتأوه من الألم وقف على قدميه ببطء وحاول أن يمشى، لكنه ترنح إلى الأمام وإلى الخلف كما يترنح السكران، ومع ذلك واصل السير ورأسه مائل إلى صدره، وهو لا يدرى إلى أين المسير، حتى وصل إلى طريق ورأى أن هناك بيتا غير بعيد وربما استطاع الوصول إليه، فلعل ساكنيه تأخذهم به الرحمة، وإلا كان خيرا له أن يموت بالقرب من أناس أحياء على أن يموت فى الحقول المقفرة.

ولما اقترب من ذلك البيت شعر أنه رآه من قبل، ذلك من الصورة المحيطة بالحديقة، إنه على الأعشاب التى وراء هذا السور قد ركع الليلة الماضية على ركبتيه ودعا الله أن يرحمه. لقد كان هو البيت نفسه الذى حاول سيكس وكراكيت أن يسطوا عليه، ولما عرف أوليفر المكان تملكه الخوف، حتى نسى ألم الجرح الذى به ولم يفكر إلا فى الفرار.

الفرار؟! أنى له أن يفر وهو لا يكاد يقوى على الوقوف، وإذا فرض أنه كانت له كل القوة التى لجسمه الصغير النحيل فإلى أين المفر؟!

مـن أجـل ذلـك لم يسـعه إلا أن يدفـع بـاب الحديقـة، وكان غـير موصـد، فانفتـح ومشـى مترنحـا فـوق العشـب ثـم صعـد درج العتبـة وقـرع البـاب بضعـف ومـا لبـث حتـى سـقط مغشـيا عليـه، وقـد خذلتـه قـواه.

obeikandl.com

- ٢ -

كان الخدم يتناولون طعام الفطور فى المطبخ، وكان المستر جيلز يقص على الطاهية والخادمة أعمال الشجاعة التى قام بها فى الليلة الماضية، وهما تستمعان إليه بإعجاب.

وقال المستر جيلز: «كانت الساعة الثانية والنصف ليلا، وإذا بى أسمع ضجة، فقمت من السرير وتناولت مسدسا، ومشيت على أطراف قدمى، حتى وصلت إلى غرفة بريتلز وقلت له حين أيقظته: يا بريتلز لا تخف، وهنا قال بريتلز بصوت منخفض: صحيح!

واستطرد المستر جيلز قائلا: «إننا فى حكم الموتى يا بريتلز، ولكن لا تخف!»

وهنا سألته الخادمة: «هل كان خائفا؟»

فأجاب المستر جيلز: «كلا! لقد كان شجاعا، أو كاد يكون شجاعا مثلى».

وقالت الطاهية: «لو كنت فى مكانكما لمت من الخوف».

فقال بريتلز: «أنت امرأة!»

فهز المستر جيلز رأسه وقال: «إن بريتلز على حق والإنسان لا يتوقع غير ذلك من امرأة، ولكننا رجلان ولذلك أخذنا مصباحا وهبطنا الدرج».

وهنا فزع المستر جيلز فزعا شديدا وصرخت الطاهية والخادمة. وقال المستر جيلز: «إن أحدا قرع الباب، فليفتحه أحد». ولم يتحرك أحد.

ثم استطرد المستر جيلز وهو ينظر إلى وجوه من حوله وقد علتهما صفرة الخوف يبدو عجيبا أن يقرع أحد الباب فى هذه الساعة من الصباح، ولكن لابد من فتح الباب. أسامع أنت يا بريتلز إذا كنت تؤثر أن تفتح الباب أمام شهود، فإنى مستعد أن أكون أحدهم.

فوافق بريتلز على هذا الشرط، واتجه هو والمستر جيلز نحو الباب وتبعتهما المرأتان وقد خافتا أن تبقيا وحدهما، وطبقا لنصيحة المستر جليز صارتا تتحدثان بصوت مرتفع جدا، لتوهما القادم أن بالبيت أناسا كثيرين.

وبعد اتخاذ هذه التدابير، أصدر المستر جليز أمره بفتح الباب فصدع بريتلز بالأمر ونظر كل من هذه الجماعة فوق كتف الآخر بخوف، وإذا بهم يرون أوليفر تويست الصغير البائس.

فقال المستر جيلز وهو يتقدم بريتلز بشجاعة: غلام؟! وأمسك أوليفر من إحدى ساقيه وإحدى ذراعيه، ولحسن الحظ لم تكن هى الذراع المكسورة، وسحبه إلى الردهة، ثم وضعه ممدا على الأرض وصاح موجها كلامه إلى أعلى السلم: ها هو ذا! أحد اللصوص يا سيدتى! هاهنا لص يا آنسة جريح يا آنسة! لقد أطلقت عليه الرصاص!»

وجرت الخادمتان إلى فوق تحملان نبأ قبض المستر جيلز على لص! وحاول بريتلز أن يجعل أوليفر يفيق حتى لا يموت قبل أن يشنق. وفى وسط هذه الضجة سمع صوت حلو أسكتهما توا. وقالت صاحبة ذلك الصوت من أعلى الدرج: «يا جيلز».

– ها أنذا يا آنسة. . لا تخافى. . إنى لم أصب بأذى كثير. . إنه لم يقاوم مقاومة شديدة يا آنسة!

فردت السيدة الصغيرة قائلة: «صه! إنك تروع عمتى بقدر ماروعها اللصوص. . هل حدث أذى شديد لذلك المخلوق البائس؟»

– إنه مجروح جرحا خطيرا يا آنسة!

وصاح بريتلز: «إنه يبدو كأنه مشرف على الموت يا آنسة. ألا تحبين أن تأتى وتلقى عليه نظرة فقد يموت؟»

فعادت السيدة الصغيرة تقول: «صه ! انتظروا فى هدوء دقيقة واحدة حتى أكلم عمتى!»

وذهبت فى خطوات ناعمة رقيقة مثل صوتها، ثم عادت بعد لحظة وأمرت بنقل الجريح إلى الطابق الأعلى ووضعه فى غرفة المستر جيلز، وبأن يركب بريتلز الجواد توا إلى تشرتسى ليدعو الطبيب. فقال لها المستر جيلز:

– ولكن ألا تلقين عليه نظرة أولا يا آنسة؟

فردت السيدة الصغيرة: «ليس الآن! يا له من غلام مسكين! عامله برفق يا جيلز، لأجل خاطرى!؟ »

فنظر الخادم العجوز إليها وهى ذاهبة، نظرة كبرياء وحب كما لو كانت ابنته. ثم انحنى على أوليفر وساعد على نقله إلى الطابق الأعلى بمثل عناية المرأة ورقتها!

obeikandl.com

- ٣ -

جلست سيدتان فى غرفة جميلة إلى مائدة فاخرة للفطور، وكان المستر جيلز يقوم على خدمتهما. وكانت إحداهما قد تقدم بها العمر، ولكن الكرسى ذا الظهر العالى لم يكن أكثر استقامة من قامتها. . أما السيدة الصغرى فكانت فى ربيع الأنوثة اليانعة إذا لم يزد عمرها على سبع عشرة سنة. وكانت رقيقة، طاهرة، جميلة، لدرجة يبدو معها العالم بما فيه من مخلوقات خشنة غير ملائم لها. . وقد تجلى الحب فى عينيها الزرقاوين العميقتين وهى تنظر إلى عمتها حتى لكأنما الملائكة تبتسم إذا تراها!

وقالت السيدة العجوز: «لقد ذهب بريتلز منذ أكثر من ساعة. أليس كذلك؟»

فأجاب المستر جيلز وهو ينظر إلى ساعة جيبه: «منذ ساعة واثنتى عشرة دقيقة يا سيدتى!»

واستطردت السيدة العجوز تقول: «إنه دائما بطئ!»

فأجاب الخادم: «إن بريتلز كان ولا يزال ولدا بطيئا يا سيدتى!»

ولما كان ولدا بطيئا منذ أكثر من ثلاثين سنة. . فقد كان الأمل ضعيفا فى أن يصبح سريعا. .

وفى هذه اللحظة وقفت عربة بباب الحديقة، وقفز منها سيد بادن الجسم، وجرى نحو الباب ودخل الدار وأسرع توا إلى الغرفة التى كانت بها السيدتان، وقال وهو يصافحهما:

– إنى لم أسمع قط بمثل هذا الحادث! يا عزيزتى المسز مايلى، وأنت يا آنسة. روز، لقد كان الخوف جديرا بأن يقضى عليكما! وفى سكون الليل أيضا؟!

فقالت له روز: «إننا بخير حال يا دكتور لوسبرين، ولكن فى الطابق الأعلى مخلوقا بائسا تريد منك عمتى أن تراه!»

فأجاب الطبيب: «لقد قال لى بريتلز ذلك. . لقد كان هذا من عملك يا جيلز كما علمت. . أين هو؟ أرنى الطريق. . سأمر عليك حين أنزل يا مسز مايلى!»

وغاب الطبيب برهة طويلة. وجئ له بحقيبة من العربة. وكان جرس سرير يدق مرارا، وكان الخدم يصعدون الدرج ويهبطون مسرعين. وأخيرا عاد الطبيب فقالت له السيدة العجوز:

– عسى ألا يكون الغلام فى خطر؟

– ما أحسبه فى خطر يا مسز مايلى. . ولكن الأمر عجيب جدا. . هل رأيت هذا اللص؟

– كلا!

– ولا سمعت عنه شيئا؟

فقال المستر جيلز: «معذرة يا سيدتى، لقد هممت أن أحدثك عنه لولا أن الدكتور لوسبرن قد جاء فى تلك اللحظة!

والحقيقة أن المستر جيلز قد خجل أن يقول إنه لم يصب برصاصة سوى غلام! وكان قد لقى الإعجاب بشجاعته فلم يسعه إلا أن يرجىء الشرح بضع دقائق!

قالت المسز مايلى: «لقد أرادت روز أن ترى ذلك اللص، ولكنى لم أسمح لها بذلك».

فقال الدكتور: «ليس فى مظهره مايزعج مطلقا. . إنى أود لو تأتيان كلتاكما وتريانه!»

وقادهما إلى غرفة نوم فى الطابق الأعلى. وبدل أن يكون على السرير مجرم ارتسم القمر على وجهه كما توقعت السيدات، كان هناك طفل أنهكه الألم واستغرق فى سبات عميق. وكانت ذراعه الجريح فوق صدره، ورأسه معتمد على ذراعه الأخرى، وقد غطى شعره المنسدل نصف وجهه!

ونظر الطبيب لحظة ساكتا. فى حين جلست السيدة الصغيرة على كرسى بجانب السرير وأخذت تزيح شعر أوليفر برفق من فوق وجهه. ولما انحنت فوقه سقطت دموعها على جبينه فتحرك وابتسم فى نومه، كأن دلائل العطف هذه قد أثارت لديه رؤيا سارة، قوامها حب لم يعرفه قط!

وقالت السيدة العجوز: «ما معنى هذا؟ إن هذا الطفل المسكين لا يمكن أن يكون صبى لصوص!»

فقال الطبيب: «إن الخطيئة كثيرا ما تسكن فى بيت جميل!»

وقالت روز متعجبة: «ولكن فى هذه السن المبكرة؟!»

فأجاب الطبيب وهو يهز رأسه: «يا سيدتى الصغيرة العزيزة. . إن الجريمة مثل الموت ليست مقصورة على كبار السن وحدهم. بل إن أصغر الناس وأجملهم قد يكونون أيضا فرائس لها!»

فاستطردت روز قائلة: «لكن. . حتى إذا كان هذا شريرا فاذكر صغر سنه! ولا تنس أنه لم يعرف حنان الأم ولا راحة المثوى. ولعل سوء المعاملة والضرب والجوع قد دفعته دفعا إلى الجريمة. . يا عمتى، يا عمتى العزيزة، فكرى فى ذلك كله قبل أن تدعيهم يسحبون هذا الطفل المريض إلى السجن! وكما تحبيننى، أشفقى عليه قبل فوات الأوان!»

فضمتها السيدة العجوز إلى صدرها وقالت لها: «يا حبيبتى. . أتظنيننى أرضى أن أؤذى شعرة من رأسه؟ كلا بالتأكيد! إن إيامى قد قاربت النهاية. وأنى أرجو الله أن يرحمنى كما أرحم خلقه!»

وانقضت ساعة بعد أخرى وأوليفر مازال مستغرقا فى النوم. وأمسى المساء قبل أن يقول الدكتور الطيب القلب إنه يمكن التحدث معه. وقص عليهم أوليفر تاريخ حياته البسيطة بحذافيرها، وكثيرا ما كان يضطر إلى التوقف عن الكلام من الألم والضعف. وكان من دواعى الخشوع أن يستمع فى تلك الغرفة الخافتة الضوء إلى صوت طفل مريض وهو يقص قصة شاقة، ملؤها الشرور والآلام التى سببها له أناس علاظ الأكباد! ولكن الأيدى الرقيقة نعمت وسادته فى تلك الليلة. والجمال والفضيلة سهرا عليه حين نام!

- ٤ -

أبل أوليفر تدريجيا من مرضه بفضل العناية المشتركة من المسز مايلى وروز والدكتور لوسبرن الطيب القلب. وصار يعبر بكلمات قليلة يتخللها البكاء، عن عرفانه لصنيع السيدتين الرقيقتين، وعن أمله فى أن يتاح له يوما أن يبرهن على ذلك العرفان!

وقالت له روز: «إنك تهبنى سعادة لا أقدر أن أصفها لك. إن من دواعى السرور أن أفكر فى أن عمتى العزيزة قد أنقذتك من الشقاء الذى وصفته. وإنه لما يزيد فى هذا السرور أن من أغدقت عليه عطفها وطيبتها عارف بصنيعها فى صدق وإخلاص!

فقال لها أوليفر: «لقد كنت أفكر فى أنى الآن ناكر للجميل!»

فسألته السيدة الصغيرة: «الجميل من؟»

– ذلك السيد الشفيق والمربية العجوز الطيبة اللذان عنيا بى تلك العناية من قبل. لو أنهما يعلمان الآن قدر ما أنا فيه من سعادة لسرهما ذلك بالتأكيد!

– حين تتقدم صحتك بحيث تحتمل مشاق السفر سنذهب بك لزيارتهما!

فصاح أوليفر وقد أشرق وجهه بالفرح: «حقا ؟ لا أدرى إلى أى حد أشعر بالسعادة حين أرى وجهيهما مرة أخرى!»

ومرت الأيام هادئة آمنة. وكانت الليالى لا تأتى بخوف ولا قلق، ولكن بالأفكار السارة. وتذوق أوليفر السعادة الصادقة واستحال عرفانه بجميل السيدة العجوز وبنت أخيها، حبا عميقا!

الفصل الثالث عشر

لقاء عجيب

obeikandl.com

- ١ -

استيقظ بيل سيكس من نومه فزمجر متسائلا عن الساعة من الليل، وكان راقدا على سريره ملتفا بمعطفه. ولم ينقص وجهه قبحا من شحوب الموت الذى أحدثه المرض فيه، ولا من لحيته السوداء التى نمت فى عدة أسابيع، وقبع الكلب بجانب السرير، ينظر إلى الشارع. وجلست إلى النافذة شابة قد انهمكت فى ترقيع صيديرية قديمة للص. وكانت قد شحب وجهها ونحل جسمها من أثر المراقبة والجوع حتى لا يكاد الإنسان يعرف أنها نانسى لولا صوتها حين أجابت عن سؤال سيكس قائلة: «إن الساعة بعد السابعة بقليل. كيف حالك الليلة يا بيل؟»

فأجاب قائلا: «ضعيف وكأنى خلقت من ماء. . مدى إلىَّ يدك وساعدينى على النهوض من هذا السرير!»

ولم تكن الغرفة هى نفسها التى كان يقطنها قبل الشروع فى السرقة ببلدة تشرتسى وإن كانت فى الحى نفسه، وكانت صغيرة المساحة رديئة الأثاث، تطل نافذتها الصغيرة الوحيدة على طريق ضيق قذر. وكانت قلة قطع الأثاث وعدم وجود وسائل الراحة واختفاء كل المنقولات الصغيرة، كلها دلائل على فقر مدقع. وإذا كانت هذه الدلائل لا تكفى فهناك البرهان الحاسم ماثل فى مظهر البؤس الذى بدا فيه سيكس ونانسى!

وقالت الفتاة وهى تضع يدها على كتف اللص: «لا تكن قاسيا علىّ الليلة يا بيل. فقد سهرت عليك ليالى عديدة، وأنا أمرضك وأعنى بك كما لو كنت طفلا!»

وأضفت رقة الأنوثة شيئا من الحلاوة على صوتها. واستطردت قائلة: «إن هذه أول ليلة أرى فيها تحسنا بك حتى عدت أشبه بنفسك، وما كنت لتضربنى كما ضربتنى منذ لحظة، إذا ذكرت قدر عنايتى بك فى مرضك. . هيا. قل إنك ما كنت لتضربنى لو علمت!»

فأجاب سيكس قائلا: «حسنا إذن. . ما كنت لأفعل. . ولكن لا تقفى هكذا باكية. إنك لا يمكنك أن تؤثرى فىَّ بهذا الهراء النسوى الذى تظهرينه!»

وهنا فتح الباب ودخل فيجن، يتبعه المراوغ الداهية وتشارلى بيتس. وكان المراوغ يحمل ربطة فوضعها على الأرض. فقال سيكس:

– أى ريح سوء دفعتك إلى هنا يا فيجن؟

– لست ريح سوء يا عزيزى! لأن رياح السوء لا تدفع الإنسان ومعه خير، وأنا قد أحضرت إليك شيئا طيبا ستسرك رؤيته. يا مراوغ يا عزيزى. افتح الربطة وأعط بيل الأشياء التافهة الصغيرة التى أنفقنا فيها كل نقودنا صباح اليوم!

ففك المراوغ الربطة وسلم الأشياء التى بها إلى تشارلى بيتس، فوضعها هذا على المائدة قطعة قطعة، وهو يمتدح جودتها ويقول:

– هذه فطيرة أرنب يا بيل! يا لها من مخلوقات دقيقة ذات أعضاء لينة يا بيل. إن عظامها نفسها تكاد تذوب فى فمك! ونصف رطل من الشاى، الذى بلغ من القوة أنك إذا مزجته بماء يغلى، كاد يطير غطاء الوعاء! ورطل من الزبدة! وقطعة جبن! وفى الختام مقادير من أفخر ما شربت من الخمر فى حياتك!

وأبرز زجاجة وملأ منها كأسا وناولها إلى سيكس، فتجرعها المريض توا دون تردد، وصاح فيجن وهو يمسح يديه فرحا:

– آه! لقد تحسنت صحتك يا بيل؟ إنى أرى ذلك! فأجاب اللص قائلا: «تحسنت؟! كان يمكن أن أموت عشرين مرة قبل أن تعمل أى شئ لمساعدتى! ماذا تعنى بتركك رجلا فى هذه الحالة ثلاثة أسابيع أو أكثر، أنت أيها الوغد المرائى؟

فقال فيجن: «إن هذه الأشياء لا بأس بها، ولكن ماذا تقول عن نفسك؟ لماذا تركتنى هنا مريضا بلا نقود ولم تهتم بى قط وكأنى ذلك الكلب؟»

– لم يكن بوسعى غير ذلك يا بيل! فقد أخبرنى توبى بأنكما فشلتما فى تشرتسى وتركتما أوليفر، ولذا خفت أن أقترب منك. إذا دل ذلك الغلام رجال البوليس علينا كان مآلنا الإعدام لا محالة يا بيل! لقد بعثت تشارلى إلى تشرتسى للبحث عنه فوجد أن أصحاب ذلك البيت قد آووه ويعنون به. لا بد لى من استعادة هذا الغلام!

فقالت نانسى فجأة: «خير للطفل أن يبقى هناك من أن يكون بيننا!. دعه حيث هو يا فيجن. إنى لا أحتمل أن أراه قريبا منى. إن منظر وجهه الحلو البرئ يبغضنى فى نفسى وفيكم جميعا!»

فقال فيجن بازدراء: «هذا هراء! إن الغلام يساوى مئات الجنيهات بالنسبة لى» والآن صار أيضا خطرا علينا. أفأتركه من أجل رغبة امرأة؟»

فسأله سيكس: «لكن كيف تستطيع إرجاعه يا فيجن؟»

فأجاب الشيخ قائلا: «إن الفرصة سانحة الآن. فإن المس مايلى وعمتها قد جاءتا به إلى لندن أمس. وقد نزل الثلاثة بفندق هوايت أوتيل بالقرب من هايد بارك. وقد اكتشف تشارلى كل ذلك. . إنه ولد بارع. وعلينا الآن أن نراقب ذلك الفندق، وسنجد بلا ريب فرصة لوضع أيدينا على الغلام!

فقال سيكس: «حسنا! يمكننا أن نفكر فى ذلك غدا من غير أن نكون متأخرين. ولا تنس أن تحضر معك نقودا يا فيجن.

- ٢ -

بعد أن ذهب فيجن وتلميذاه، مكثت نانسى برهة وهى صامتة، وكان وجهها شديد الشحوب، وكان سيكس لا يزال ضعيفا من أثر الحمى التى أصابته بعد محاولة السرقة فى تشرتسى، فعاد إلى فراشه وجلس يحتسى كأسا أخيرا من الخمر. ثم لحظ بغتة صمت الفتاة فرفع نفسه قليلا على يديه لينظر إليها فصاح مندهشا:

– ياللعجب! لكأنك جثة عادت إلى الحياة! ماذا دهاك؟»

فأجابت نانسى: «لا شئ! لماذا تحملق فىَّ هكذا؟»

ثم سألها سيكس: «ما هذه الحماقة؟ ماذا تقصدين؟ فيم تفكرين؟»

– أفكر فى أمور كثيرة يا بيل!

قال سيكس: «لقد أصابتك عدوى الحمى. هيا تعالى واجلسى بجانبى واستعيدى سحنتك السابقة وإلا غيرت وجهك حتى لا تعرفيه ثانية!»

فأطاعت الفتاة وأمسك سيكس بيدها ثم وضع رأسه ثانية على الوسادة وهو ينظر إليها وأغمض عينيه وفتحهما، ثم أغمضهما وفتحهما، وغير موضعه مرارا بشكل يدل على القلق، وعندئذ قامت نانسى ووضعت قبعتها على رأسها، والتفعت بشالها مسرعة، وأخذت تنظر حولها بين حين وآخر خائفة، كأنها تتوقع كل لحظة أن تهبط يد سيكس القوية على كتفها. ثم انحنت برفق فوق السرير وقبلت شفتى اللص، ثم فتحت باب الغرفة وأغلقته وراءها من غير أن تحدث صوتا، وأسرعت خارجة من الدار!

وكان كثير من الحوانيت قد بدأت تغلق أبوابها حين مضت فى طريقها قاصدة إلى الجانب الغربى من لندن. ودقت ساعة إحدى الكنائس الثامنة والنصف فزاد فى قلقها. وأسرعت فوق الأرصفة الجانبية وهى تزاحم السابلة. ثم أخذت تعبر الشوارع، تحت رؤوس الخيل تقريبا من السرعة، وكانت هناك شوارع مزدحمة وقفت بها جماعات تتحين الفرص لتفعل مثلها. وقال بعضهم وهم ينظرون إليها بعد أن مرقت من وسطهم:

– إن هذه المرأة مجنونة بلا ريب!

ولما وصلت إلى ذلك الحى الراقى من المدينة كانت الساعة قد بلغت العاشرة، فوقفت بباب فندق للأسر فى شارع هادئ جميل بالقرب من هايبارك. ومكثت بضع ثوان كأنها تجمع جرأتها ثم دخلت الردهة، فقالت لها فتاة خادمة حسنة الهندام:

– ماذا تريدين هنا أيتها الشابة؟

أجابت نانسى: «أريد مقابلة سيدة تنزل هنا».

فردت الفتاة بازدراء: «سيدة؟! أية سيدة؟»

– المس مايلى. . قولى لها إن امرأة شابة ترجو أن تكلمها وحدها. قولى لها إنها إذا سمعت أول كلمة أذكرها لها فإنها ستعرف إن كانت تستمع إلىَّ أو تطردنىّ.

فقالت لها الخادمة: «ما فائدة ذلك؟ ما أحسبك تظنين أن السيدة الصغيرة تستقبل واحدة مثلك؟»

– إنى استحلفك بالله أن تبلغيها هذه الرسالة!

فنظرت الخادمة إلى نانسى نظرة ارتياب، ثم استدارت وصعدت الدرج. وبعد لحظة عادت وطلبت إلى الفتاة أن تبلغها. . وقادت نانسى إلى غرفة صغيرة بالطابق الأعلى ثم تركتها فيها وحدها:

كانت الفتاة قد ضيعت حياتها فى الطرق، ولكن بقى لها شئ من طبيعة المرأة الأولى. ولما سمعت وقع خطى خفيفة تقترب من الباب المواجه للباب الذى دخلت منه، وفكرت فى الفارق العظيم بينها وبين السيدة الصغيرة القادمة، شعرت بعبء العار الذى ترزح تحته، فانكمشت كأنها لا تكاد تحتمل رؤية الفتاة التى جاءت لرؤيتها!

وسمعت صوتا حلوا يقول: أنا التى سألت عنها. خبرينى لماذا أردت مقابلتى؟»

وتملكت نانسى الدهشة من رقة لهجتها ووداعتها وعدم ظهور أية بارقة من الكبر أو الاستياء عليها، فلم تتمالك نفسها وبكت قائلة:

– أوه يا سيدة. يا سيدة! لو كثر فى العالم أمثالك لقل فيه أمثالى!

فقالت لها روز: «اجلسى. . إذا كنت تشكين عوزا أو هما فثقى بأنى يسرنى أن أسعدك إذا استطعت!»

فقالت نانسى وهى لا تزال تبكى: «دعينى واقفة يا سيدة!. لا تكلمينى بهذه الشفقة حتى تعرفينى تماما. . إننى الفتاة التى استدرجت أوليفر الصغير وعادت به إلى فيجن فى الليلة التى خرج فيها من بيت المستر براونلو!»

فقال روز مايلى: «أنت؟!»

– أجل أنا يا سيدة! إننى المخلوقة الشنيعة التى سمعت بها، والتى تعيش بين اللصوص، والتى لم تعرف لنفسها عيشة خيرا من ذلك منذ بدأت تعى!. لا تبالى أن تشمئزى منى علانية!. فقد اعتدت ذلك. إن أفقر النساء يتراجعن اشمئزازا حين أسير على الأرصفة المزدحمة! إنى أشفق عليك وقلبى يتوجع إذ أسمع ما تقولين!

فقالت الفتاة وهى تبكى: «اركعى حمدا لله إذ إن لك أصدقاء يعنون بك وقد حفظوك فى طفولتك فلم تنشأى وسط البرد والجوع والشر كما

نشأت منذ كنت فى المهد. لقد فررت من أولئك الذين لا يترددون فى قتلى إذا علموا أنى هنا. . إنهم يعرفون أن أوليفر هنا وسيحاولون استعادته إليهم. ولذا يجب أن تحرسيه جيدا. والآن يجب أن أعود فقد تأخر بى الوقت وعلىَّ أن أرجع إلى البيت من غير أن يدرى أحد بأنى خرجت منه!»

فسألتها روز: ولماذا تعودين إلى أمثال أولئك الرفاق. ما عليك إلا أن تذكرى للبوليس ما تقولينه لى وأن تخبريه أين يسكن أولئك القوم الأشرار، وبعدئذ تبعثين إلى مكان أمين».

فقالت نانسى: «كلا. . كلا! إنى أريد أن أعود. يجب أن أرجع، لأنه. . لأنه يوجد بين أولئك القوم رجل أحبه. . وإذا قلت لغيرك ما قلته لك وكنت سببا فى القبض عليهم، فإنه بالتأكيد سيقبض عليه أيضا، ولا شئ يمكن أن ينقذه فإنه أجرؤهم.. وهو شديد القسوة! ولكنى أنجذب إليه برغم الآلام وسوء المعاملة. . وأحسبنى سأظل أحبه حتى لو علمت أنى سأموت بيده فى النهاية!»

وعندئذ قالت لها روز: «ماذا علىَّ عمله؟ . لا ينبغى لى أن أتركك تذهبين هكذا».

– بل ينبغى لك ذلك يا سيدة وستدعيننى أذهب. ولن تحولى دون ذهابى لأنى وثقت بنبلك ولم أكرهك على أى وعد كما كان فى إمكانى أن أفعل. . إنك بلا ريب تعرفين أحدا من السادة الطيبين، ويمكنك أن تسرى إليه بقصتى على أنها سر، فيساعدك على حماية أوليفر مما يراد به!

– ولكن أين ألقاك ثانية إذا بدت ضرورة لذلك؟

– أتعدينى بأنك ستكتمين سرى وبأنك ستأتين وحدك أو بصحبة الشخص الآخر الذى ستخبرينه وحده؟

فأجابت روز: «أعدك بذلك وعدا شريفا!»

– سأمشى فوق كوبرى لندن مساء كل يوم أحد من الساعة الحادية عشرة إلى أن تدق الثانية عشرة.

ومضت الفتاة مسرعة نحو الباب فقالت لها روز:

– انتظرى لحظة. . أتعودين إلى تلك العصابة من اللصوص، وإلى ذلك الرجل مع أنى أستطيع إنقاذك منهم؟ إنى أريد أن أخدمك!

فأجابت نانسى: «إن أحسن خدمة تؤدينها لى هى أن تقضى على حياتى توا. . لقد حزنت الليلة على نفسى أشد مما حزنت فى أى يوم مضى. وبودى لو لم أمت فى الجحيم الذى عشت فيه. باركك الله يا أيتها السيدة الحلوة الرقيقة، ووهبك من السعادة بقدر ما جلبت لنفسى من العار!

وخرجت الفتاة تعيسة وهى تنتحب بصوت مسموع. وغلب روز مايلى التأثر من هذا الحديث العجيب فجلست على كرسى وحاولت أن تجمع شتات أفكارها!

openkandl.com

obeikandl.com

الفصل الرابع عشر

ليلة الأحد

obeikandl.com

-١-

كانت المسز ما يلى وروز قد جاءتا إلى لندن ومعهما أوليفر بعد أن شفى من جرحه وآثاره لكى يزور المستر براونلو وقد أرقت روز ليلة كاملة ثم تناقشت مع عمتها، وعلى ذلك قررت أن تزور ذلك السيد وتسر إليه بما أخبرتها به نانسي!

ودل أوليفر حوذى العربة على بيت المستر براونلو. ولما وصلا إلى هناك أرسلت روز بطاقتها مع الخادم إلى المستر براونلو طالبة مقابلته لأمر هام. وعاد الخادم مسرعا يرجوها أن تصعد إلى الطابق الأعلى. وتركت أوليفر فى العربة بحراسة المستر جيلز ثم تبعت الخادم إلى غرفة فى الطابق الأعلى حيث قدمت إلى سيد شيخ يدل مظهره على الشفقة، وقد جلس على مقربة منه سيد أخر لا تبدو عليه دلائل الشفقة مثله. وكانت يداه مطبقتين على رأس عصا سميكة.

وقالت روز وهى تردد بصرها بين الاثنين: «المستر براونلو؟»

فرد أحدهما البادى الشفقة: «هأنذا.. وهذا صديقى المستر جريمويج... هل تسمح ياجريمويج بأن تتركنا لحظة؟»

فقالت المس ما يلي: «أعتقد أنه لا حاجة لخروج هذا السيد، فإنى أظنه يعرف الأمر الذى جئت لأكلمك فيه!»

فأومأ المستر براونلو برأسه، فى حين قام المستر جريمويج وانحنى انحناءة جافة ثم قعد فى كرسيه ثانية. واستطرت روز تقول:

– أنى سأسبب لك دهشة كبيرة بلا ريب... ولكنك فى وقت مضى أضفت عطفاً شديداً على صديق صغير عزيز لي، وأنا موقنة أنك يهمك أن

تسمع عنه ثانية. أنى أعنى أوليفر تويست!

ولم تكد تذكر هذا الاسم حتى تراجع المستر جريمويج فى كرسيه وصفر بشفتيه. أما المستر براونلو فكان لا يقل دهشة عن صديقه وقد سحب كرسيه ليكون أقرب إلى زائرته وقال لها:

– ياسيدتى الصغيرة العزيزة.. لقد جعلتنى الظروف أكون فكرة سيئة عن ذلك الطفل البائس!

وزمجر المستر جريمويج قائلا: «فكرة سيئة؟ أنى آكل رأسى إذا لم يكن ذلك الغلام رديئاً حقاً!

فقالت روز: «إنه طفل نبيل النفس، ذو قلب واع.. إن له عواطف تشرف من كانت سنة عشر أمثال سن هذا الطفل!

فاعترض المستر جريمويج قائلاً: «إن عمرى إحدى وستون سنة. ولما كان عمر أوليفر عشر سنوات فقط فأنى لا أرى معنى لملاحظتك!»

وقال لها المستر براونلو: «لا تبالى ما يقوله صديقي...إنه لا يعنى ما يقوله!» فزمجر المستر جريمويج قائلاً: «بل يعني!»

فقال المستر براونلو وقد بدأ يغضب: «أننى أكل رأسى إن كنت لا تعنيه!»

فقال المستر براونلو: «إنه يستحق أن تقطع رأسه إذا كان يعنيه!»

فرد المستر جريمويج وهو يضرب الأرض بعصاه: «وهو يود لو يرى أى أحد يحاول ذلك!»

ولما وصلا إلى هذه النقطة من الشجار، مد كل منهما يده إلى الآخر وتصافحا طبقاً لعادتهما التى لا تتبدل! .ثم قال المستر براونلو للمس ما يلي:

– الآن لنعد إلى الموضوع..خبرينى ماذا تعرفين عن ذلك الطفل المسكين؟

فذكرت له روز كل ما حدث منذ عاد أوليفر إلى بيت المستر براونلو، تاركة ما قالته لها نانسى لتسر إليه به وحده. وختمت كلامها بأن قالت إن أوليفر ظل فى الأسابيع الأخيرة وهو لا يحزنه سوى حرمانه من رؤيته صديقه السابق الذى أحسن إليه!

فصاح السيد الشيخ: »حمداً لله! إن فى هذا هناءة لي.. ولكنك لم تخبرينى أين هو الأن«

– إنه ينتظر بالعربة أمام الباب!

– أمام باب هذا البيت؟

وخرج من الغرفة مسرعاً وهبط الدرج من غير أن يقول كلمة.

ولما ذهب نهض المستر جريمويج من مقعده وصار يروح ويجئ فى الغرفة مسرعاً، نحو اثنتى عشرة مرة على الأقل. ثم وقف فجأة أمام روز وقبلها من غير أى إنذار سابق ولما بدا عليها الخوف من هذا المسلك العجيب قال لها:

– صه! لا تخافي..إنى من الكبر بحيث أصلح جداً لك...أنت فتاه حلوة. وأنا قدمت إليك. هاهما قد وصلا!

وعاد المستر براونلو وبصحبته أوليفر فاستقبلهما المستر جريمويج بحفاوة كبيرة. ثم قال المستر براونلو وهو يدق الجرس:

– هناك شخص أخر يجب أن لا ننساه!

ولما جاء الخادم قال له: «أدع المسز بدوين لتأتى إلينا تواً»

وجاءت مديرة البيت مسرعة ووقفت بالباب منتظرة ما يأمر به. فقال لها المستر براونلو:

– ماذا يامسز بدوين؟ إن بصرك يزيد كل يوم ضعفاً!

فردت المسز بدوين قائلة: «أجل ياسيدي! إن أعين الناس فى مثل سنى لا تتحسن مع الكبر!»

فقال لها المستر براونلو: «هذا ما أردت أن أقوله لك..والآن ضعى منظارك على عينيك وحاولى أن تعرفى لماذا أرسلت فى طلبك».

وأخذت السيدة العجوز تبحث فى جيوبها عن منظارها. ولكن أوليفر لم يطق صبراً فقفز إلى أحضانها. فبكت السيدة وهى تقول:

– رحمتك يارب! إنه ولدى الطاهر البرئ!

وقال أوليفر: «يامربيتى العجوز العزيزة!»

وقالت المسز بدوين :»لقد كنت على يقين من أنه سيعود! إنه يبدو بأحسن صحة. ويرتدى من الثياب ما يجعله شبيها بابن السادة من جديد! أين كنت طول هذا الوقت الطويل؟ آه: لم يتغير وجهه الحلو. كذلك له عيناه تشعان بالرقة! ولكنها لم تكونا تنمان عن الحزن هكذا ! إنى لم أنس قط عينيه ولا ابتسامته الهادئة، بل كنت أراها كل يوم!»

وبينما كانت السيدة الطيبة العجوز تتكلم هكذا، قاد المستر براونلو روز إلى غرفة أخرى وسمع منها بيانا وافيا عن مقابلتها لنانسي. ولما أتمت ما لديها قال:

– يبدو لى أن أوليفر لن يكون آمنا حقا حتى يقبض على فيجن.. من الواضح أنه زعيم العصابة. ولكن لا ينبغى لنا أن نعرض حياة تلك الفتاة البائسة للخطر.سآتى معك ليلة الأحد القادمة وأحاول أن أقنعها بأن تدلنا على مكان ذلك الرجل. وسأعرض عليها أن أحميها إذا وافقت. وفى خلال ذلك لا تدعى أوليفر يخرج وحده أبدا، ولنكتم عنه هذه المسائل!

-٢-

كانت الليلة ليلة الأحد وقد دقت ساعة أقرب كنيسة. وكان سيكس وفيجن يتحدثان ولكنهما كفا عن الحديث وأصغيا. وتنبهت نانسى أيضا وأصغت. وكانت الساعة الحادية عشرة.

وقال سيكس: »بقيت ساعة على منتصف الليل. إنها ليلة مظلمة ثقيلة الجو...تصلح للعمل!« فقال فيجن : »آه. وا أسفاه يابيل! ليس هناك عمل يؤدي!«

وقال سيكس: »أصبت هذه المرة.إنه أمر يدعو إلى الأسف، لأنى أشعر الليلة بالرغبة فى العمل!«

فربت فيجن على كتف اللص وقال له : »أحسنت الكلام ياعزيزي! يسرنى أن تتكلم هكذا«.

فأزاح سيكس يد فيجن عن كتفه وقال: »وأنا لا يسرنى أن تضع مخلبك القديم على كتفي. ولذا أبعد يدك عني!«

– إنها تثير أعصابك يابيل، لأنها تذكرك بقبض البوليس عليك... أليس كذلك؟

فأجاب سيكس: »تذكرنى بقبض الشيطان علىّ! لم يوجد قط فى العالم رجل له مثل وجهك إلا إذا كان أباك، وأحسبه يحترق الآن فى جهنم!«

فلم يجب فيجن ولكنه جذب كم سيكس وأشار بأصبعه إلى نانسي!

فصاح بها سيكس: »هالو! .إلى أين تذهبين فى هذه الساعة من الليل؟

– غير بعيد.

– ما هذا الجواب؟ إلى أين أنت ذاهبة؟

– قلت لك غير بعيد!

– وأنا أسألك إلى أين؟ أسامعة أنت؟

– لا أدرى إلى أين!

فقال سيكس: «ولكنى أنا أدري. أنت ذاهبة إلى غير مكان.. هيا اجلسي!»

فقالت الفتاه: «إننى لست بصحة جيدة وقد سبق أن قلت لك ذلك...أريد أن أشم الهواء».

– إذن أطلى برأسك من النافذة!

– هذا لا يكفي..أريد أن أشم الهواء فى الشارع!

فقام سيكس وأوصد الباب وقال: «إذن..لن تجدى هواء!

وجذب قبعتها من فوق رأسها ورماها فوق خزانه قديمة وقال : «الآن اكمنى بهدوء حيث أنت. أتسمعين؟»

فقالت له نانسى : «إنك تدفعنى إلى فعل شئ مما يوحى به اليأس! دعنى أذهب توا !

فقال سيكس : «لا !

– قل له يا فيجن يدعنى أذهب...هذا خير له. أسامع أنت؟

فقال لها: «أسامع أنا؟!.أجل إنى إذا سمعتك نصف دقيقة أخرى فإن الكلب سينقض على عنقك ويسكت هذا الصوت الذى ينبعث منه الصراخ!»

فركعت الفتاة على الأرض قائلة: «دعنى أذهب يابيل.. دعنى أذهب مدة ساعة واحدة فقط!».

فصاح بها سيكس وهو يمسك ذراعيها بعنف: «هل جننت؟.قومي!»

فصاحت قائلة :»لن أقوم حتى تدعنى أذهب.أبداً!»

وعندئذ جذبها اللص حتى أوقفها على قدميها ثم دفعها إلى كرسى وأجلسها فيه بالقوة، وجعلت تجاهد حيناً وتتوسل حيناً آخر حتى دقت الساعة الثانية عشرة. وعندئذ سكتت فقال سيكس، وهو يمسح العرق الذى على وجهه: «ما أعجبها من فتاة!»

فقال فيجن وقد بان التأمل على ملامحه: «يمكنك أن تقول ذلك يا بيل!»

فقال سيكس: «كنت أظن أنى روضتها ولكنها بقيت سيئة الطباع كما كانت».

وقال اليهودي: «بل شر مما كانت! أنى لم أرها قط تثور هكذا لسبب تافه!» وقال سيكس: «ولا أنا! أحسبها لا يزال بدمائها مس من تلك الحمى ولا يريد أن يغادرها!»

– ربما!

– لقد لزمتنى ليل نهار حين كنت ممداً على ظهرى وابتعدت أنت، كذئب أسود القلب. وكنا وقتئذ فى فقر مدقع وأحسب أن ذلك قد أزعجها، وأن بقاءها طول ذلك الوقت فى البيت قد جعلها قلقة..أليس كذلك؟

فقال فيجن: «هذا هو الواقع ياعزيزي»

-٣-

طرقت ذهن فيجن أفكار سوداء وهو عائد إلى بيته. إن تغير أحوال نانسى فى الأيام القليلة الماضية، وإصرارها على الخروج تلك الليلة فى ساعة معينة، قد أوحيا إليه أن الفتاة قد وجدت لنفسها صديقا جديداً بعد أن ملت صحبة اللص القاسى القلب! وهذا الصديق الجديد ليس من أتباع فيجن بلا ريب. ولكنه يمكن أن يكون ذا عون كبير له، ولدا تجب معرفته بلا إبطاء!

وكان هناك غرض آخر يسعى إليه..ذلك أن سيكس يعرف أكثر مما يجب، وإهاناته كانت تؤلم فيجن وإن خفيت الجروح التى تحدثها فى نفسه، بل هى لذلك أشد إيلاما. فيجب أن تعلم الفتاة حق العلم أنها إذا هجرت سيكس فلن تأمن شره أبداً!

وقال فيجن يحدث نفسه :»إن بعض التحريض جدير بأن يجعلها تسمعه. إن النساء قد فعلن ذلك وما هو شر منه من قبل. وعندئذ أخلص من سيكس البغيض إلىَّ، وأكسب رجلاً آخر فى مكانه. وتصبح الفتاة طوع أمرى وفى قبضة يدى لعلمى بالجريمة التى ارتكبتها».

وقبل أن يصل إلى بيته كان قد وضع خطته...أنه سيسلط على نانسى من يراقبها ويكتشف صديقها الجديد. ثم يهددها بأن يفشى سرها إلى سيكس إلا إذا فعلت ما يريده هو منها. وقال يحدث نفسه بصوت يكاد يكونا مرتفعا: «إنها لن تجرؤ على الرفض! إبقاء على حياتها! إنها شديدة الخوف من سيكس».

obeikandl.com

الفصل الخامس عشر

على كوبرى لندن

obeikandl.com

-١-

فـى صبـاح اليـوم التـالى اسـتغرق فيجـن فـى أفـكاره الشـريرة. وفجـأة اندفـع تشـارلى بيتـس إلى الغرفـة وصـاح قائـلا:

– لقد قبضوا على المراوغ...قبضوا عليه وهو ينشل ساعة فضية!

فصـاح فيجـن قائـلا :» آه! إنـه يسـاوى خمسـين سـاعة، وأنـا مسـتعد لأن أدفـع ثمـن هـذا العـدد مـن السـاعات لكـى أسـتعيده إلىَّ. إن معنـى هـذا النفـى مـدى الحيـاة فأنهـم يعرفـون مـدى براعتـه».

فقـال بيتـس بحـزن: «تصـور أن جـاك دوكنـز، المـراوغ، المـراوغ الداهيـة ينفـى إلى الخـارج بسـبب سـاعة جيـب فضـى عادية! لماذا لم يسـلب أحد السـادة الشـيوخ الأغنيـاء كل مـا لديـه مـن أشـياء قيمـة ثـم ينفـى كمـا ينفـى سـيد؟!»

فقـال اليهـودى وقد سـره عظـم تقدير تلميـذه لمهنته: «لا بأس ياتشـارلي.. سـوف يريهـم أنـه شـخص بـارع، ولـن يشـين أصدقـاءه القدمـاء وأسـتاذه! وتذكـر أيضـاً صغـر سـنه! أى فخـر سـيناله بـأن ينفـى فـى مثـل هذه السـن ياتشـارلي!»

فقال بيتس وقد لقى شيئاً من العزاء: «أجل. هذا صحيح!»

واسـتطرد فيجـن قائـلا :»يجـب أن نعـرف كيـف يسـلك اليـوم! اذهـب إلى المحكمـة ياتشـارلي.. وليـس ثمـة مـا تخشـاه!»

فسـأله بيتـس: «ومـاذا عـن أوليفـر؟ لقـد راقبـت ذلـك الفنـدق مـدة أسـبوع وهـو لا يـترك وحـده أبـداً. يبـدو أننـا لـن نسـتطيع اسـتعادته يافيجـن!»

فأجاب فيجن :»سوف تحين الفرصة لذلك. سأكلف أحدا غيرك بمراقبة الغلام. أما أنت ياتشارلى فأمامك عمل أهم. فاذهب إلى المحكمة وجئنى بأنباء المراوغ، وبعد ذلك أريد منك أن تتبع نانسى حيث تذهب. إن لها صديقاً آخر ياتشارلى ويجب أن أعرف من هو!»

obeikandl.com

-٢-

جلس جاك دوكنز فى قفص المتهمين وكما سترته مقلوبان إلى فوق كالمعتادة. وسأل بصوت مرتفع :»لماذا أوضع فى ذلك الموقف المهين؟»

فقال له الشرطى الواقف إلى جوار قفص المتهمين: «أمسك عليك لسانك!»

فاعترض المراوغ قائلا :»ستنال حقوقك قريباً وعليها فلفل!»

فقال المراوغ :»سأرى ما يقوله وزير الداخلية عن ذلك. والآن سأشكر للقضاة عدم حجزهم إياى بينما يقرأون الصحف...إن أمامى موعداً مع أحد السادة فى المدينة. ولما كنت رجلاً يحفظ كلمته ويحافظ على مواعيده فى شؤون العمل، فإنه سيذهب إذا لم أوافه فى الوقت المحدد!»

وهنا ضحك الجمهور الذى بقاعه المحكمة، فصاح بهم الشرطى أن يسكنوا. وقال أحد القضاة: «ما هذا ؟»

–قضية نشل ياصاحب السيادة!

–أين الشهود؟

وعندئذ قال المراوغ: «صدقت!أين هم؟ إنى أود أن أراهم!»

وقد تحققت رغبته تواً...إذ تقدم شرطى كان قد رأى المتهم ينشل منديلا من جيب أحد السادة وسط الزحام ، ولما وجده منديلا قديما أعاده إلى موضعه بعد أن مسح به وجهه. ثم نشل من جيب آخر ساعة جيب فضية عليها اسم صاحبها محفورا على غلافها الخلفي. وفى هذه اللحظة قبض عليه ذلك الشرطي. ثم تلاه سيد كان الشاهد الثانى وأقسم أن الساعة كانت له، وإنها سرقت منه فى اليوم السابق، وقال إنه لمح غلاماً وسط

الزحـام كان يشـق طريقـه ليهـرب، وإنـه هـو المتهـم!

وعندئذ سأل القاضى دوكنز: «هل عندك سؤال توجهه للشاهد؟»»

فرد المراوغ بكبرياء: «أنا لا أحقر نفسى بالتحدث معه!»

وضجـت القاعـة بالضحـك مـرة أخـرى، وعـاد القاضـى فنبـه الجمهـور إلى ضـرورة الصمـت.

ثم قال للمتهم: «هل لديك أى شئ تقوله؟»

فأجـاب المـراوغ: «ليـس هنـا!. إن هـذه ليسـت سـوى محكمـة بوليـس. وأنـا أحتفـظ بأقـوالى لأدلى بهـا عنـد نظـر القضيـة. وفضـلا عـن ذلـك فـإن محامـى يتنـاول فطـوره صبـاح اليـوم مـع رئيـس مجلـس العمـوم.. ولكـن لـدى مـا سـوف أقولـه فـى مـكان آخـر، وكذلـك سـيقول المحامـى مـا لديـه، وسـيتكلم أصدقائـى أيضـا. إن هـؤلاء القضـاة سـوف يتمنـون لـو لم يولـدوا قـط. إنـني...»

وعندئذ قال القاضي: «خذوه إلى السجن.. سيقدم للمحاكمة!»

فقال له الشرطى :»تعال معي!»

– سأذهب معك!

والتفت إلى القضـاة وقـال لهـم: «لا فائـدة مـن أن تظهـروا هكـذا خائفين ! إنـى لـن أرحمكـم! وسـوف تكفـرون عـن هـذا أيهـا الرفـاق الشـجعان اللطاف! لأننـى لا أرضـى أن يفـرج عنـى الآن ولـو ركعتـم علـى ركبكـم وتوسـلتم إلىَّ! والآن هيـا احملنـى إلى السـجن! اذهـب بـى بعيـداً عـن هنـا!»

وبهذه الكلمات الأخيرة، سمح المراوغ للشرطى أن يسحبه من خناقه، منذراً بأن يشكو إلى البرلمان.. ولما صار خارج المحكمة ابتسم للشرطى مسروراً من مسلكه!

وقد شهد تشارلى بيتس كل ذلك باهتمام، ثم أسرع عائداً إلى فيجن، يحمل إليـه نبـأ سـاراً، بـأن المـراوغ قد شـرف مربيه وأنه سـيكوِّن لنفسـه شـهرة ومجداً!

-٣-

حلت ليلة الأحد التالية. ولما دقت ساعة الكنيسة الحادية عشرة وثلاثة أرباع الساعة كان شبحان يسيران على كوبرى لندن، أحدهما شبح امرأة تتلفت حولها باهتمام كأنها تبحث عن أحد، والشبح الثانى لغلام يدب متخفياً فى أشد الظلال عتمة، على مسافة من تلك المرأة، ولما وصلت هذه إلى منتصف الكوبرى تقريباً وقفت عن السير، فوقف الغلام أيضاً، ومال على حاجز الكوبرى كى يزيد اختباء.

وكانت الليلة حالكة الظلام، وقد تعلق الضباب فوق النهر، وكان ملؤه من السواد بحيث لا تعكس صفحته أشكال المتاجر القديمة الملوثة بالدخان والقائمة على الضفتين. وكانت الفتاة قد خطت بضع خطوات رواحا وجيئة، وإذا بساعة كنيسة سانت بول قد دقت معلنة موت يوم وميلاد آخر. أجل فقد أرخى منتصف الليل وشاحه!

ولم تنقض دقيقتان حتى نزلت سيدة شابة وسيد أشيب الشعر من عربة وقفت بهما عند طرف الكوبري. ثم صرفا العربة ومضيا ببطء فوق الكوبري. ولم يكادا يخطوان خطوة حتى رأتهما الفتاة التى كانت تنتظر، وأسرعت نحوهما. وقالت لهما نانسي:

– ليس هنا..أنى أخشى أن أكلمكما هنا. اهبطا معى تلك الدرج التى هناك!

وأشارت إلى درج عند نهاية الكوبري، تؤدى إلى مرسى على النهر. فتبعها السيد الشيخ وصاحبته إلى هناك وهبطا عدة درجات. وأسرع الغلام وراءهم من غير أن يروه، والتصق بالحائط الذى فى أعلى السلم لعله يسمع ما يقال!

وقال السيد الشيخ: «هنا مكان بعيد للدرجة الكافية ولن أدع السيدة

الشابة تذهب إلى أبعد من هذا. لماذا لم تدعيني أكلمك فوق بدل أن تأتى بنا إلى هذا المكان؟ «

فأجابت نانسى قائلة: «لقد قلت لك من قبل إنى خائفة..ولست أدرى مادهانى ولكنى الليلة قد تولانى رعب لا أكاد أقدر معه على الوقوف على قدمي!»

فسألها السيد الشيخ بشكل يدل على الشفقة: «مم تخافين؟»

– لا أكاد أدرى ماذا يخيفني. وبودى لو دريت. لقد راودتنى طول يومى أفكار مخيفة عن الموت والدم. والليلة حين كنت أسير فى الطريق مر بجانبى أناس يحملون تابوتا! فقال لها السيد: «ليس فى هذا شئ غير عادي..كثيراً مامرت توابيت موتى بجانبي!»

فأجابت الفتاة وهى ترتعد: «توابيت حقيقية..أما ذاك فلم يكن كذلك!»

وهنا قالت السيدة الشابة لرفيقها: «كلمها بعطف يا مستر براونلو.. يا للمخلوقة البائسة! يبدو أنها فى حاجة إلى العطف!»

وهنا صاحت الفتاة: «آه يا مس ما يلي! لماذا لا يبدى كل الناس مثل ما تبدينه من الرقة والشفقة لأمثالنا الأشقياء البائسين؟»

وقال لها المستر براونلو بعد سكوت لحظة: «لماذا لم تأتى إلى هنا ليلة الأحد الماضية؟!»

فأجابت نانسى قائلة: «لم أقدر أن أحضر...لقد أبقيت بالبيت عنوة!»

– ومن الذى أبقاك؟

– ذلك الذى حدثت السيدة الشابة عنه من قبل!

– هل يرتاب فيك؟

– كلا. لا أحد منهم يرتاب فيَّ!

فقال السيد: «حسناً! والآن أصغى إلى. لقد ذكرت لى هذه السيدة الشابة قصتك وقد ساءلت نفسى فى البداية عما إذا كنت جديرة بالثقة، ولكنى أعتقد اعتقاداً جازماً بذلك..إن أوليفر لا يمكن أن يكون فى أمان مادام ذلك اليهودى حراً. يجب أن تسلميه لنا!

– لن أفعل ذلك. لن أفعل ذلك أبداً. إنه وإن يكن الشيطان نفسه فإنى مع هذا لن أسلمه!

– خبرينى لماذا؟

فأجابت نانسي: «إن هذه السيدة الشابة تعرف السبب!. إذا قبض على فيجن، فإن سيكس يقبض عليه أيضاً، وأنا مغرمة به!»

فقال لها المستر براونلو: «أخبرينا أين يسكن فيجن، وسأبذل ما بوسعى لإنقاذ سيكس وسأعطيك مالا لتقصدى إلى أى بلد أجنبي. أنت وذلك الرجل يمكنكما الفرار. وأقسم لك أننا لن نبذل أيه محاولة لتقديمه للمحاكمة. نحن إنما نريد فيجن!»

وتلت ذلك فترة صمت طويلة. وأخيراً قالت الفتاة: «لقد كنت كذابة وعشت بين كذابين طول حياتي. ولكنى أثق بوعدك!»

وبصوت منخفض وصفت المكان الذى يسكنه اليهودي، على حين كتب المستر براونلو بعض مذكرات سريعة عن المعلومات التى أدلت بها. ولما أتمت كلامها أعطاها كيساً من النقود الذهبية، فقالت له:

– أنى لم أفعل ذلك من أجل المال وإن كنت آخذه. لقد فعلته من أجل أوليفر، ومن أجلك أنت أيتها السيدة الحلوة. باركك الله..مساء الخير...

وصعدت المس ما يلى وصاحبها الدرج. ولم يكن هناك أحد يرى. فإن الغلام كان قد اختفى. وفى تلك اللحظة كان يجرى بأسرع ما تستطيع قدماه، قاصداً إلى بيت فيجن!

الفصل السادس عشر

عواقب وخيمة

obeikandl.com

-١-

بقيت ساعتان أو نحوهما على بزوغ الفجر، وكان فيجن جاساً ينتظر فى غرفته وقد شحب وجهه واحمرت عيناه كالدم، حتى صار شكله أقرب إلى شبح مخيف قام من القبر منه إلى الإنسان!

وكان منكفئا على الموقد الخالية من النار، ملتفاً ببطانية قديمة ممزقة. وقد وجه بصره نحو شمعة فوق مائدة إلى جانبه، ورفع يده اليمنى إلى شفتيه، واستغرق فى الفكر حتى صار يقضم أظافره الطويلة السوداء فبدت على لثته التى نزعت أسنانها بعض أنياب قليلة كأنه أنياب كلب أو فأر!

وجلس دون حراك وكأنه لا يشعر بمضى الزمن حتى طرق أذنيه وقع خطوات فى الشارع فقال يحدث نفسه وهو يمسح فمه الجاف المحموم: "أخيراً. أخيراً !"

وإذ قال ذلك دق الجرس برفق فدب إلى الباب وفتحه، وعاد توا وبصحبته بيل سيكس، وكان هذا يحمل ربطة تحت ذراعه. وقال اللص وهو يضع الرابطة على المائدة:

– هاهى ذى! احرص عليها واستبدل بها أكبر قدر من المال تستطيع أن تصل إليه لقد كلفنى الحصول عليها تعباً كبيراً. وكنت أحسب أنى أقدر أن آتى إلى هنا قبل ثلاث ساعات!

فوضع فيجن يده على الربطة ثم حملها إلى الخزانة وأوصدها عليها، ثم جلس ثانية دون أن يتكلم. ولكنه لم يحول بصره لحظة عن اللص بل جعل يتفرس فيه وقد تغيرت سحنته بفعل الشعور الذى تملكه حتى لم يسع سيكس إلا أن تراجع بكرسيه إلى الوراء من الخوف. وصاح به قائلا:

– ماذا دهاك؟ لماذا تنظر إلىَّ هكذا؟

فرفع فيجن يده اليمنى وهز سبابته المرتعشة، فى الهواء. ولكن غلبه التأثر لدرجة أنه مكث لحظة لا يقدر على الكلام!

فتحسس سيكس مسدساً فى عبه وقال له:

– هل جننت؟

فأجاب فيجن وقد استعاد النطق:

– كلا. كلا. إنك لست الشخص الذى أثار غضبي. بل إنى لا أجد فيك ما يكدرنى منك... إن لدى شيئاً سأقوله لك يابيل!

فقال له اللص: "إذن قله بلا إبطاء. ولا تظهر بهذه السحنة وإلا ظننت نانسى أننى ضعت!"

فصاح به فيجن: "ضعت؟! لقد رتبت هى ذلك فى ذهنها!"

فنظر سيكس إلى وجه محدثه حائراً، ولما لم ير فى ملامحه تفسيرا لكلامه أمسكه من خناقه وهزه بعنف وصاح به قائلاً: "تكلم وإلا كتمت أنفاسك!. افتح فمك وقل ما لديك بعبارة مفهومة!. انطق أيها الكلب العجوز، انطق!"

فشرع فيجن يقول: "افرض أن ذلك الغلام الراقد هناك!"

فالتفت سيكس إلى حيث كان بيتس نائماً، وكان لم يره حين جاء. ثم واجه فيجن فقال هذا:

– افرض أن هذا الغلام قد خاننا ووشى بنا بأن وصف المكان الذى يسهل فيه القبض علينا. أسامع أنت؟

وكانت عيناه يتطاير منها شرر الغضب وهو يقول ذلك. ثم استطرد يقول:

– افرض أنه فعل كل ذلك، فماذا إذن؟

فأجاب سيكس قائلا : "ماذا إذن؟! إذا كان قد بقى على قيد الحياة حتى أتيت إنى أسحق جمجمته تحت الكعب الحديدى بحذائى حتى تصير حبوباً بعدد شعر رأسه!"

فصاح فيجن: :وماذا لو فعلت أنا ذلك، أنا الذى أعرف الكثير ويمكننى أن أبعث كثيرين إلى المشنقة فضلاً عن نفسي؟"

– عندئذ أرتكب أية جريمة كى يزج بى فى السجن وتوضع الأغلال فى يدي. فإذا حوكمت معك فإنى أنقض عليك فى المحكمة وأحطم رأسك بتلك الأغلال. وعندئذ يواتينى من القوة ما أسحق به رأسك وكأن عربة محملة قد مرت عليه!

– أكنت تفعل ذلك؟

– بالتأكيد. هيا جرب!

– وإذا كان الذى خاننا هو المراوغ؟

فرد سيكس وقد نفد صبره: "لا يهمنى من يكون. إن أى شخص يفعل بنا ذلك، سأنتقم منه بهذا الشكل!

فنظر فيجن إلى اللص نظرة جامدة، ثم انحنى على الفراش فوق الأرض وأيقظ النائم قائلاً له:

– ياتشارلي! ياتشارلي! ياللغلام المسكين! لقد تعب من المراقبة. من مراقبتها طول هذه المدة، من مراقبتها يابيل!

– من تعني؟

فلم يجب فيجن وإنما انحنى فوق النائم مرة أخرى وجذبه لكى يجلس. ولما نادى تشارلى عدة مرات مسح هذا عينيه وتثاءب بقوة ونظر حوله والنوم يغالبه. فقال له وهو يشير إلى سيكس:

– قل لى مرة أخرى ماذا حدث لكى يسمع!

فسأله بيتس وهو يغالب النوم: "ماذا أقول لك؟"

– عما كان من نانسي!

وأمسك بمعصم سيكس كأنما يريد منعه من مغادرة البيت حتى يسمع النبأ إلى نهايته. واستطرد يقول لبيتس:

– لقد تبعتها؟

– أجل!

– إلى كوبرى لندن؟

– أجل!

– حيث قابلت شخصين؟

– نعم قابلتهما!

– سيد وسيدة كانت قد قابلتهما من قبل، وقد طلبا إليها أن تتخلى عن أصدقائها فقبلت. وطلبا إليها أن تصف لهما أين يقيمون، فعلت كل ذلك وذكرت لهما كل شئ. أليس كذلك؟

فقال تشارلي: لا "هذا صحيح!"

– وماذا قالا عن يوم الأحد الماضي؟

– لقد سألاها لماذا لم تأت كما وعدت. فقالت إنها لم تستطع!

– لماذا؟ لماذا؟ قل له ذلك!

– لأن بيل أبقاها عنوة فى البيت!

obeikandl.com

وهنا جذب سيكس معصمه بعنف من يد فيجن وقال له: "دعني أذهب!" وأزاحه عنه واندفع نحو السلم فصاح به فيجن وهو يتبعه مسرعاً:

– يابيل. يابيل. كلمة. كلمة واحدة!

وما كان ليستمع إلى هذه الكلمة لولا أنه لم يستطع فتح الباب، وكان يحاول فتحه بعنف وإذا بفيجن قد أدركه وهو يلهث. فقال له سيكس:

– دعني أخرج! لا تكلمني وإلا كان هذا خطراً عليك. قلت لك: دعني أخرج! فقال له فيجن وهو يضع يده على قفل الباب:

– اسمع منى كلمة واحدة..إنك لن تكون...

– ماذا؟

– لن تكون أعنف مما ينبغي؟ أليس كذلك؟

وكان الفجر قد لاح وبدا من الضوء ما يمكن كلا منهما من أن يرى وجه الآخر.

فتبادلا نظرة واحدة قصيرة، وكان بعيني كل منهما شرر يتقد. ثم قال فيجن:

– إني أعني ألا تكون أعنف مما ينبغي لنانسي.. أعمد إلى المكر يابيل ولا تتهور!

فلم يجب سيكس، وإنما فتح الباب بعد أن أدار فيجن المفتاح في قفله وهرع إلى الطرق الصامتة!

-٢-

دخل اللص غرفته وأوصد الباب ووضع مائدة ثقيلة وراءه. وكانت نانسى راقدة على السرير وقد خلعت نصف ثيابها، فأيقظها سيكس من نومها وجلست تنظر إليه فى فزع. وصاح بها قائلا: "قومي!"

فقالت له الفتاة مسرورة بعودته: "أهذا أنت يابيل؟"

وكانت هناك شمعة مشتعلة ولكن اللص نزعها من الشمعدان ورماها فى الموقد، ورأت نانسى نور النهار الضعيف فى الخارج فقامت لتزيح الستار. فقال لها سيكس:

– دعيه...هاهنا ضوء يكفى لما أريد عمله!

فقالت له الفتاة بصوت منخفض من الخوف:

– يابيل.. لماذا تنظر إلىَّ هكذا؟

فوقف اللص لحظة وقد انفرجت خياشيمه وأخذ صدره يعلو وينخفض. ثم أمسكها من رأسها وعنقها وسحبها إلى وسط الغرفة. فصاحت الفتاه وهى تجاهد بقوة الخوف الرهيب:

– كلمني! قل لى ماذا فعلت!

فأجابها اللص: "أنت تعرفين! أنت أيتها الشيطانة! لقد كنت مراقبة الليلة. وقد سمعت كل كلمة قلتها!"

فقالت له وقد لفت ذراعيها حول عنقه:

– إذن..أبق على حياتى كما أبقيت على حياتك. يابيل. ياعزيزى بيل! لا يمكن أن يطاوعك قلبك على قتلي. أوه! تذكر كل ما فعلته لك! يجب أن تتدبر الأمر وتوفر على نفسك هذه الجريمة! إنى لن أزيح ذراعى عنك. إنك لا يمكنك أن تقذف بى بعيداً. يابيل يابيل! بالله عليك...لأجل صالحك...ولصالحي...قف قبل أن تسفك دمي!

لقد أخلصت لك...أقسم بحياتى أنى كنت وفية لك!

وجاهد اللص لكى يخلص نفسه من ذراعيها، ولكنهما كانت قد أطبقتا عليه فلم يستطع فكاكا منهما. وصاحت به وهى تحاول أن تضع رأسها على صدره:

– يابيل..إن ذلك السيد وتلك السيدة العزيزة، قد حدثانى الليلة عن بيت يأوينا فى بلد أجنبي. وقد أعطيانى مالا. فهيا بنا نهجر هذا المكان الشنيع ونعش عيشة خيراً بما نحن فيه، بعيداً عن هنا. إن الندم لا تفوت فرصه أبداً!

فحرر اللص إحدى ذراعيه من قبضتها وأمسك مسدسه. وأدرك برغم ما هو فيه من حنق أنه لو أطلق عليها الرصاص لفضح نفسه تواً. ولذا ضرب به وجهها الذى رفعته نحوه حتى كاد يلمس وجهه، ضربتين متواليتين بأقصى قوته. فسقطت على الأرض وقد كاد يعميها الدم الذى تدفق من جرح عميق فى جبينها. ولكنها لم تلبث حتى نهضت بصعوبة على ركبتيها ولفظت دعاء لله بأن يرحمها!

وكان منظرها فظيعاً فتراجع القاتل إلى الحائط، وأمسك هراوة ثقيلة، ووضع يده أمام عينيه كيلا يرى، ثم راح يهوى عليها بها حتى تركها جثة هامدة!

الفصل السابع عشر

الفرار!

obeikandl.com

-١-

أشرقت الشمس الساطعة التى لا تأتى للإنسان بالضوء وحده بل كذلك بحياة جديدة وأمل جديد..أشرقت على المدينة الزاخرة، بكل مجدها الساطع المبين. وقد أضاءت كذلك تلك الغرفة التى انطرحت بها جثة المرأة القتيل. واغتسل القاتل ومسح ثيابه، وكانت بها بقع لم يستطع إزالتها، فعمد إلى قطع الأجزاء التى ظهرت بها ثم حرقها. وكانت الأرض مغطاة بالبقع كذلك. حتى أقدام الكلب تلوثت بالدم!

ولم يجرؤ قط على مواجهة الجثة، حتى إذا استعد للفرار مشى بظهره نحو الباب، وجذب الكلب معه كيلا يلوث أرجله بالدم من جديد وبذا يحمل إلى الطريق دليلاً جديداً على الجريمة التى ارتكبت. وأغلق الباب وراءه برفق ثم أوصد قفله وأخذ معه المفتاح وغادر الدار. وبعد أن عبر الشارع نظر إلى النافذة ليستوثق من أن شيئاً بالغرفة لا يرى من الخارج. وكان الستار لايزال مسدلا عليه، وهو الذى أرادت القتيل أن ترفعه ليدخل الضوء الذى قدر لها ألا تراه قط. لقد كانت جثتها مطروحة تحت ذلك الستار تقريباً. رباه! كيف تدفق ضوء الشمس على تلك البقعة بالذات من أرض الغرفة!

وصفر للكلب ثم مشى مسرعاً حتى وصل إلى الحقول والطرق الزراعية فى خارج لندن، ثم رقد تحت سياج من نباتات ونام. وسرعان ما استيقظ فاستأنف المسير، لا إلى الريف ولكن عائداً نحو المدينة. ثم حاد عن الطريق المؤدى إليها. ومشى أميالا عديدة وهو لا يعرف لنفسه غرضاً ولا يدرى أين يذهب. وحان وقت الضحى، ثم وقت الظهر.. ثم أذنت الشمس بالغروب وهو مع ذلك ماض إلى غير وجهه، يروح ويغدو، ويصعد ثم يهبط، ويمشى فى دائرة. وأخيراً أزمع أمره فسار نحو الشمال!

وكانت الساعة التاسعة مساء حين دخل قرية هادئة وقد أضناه المشي، وصار كلبه أعرج من هذا التمرين المجهد الذى لم يعتده. ومضى هو وكلبه متعبين فى شارع القرية الصغير حتى وصلا إلى حانة هناك. وكانت ثمة نار فى القاعة وقد جلس بعض العمال الزراعيين يحتسون الخمر أمامها. وأفسحوا مكانا للغريب القادم ولكنه جلس فى أقصى ركن هناك، وأكل وشرب وحده وهو يرمى قطعة طعام للكلب بين حين وآخر!

وبعد أن دفع الحساب مكث قابعاً فى مكانه حتى كاد يغلبه النوم لولا أن نبهه صوت أحد دخل الحانة. وكان القادم بائعاً جوالا يطوف الريف ليبيع شفرات الحلاقة والصابون و الطلاء ودواء للكلاب والجياد وروائح رخيصة وسلعا أخرى من هذا القبيل كان يحملها كلها فى صندوق على ظهره. وتناول هذا البائع عشاءه ثم فتح صندوقه المملوء بتلك الكنوز...لعله يجد مشترين من رواد الحانة!

وسأله أحد الريفيين وهو يشير إلى بعض الكعك فى ركن من الصندوق:

–ما هذا؟ أهو شئ يؤكل ياهاري؟

فأجاب البائع وهو يعرض واحدة منها:

–هذا تركيب لا يخيب أبداً لإزالة جميع أنواع البقع، سواء أكانت بقع نبيذ أم فاكهة أم جعة أم ماء أم أى بقع أخرى!.أنها كلها تزول بمسحة واحدة من هذا التركيب العجيب القوى الذى لا يقدر بقيمة! ومع ذلك لا يزيد ثمن القطعة المربعة منه على بنس واحد!

وبادر اثنان من الحاضرين فاشتريا من هذا التركيب، وبدا على غيرهم التردد. فتشجع البائع واستأنف الكلام قائلا:

– إن هذا الدواء ينفد كله بمجرد الإنتهاء من صنعه...هناك أربع عشرة طاحونة مائية وست آلات بخارية تشتغل كلها فى إعداد هذا التركيب... ولكنها لا تقدر أن تلبى كل الطلبات فى حينها، مع أن العمال يجهدون أنفسهم فى العمل إلى حد أنهم يموتون فتدفع المعاشات لأراملهم! بنس واحد للمربع! يزيل بقع النبيذ وبقع الفواكه وبقع الجعة وبقع الماء وبقع الطلاء وبقع الوحل، وبقع الدم! هناك بقعة على قبعة أحد السادة الموجودين هنا وسأزيلها قبل أن يجد وقتاً لأن يطلب لى كأس جعة!

وهنا صاح به سيكس فزعا: "ها! أعدها إلىَّ".

فأجاب البائع: "سأنظفها لك يا سيدى قبل أن تعبر هذه القاعة لتأخذها منى!. انظروا أيها السادة جميعا! أنظروا إلى هذه البقعة الداكنة التى على هذه البقعة! إنها مهما تكن، وسواء أكانت بقعة نبيذ أو بقعة فاكهة أو بقعة جعة أو بقعة ماء أو بقعة طلاء أو بقعة وحل أو بقعة دم..." ولم يقدر الرجل أن يزيد، لأن سيكس قام صاخباً وقلب المائدة ونزع قبعته من يده وخرج مسرعاً من الحانة!

-٢-

لما سار سيكس فى طريق القرية الرئيسي، رأى عربة البريد القادمة من لندن واقفة أمام مكتب البريد وقد عرفها لأول وهلة وكاد يتوقع ماهنالك، ولكنه وقف يستمع، وخرج وكيل مكتب البريد ومعه كيس المراسلات وسلمه إلى الحارس وسأله:

– هل من جديد فى المدينة؟

فأجاب الحارس قائلا: "كلا! ليس هنا ما يستحق الذكر...لقد ارتفع سعر الحنطة قليلا. وسمعت الناس أيضاً يتحدثون عن جريمة قتل!"

وهنا قال سيد كان بداخل العربة وكان يطل برأسه من نافذتها:

– هذا صحيح..وهى جريمة قتل شنيعة!

فقال له الحارس: "صحيح يا سيدي! أكان القتيل رجلا أم امرأة؟"

فأجاب السيد: "امرأة..ويقال إن القاتل قد فر إلى برمنجهام، ولكنهم سيقبضون عليه. وغداً ينشر إعلان عنه فى طول البلاد وعرضها!"

فلم ينتظر سيكس ليسمع أكثر من ذلك. ولكنه لما خلف القرية وراءه وأحاطت به ظلمة الطريق شعر بخوف شديد ينتابه، وتهيأ له أن كل شئ أمامه، سواء أكان ساكناً أم متحركاً، يتخذ شكلاً رهيباً. غير أن هذه المخاوف لم تكن شيئاً يذكر بجانب شعوره بأن جثمان المرأة التى قتلها يتعقبه!. لقد كان يتبين ظله وسط الظلام ويراه يمضى وراءه فى سكون، ويطرق أذنيه مع الريح آخر صيحة خافتة لفظتها قبل أن تموت! وإذا وقف عن السير وقف أيضاً ذلك الشبح! وإذا جرى جرى وراءه!

وكان بين حين وآخر يلتفت وراءه بعزم المستيئس، يريد أن يقضى على ذلك الشبح يختبئ وراءه! لقد كان يمشى أمامه صباح ذلك اليوم، أما الآن فهو وراءه دائما. وأسند ظهره إلى جرف وإذا به يشعر أنه فوقه، ويتبينه وكأنه صورة رسمت فوق صفحة السماء فى تلك الليلة الباردة!. وعندئذ طرح نفسه على الطريق وظهره إلى الأرض، وإذا بالشبح يقف عند رأسه ساكتاً ساكناً!

فلا يقولن أحد إن القتلة قد يفرون من الجزاء العادل...لقد كانت كل دقيقة طالت فى عذاب الخوف، بمثابة عشرين موتاً عنيفاً بيد الجلاد!

وكانت هناك سفيفة فى حقل مر عليه، فرآها تصلح مثوى له يبيت فيه ليلته. وكان أمام الباب ثلاث أشجار باسقة فزاد وجودها فى الظلمة التى بالداخل. وكان صوت الريح وهو يتخللها أشبه بأنين حزين. ولم يقدر أن يستأنف المسير حتى يطلع النهار. وهناك مدد جسمه ملتصقا بالجدار، لكى يعانى عذاباً جديداً: فقد ظهر له منظر جديد أفظع من ذلك الذى هرب منه، إذ بدت له عينا ضحيته تحملقان فيه وسط الظلام، وقد جمدتا وزال بريقهما. وكانت عينين اثنتين ولكنه كان يراهما فى كل مكان حوله. ولذا أغمض عينيه كيلا يرى، رأى بمخيلته الغرفة بكل ما فيها فى مكانه، والجثة أيضاً فى موضعها هناك، وعينا المرأة القتيل كما رآها آخر مرة عند فراره.. وعلى ذلك نهض واندفع نحو الحقل، وعاد الشبح يتعقبه. ثم عاد إلى السقيفة ورقد على أرضها ثانية، فعادت العينان تبدوان له فى كل مكان!

ومكث هناك فى خوف لم يكابد مثله أحد سواه! وكان كل عضو فيه يرتعد، وأخذ العرق البارد يتصبب من كل مسام جسمه، وأخيراً انتهى الليل الطويل، فاعتزم بدافع اليأس أن يعود إلى لندن. وقال يحدث نفسه:

– وهناك على أى حال أحد أستطيع أن أتكلم معه. ثم انه مكان يصلح للاختباء فيه. فإنهم لا يتوقعون أن يجدونى فيها ليقبضوا علىَّ. ولماذا لا أختبئ مدة أسبوع مثلا وأكره فيجن على

أن يعطينـي مـالا لأسـافر بـه إلى فرنسا؟.سـأقدم علـى هـذه المجازفـة!

وبـادر إلى إنفـاذ مـا اعتزمـه بـلا إبطـاء، فشـرع فـي العـودة إلى لنـدن متخـذا الطـرق غـير المطروقـة. ونـوى أن يختفـي فـي مـكان قريـب مـن المدينـة، وأن يدخلهـا حـين يرخـي الليـل سـدوله!

ولكـن كان هنـاك الكلـب! إن البوليـس إذا نشـر أوصافـه فلـن يفوتـه أن يذكـر أن الكلـب لم يعثـر عليـه وأنـه يرجـح أن يكـون معـه. وقـد يـؤدى ذلـك إلى القبـض عليـه وهـو يمـر معـه بالشـوارع. وعلـى هـذا عـزم أن يغـرق الكلـب ومشـى يبحـث عـن بركـة.

وكان الكلـب ينظـر إلى وجـه سـيده وهـو يتخـذ هـذه التعبـيرات. وسـواء أفهـم الغـرض منهـا بغريزتـه، أم أن نظـرة اللـص إليـه كانـت أقسـى مـن المعتـاد، فإنـه أخـذ يتبعـه علـى مسـافة طويلـة. إذا نظـر سـيده إلى بركـة ونظـر حولـه لينـاديـه، وقـف فـي مكانـه لا يتحـرك فصـاح بـه سـيكس:

–ألم تسمعنى وأنا أناديك! تعال هنا!

وجـاء الكلـب بحكـم العـادة وحدهـا. ولكـن لمـا انحنـى سـيكس ليربـط المنديـل إلى عنقـه زمجـر الكلـب وجـرى بعيـداً. فناداه اللـص قائلاً: "تعـال هنا".

ولكنـه هـز ذنبـه مـن غـير أن يتحرك.فنـاداه سـيكس مـرة أخـرى. وعندئذ تقـدم الكلـب ثـم تقهقـر ووقـف لحظـة وبعدهـا اسـتدار وجـرى بأقصـى سـرعته.

وأخـذ الرجـل يصفـر لـه ويفـر. ثـم جلـس ينتظـر عودتـه إليـه. ولكـن لم يظهـر لكلبـه أى أثر..وأخـيراً اسـتأنف رحلتـه وحـده.

obeikandl.com

الفصل الثامن عشر

موت سبكس

obeikandl.com

-١-

تقع جزيرة جاكوب فى نهر التيمس حيث يخترق حياً من أحط أحياء لندن وأفقرها وأقذرها. ويحيط بتلك الجزيرة بركة موحلة يبلغ عمقها ست أقدام أو ثمانى أقدام، ويبلغ عرضها خمس عشر قدماً أو عشرين فى حالة المد. وهناك قناطر خشبية تصل بين الجزيرة والأرض.

وأكثر المتاجر فى جاكوبس ايلاند خاوية بلا سقف، وجدرانها متهدمة، والنوافذ قد أصبحت غير نوافذ، والمداخن سوداء ولكن لا ينفذ منها دخان. وكانت هذه الجزيرة منذ ثلاثين أو أربعين سنة مكاناً ظاهر الرخاء، أما الآن فإنها جزيرة موحشة حقاً. والبيوت التى فيها ليس لها مالكون فهى مهملة مفتوحة الأبواب، لا يلجها إلا من أوتى قدراً من الشجاعة. فالذين يسكنونها إما أن تحفزهم حوافز قوية لالتماس مسكن خفي، وإما أن يكونوا من الفقر بحيث ينشدون المثوى فى تلك الجزيرة!

ومن تلك البيوت، بيت متوسط الحجم قد أصبح خراباً، ولكن أعدت معدات الدفاع عند بابه ونافذته. وفى غرفة بالطابق الأعلى منه جلس توبى كراكيت وتشارلى بيتس، وقد علت وجهيهما صفرة وبان عليهما خوف شديد!

وقال كركيت لصاحبه: "متى قبض على فيجن؟"

فأجاب تشارلي: "فى وقت الغداء..وكان من حسن حظى أنى استطعت الهرب!"

فقال كركيت: "إن المحكمة منعقدة، وإذا أمكنها أن تثبت أن فيجن قد حرض سيكس على قتل نانسى فإنه سيشنق بعد ستة أيام!"

– كان جديراً بك أن تسمع الجمهور الصاخب...لقد بذلت الشرطة قصارى جهدهم حتى لا يختطفه الناس وينكلوا به. لقد أوقعوه على الأرض ولكن الشرطة سارعت إلى الوقوف فى حلقة حوله ثم شقوا طريقهم به. كان ينبغى لك أن ترى كيف كان ينظر حوله وقد علاه وجل، ونزف منه دم، وتعلق بالشرطة وكأنهم أعز أصدقائه. إنى مازلت أرى الآن منظر الدم فوق شعر رأسه ولحيته، وأسمع صيحات النساء وهن يقسمن لينزعن قلبه من صدره!

وغطى تشارلى بيتس وجهه بيديه وهو يقول ذلك، كأنه يبعد عن عينيه ذلك المنظر الرهيب!

وهنا قال توبى فجأة: "ما معنى هذا؟.الكلب..لا يمكن أن يكون قادما إلى هنا..آمل أن لا يكون!"

فرد تشارلى وهو ينحنى على الكلب فاحصاً: "لو كان آتياً إلى هنا لجاء مع الكلب. هيا! ناولنى قليلاً من الماء للكلب. لقد جرى حتى أنهك قواه!"

ثم استطرد بعد أن راقب الكلب لحظة: "لقد شرب الماء حتى آخر نقطة منه...إن الوحل يغطى جسمه...وهو أعرج...ونصف أعمى..لا بد أنه جاء من مكان بعيد!"

– إنه بالطبع قد ذهب أولا إلى البيت الآخر. ولما وجده مملوءاً بأناس غرباء، جاء إلى هنا، وكان قد جاء إلى هذا المكان مراراً من قبل. ولكن من أين أتى أولا؟ وكيف قدم إلينا من غير صاحبه؟

فقال تشارلي: "إنه ...لا يمكن أن يكون قد انتحر؟ ما رأيك؟"

فأجاب توبى وهو يهز رأسه: "إذا كان قد انتحر فإن الكلب كان يبدى رغبته فى أن يقودنا إلى حيث يكون..كلا! أحسبه قد غادر البلاد وخلف الكلب وراءه!

-٢-

انقضت ساعات من الزمن. ولما أقبل الليل أغلقت النافذة وأضيئت شمعة ووضعت على المائدة. وكانت الحوادث الرهيبة التى وقعت فى اليومين الماضيين قد أثرت تأثيراً شديداً فى نفس الرجل والغلام، وقد زاد فى ذلك الأثر الخطر الذى يحيق بهما وعدم استقرار موقفهما. وجذبا كرسيهما حتى تقاربا وأخذا ينصتان إلى كل صوت. وكانا لا يتحدثان إلا قليلا وإذا تكلما تكلما همساً، وكانا من الصمت والخوف كما لو كانت بقايا المرأة المقتولة فى الغرفة المجاورة.

وبغتة سمعاً قرعا سريعا على الباب الذى تحت، فأسرع كركيت إلى النافذة وقد تملكت جسمه رعشة. وكانت الصفرة التى علت وجهه كافية لإنباء بيتس بشخصية القادم فى تلك الساعة. كذلك قفز الكلب تواً وجرى إلى الباب وهو يعوى!

وقال توبى وهو يمسك الشمعة فى يده: "يجب أن ندعه يدخل!"

فقال الغلام: "هل لا مفر من ذلك؟"

– كلا! يجب أن يدخل!"

وهبط كركيت الدرج نحو الباب ثم عاد وخلفه رجل قد غطى نصف وجهه الأسفل بمنديل، وربط منديلا آخر على رأسه تحت القبعة. وما لبث حتى خلعهما ببطء. وكان شاحب الوجه، غائر العينين، أجوف الخدين، لاهث الأنفاس، نامى اللحية لعدم حلقها ثلاثة أيام متوالية، فالناظر إليه يحسبه شبح سيكس. ووضع يده على كرسى كان فى وسط الغرفة. وهم بأن يجلس عليه وجسمه يرتعد، ولكنه نظر فوق كتفه، فسحب

الكرسى إلى جانب الجدار حتى ليكاد يلتصق به، وعندئذ جلس عليه!

ولم تدر كلمة بينه وبين الاثنين الآخرين، وإنما ردد بصره بينهما صامتاً. ولما تكلم أخيراً ظهر عليه الفزع!

قال لهما: "كيف جاء الكلب إلى هنا؟"

– لقد جاء وحده منذ ثلاث ساعات!

– لقد ذكرت صحيفة المساء أن فيجن قبض عليه..أهذا صحيح أم كذب؟

– صحيح!

ثم ساد الصمت ثانية. وبعدئذ مسح سيكس جبينه بيده ثم قال لهما:

– لعنه الله عليكما معاً. أليس لديكما ما تقولانه لي؟

فتململ الاثنان، ولكن لم يقل أحدهما كلمة!.ثم التفت سيكس إلى كركيت وقال له:

– أنت يامن تقطن هذا البيت..أتنوى أن تبيعنى أم تدعنى أقبع هنا حتى ينتهى البحث عني؟

فأجابه توبى بعد تردد:

– يمكنك أن تبقى هنا إذا حسبت أنك ستكون فى أمان!"

– ثم قال سيكس ببطء وهو ينظر إلى الحائط خلفه:

– هل...هل...دفنت الجثة؟

وهز الاثنان رأسيهما نفياً..فعاد سيكس يسأل وهو لا يزال ينظر إلى الحائط:

– لماذا؟ لماذا يبقون أمثال تلك الأشياء القبيحة المنظر، فوق الأرض؟

وعندئذ صاح به تشارلى بيتس وقد عجز عن كتمان شعوره:

– أنت أيها الوحش! . إنى لا أخشاك! وإذا جاءت الشرطة فى طلبك فسأسلمك لهم، يمكنك أن تقتلنى من أجل ذلك إذا أردت، أو إذا جرؤت، ولكن إذا كنت هنا حين يجيئون فسأسلمك لهم! القاتل! النجدة! أمسكوه!

وإذ صاح الغلام هذه الصيحة! انقض وحده على ذلك الرجل القوي، فوقع هذا على الأرض من أثر هذه الهجمة المفاجئة. ولكن العراك بينهما لم يطل لعدم تكافؤ الطرفين فيه. وسرعان ما تغلب سيكس على الغلام ووضع ركبته فوق عنقه لولا أن كراكيت جذبه من الخلف وقد ارتسم على وجهه الخوف وأشار إلى النافذة. وكانت هناك أضواء ترى على مسافة، وارتفعت أصوات فى حديث جاد، ثم سمع وقع خطوات مسرعة تعبر القنطرة الخشبية القريبة. وتلاها قرع شديد على الباب وسط ضجة أصوات عديدة تجعل أشجع الناس يرتعد فرقا. وعندئذ صاح تشارلى بيتس:

– النجدة! إنه هنا! حطموا الباب!

وصاحت الأصوات التى بالخارج:

– باسم القانون!

وعاد تشارلى يصيح: "حطموا الباب! .إنكم لن تقدروا على فتحه... ثم أسرعوا إلى الغرفة التى بها الضوء. حطموا الباب!"

فصاح سيكس بوحشية وهو يسحب الغلام كأنه كيس فارغ:

– أين أضع هذا الولد الذى يصرخ وأوصد عليه الباب؟

– ذلك الباب. أسرع!

فوضع بيتس فى غرفة وأوصد عليه بابها. ثم قال:

– هل باب البيت محكم الأقفال؟

فأجابه كراكيت: "له قفل مزدوج، وخلفه سلسلة من حديد!"

– وهل الخشب قوي؟

– عليه خطوط من ألواح الحديد!

– والنوافذ أيضاً؟

– أجل والنوافذ!

فصاح اللص مستيئساً وهو يفتح النافذة ويطل منها على الجمهور:

– لعنة الله عليكم. افعلوا أسوأ ما تقدرون عليه، فمازلت قادراً على أن أخدعكم!

ومهما تكن الصيحات التي طرقت إذن إنسان، فإن أيا منها لا يمكن أن يعلو على صيحة الغضب من ذلك الجمع الحاشد. لقد كان بعضهم يصيحون بالقريبين من الدار أن يشعلوا فيها النار. وكان بعضهم يصيحون بالشرطة أن يطلقوا الرصاص على المجرم ويصرعوه. وكان غيرهم يصرخون طالبين سلماً، وآخرون ينادون طالبين مطارق. وكان هناك من يشتمون ويلعنون حتى تنقطع أنفاسهم. وحاول بعض الشجعان أن يتسلقوا الحائط. وكان الجميع يندفعون إلى الأمام وإلى الخلف في الظلام أمام الدار وكأنهم حقل من الحنطة تحركها ريح عاتية!

وأغلق القاتل النافذة كيلا يرى تلك الوجوه وصاح قائلا:

– لقد كان هناك مد حين جئت إلى هنا. أعطني ياكراكيت حبلا...حبلا طويلا. إنهم جميعاً أمام واجهة الدار. وأستطيع أن أهبط إلى البركة ثم أسبح إلى حيث الأمان. أعطني حبلا وإلا ارتكبت جريمة قتل أخرى ثم أنتحر!

فارتاع كركيت وأشار له إلى حيث توجد الحبال، وأسرع سيكس فاختار أطولها وأمتنها ثم هرع إلى سقف البيت وزحف إلى طرفه ونظر حوله..لقد نضب الماء الذى فى البركة وأصبحت حفرة من وحل.

وصاح الجمهور حين رأى القاتل فوق السطح. ثم عم الصمت لحظة وهو يراقب حركاته ويتساءل عن غرضه. ولكن لم يكد الجمهور يعرفه قصده ويدرك أنه قد هزم حتى صاح صيحة ظفر تعد كل صيحاته السابقة وكأنها همسات إذا قورنت بها، وتكرر الصياح مرة بعد أخرى. وبدا كأن العاصمة قد بعثت جميع ساكنيها لكى يلعنوا القاتل!

وتراجع سيكس إلى الوراء وقد روعته وحشية الجمهور المحتشد، ثم عزم أن يبذل آخر جهد للفرار بحياته، بأن يهبط إلى الحفرة، مجازفاً بالاختناق فى الوحل، على أن يزحف من هناك وسط الظلام.

وعلى ذلك ربط طرف الحبل ربطاً متيناً بالمدخنة. وجعل من طرفه الآخر عروة قوية يتعلق بها وهو يهبط إلى مقربة من الأرض، وكانت مديته معدة فى يده ليقطع بها الحبل عندئذ ثم يسقط. ووضع تلك العروة فوق رأسه وصاح صيحة رعب وهو يقول بصوت ليس كصوت البشر: "العينان مرة أخرى!"

وتراجع إلى الوراء وكأنما أصابته صاعقة ففقد توازنه وسقط من فوق السطح، وكانت عروة الحبل لا تزال بعنقه، وهبط هكذا من ارتفاع خمس وثلاثين قدما، وحدثت مفاجئة تلتها حركة فظيعة من أعضائه، وبدا كذلك معلقا ولا تزال يده قابضة على المدية بعد أن فارقته الحياة!

وكان هناك كلب قد بقى مختبئاً طول تلك البرهة، والآن صار يجرى إلى الأمام وإلى الخلف فوق طرف السطح وهو يعوى عواء حزينا. ثم قفز نحو كتفى الميت ولكنه أخطأ الهدف فوقع فى الحفرة وقد انقلب جسمه، وارتطم رأسه بحجر فتبدد مخه هناك!

الفصل التاسع عشر

فى انتظار الإعدام

obeikandl.com

-١-

كانت قاعة المحكمة أشبه ببحر زاخر من الوجوه البشرية، وكانت أعين الفضول تحملق من كل صوب، وقد ركزت على رجل واحد هو فيجن!

لقد كان محاطا بعالم من أعين متفرسة فيه، أمامه وخلفه، وفوقه وتحته، وعن يمينه ويساره. ووقف هناك مسنداً إحدى يديه إلى أحد القضبان الخشبية أمامه، وواضعاً يده الأخرى أمام أذنه ليحسن الاستماع، وقد مال برأسه إلى الأمام لتلتقط أذناه كل كلمة يلفظ بها القاضي وهو يلقي خطابه للمحلفين. وكان هذا يذكر التهم بوضوح رهيب، حتى لقد نظر المتهم إلى محامية وكأنه يرجو منه أن يقول شيئا لصالحه بعد أن فات وقت الدفاع، ثم أتم القاضي كلامه وغادر المحلفون قاعة المحكمة ليتداولوا الحكم!

ونظر فيجن حوله، فرأى الجمهور قد وقف ليرى وجهه، وقد وضع بعضهم مناظير على أعينهم، وأخذ بعضهم يهمسون في آذان جيرانهم وعيونهم تنظر إلى المتهم نظرات البغض الشديد!

وكان آخرون قد اتخذوا من مناديلهم مراوح إذ كان الجو حاراً في ذلك المكان الشديد الزحام. ولكن فيجن لم تلح له أدنى بارقة من عطف عليه، حتى من جانب النساء اللاتي حضرت منهن كثيرات، وإنما كانت ملامح الجميع ونظراتهم تنطق باللهفة على أن يحكم عليه بأقصى عقاب!

وأخيراً صاح الحاجب طالباً السكوت، فنظر الجميع صوب الباب وقد قطعوا أنفاسهم انتظارا لما يقضي به المحلفون. وجاء هؤلاء ومروا قريباً من قفص المتهم، وأمعن النظر في وجوههم لكنه لم يتبين في ملامحهم شيئا كأنما وجوههم قدت من حجر!

وساد الصمت والسكون حتى لقد حبس الناس أنفاسهم. وإذا بالكلمة الفاصلة تعلن أنه مذنب!" ثم تلتها صيحة هائلة رددتها الجماعات التى فى خارج المحكمة، وكانت صيحة فرح هزت البناء، على أثر النبأ الذى ذاع بأن المتهم سيعدم يوم الاثنين القادم!

ولما سكتت الصيحة، سئل المتهم: هل لديه ما يقوله معارضاً به حكم الإعدام؟ لكنه حملق فى وجه سائله فى ذهول، فأعيد عليه السؤال مرة أخرى وعندئذ أدرك ما قيل له فقال بصوت كالهمس: "إنى رجل عجوز، رجل عجوز!" ثم عاد إلى الصمت!

فوضع القاضى قلنسوته السوداء على رأسه ونطق بالحكم الرهيب. وكان فيجن واقفاً فى مكانه كالحجر الأصم. وكان لا يزال مائلا بوجهه إلى الأمام، وقد تدلى فكه الأدنى وحملق بعينيه حتى كادتا تبرزان من محجريهما. ثم وضع شرطى يده على ذراعه وأشار إليه بالذهاب، فنظر حوله نظرة بلهاء، ثم صدع بالأمر!

وقد اقتيد إلى غرفة تحت قاعة المحكمة كان بها بعض المساجين ينتظرون دورهم فى المحاكمة، وكان بعضهم يتحدثون مع أصدقائهم. أما هو فلم يكن أحد يكلمه. ولما مرت به الشرطة فى تلك القاعة تراجع الذين بها حتى لا يقترب منهم، ثم وجهوا إليه السباب والشتائم فهز لهم قبضة يده وهم بأن يبصق عليهم لولا أن الحراس الذين يقودونه أسرعوا به فى ممر معتم يؤدى إلى داخل السجن!

وهناك فتش كيلا يكون معه ما قد ينتحر به. وبعد ذلك اقتادوه إلى زنزانة خاصة بالمحكوم بإعدامهم وتركوه فيها وحده!

-٢-

جلس فيجن فى زنزانته على دكة من حجر تواجه الباب، وهى مقعد وسرير فى آن واحد ونظر إلى الأرض بعينين حمراوين كالدم، وحاول أن يجمع شتات ذهنه. وبعد حين استطاع أن يستعيد بعض كلمات مما قاله القاضي، واستقرت هذه الكلمات فى أماكنها ثم استدرجت غيرها تدريجاً. وبعد قليل من الوقت استطاع أن يستعيد فى ذهنه كل خطاب القاضى كما ألقاه تقريباً. "يعلق من رقبته حتى يموت": لقد كانت هذه الجملة هى خاتمة ذلك الخطاب!

ولما ساد الظلام بدأ يفكر فى جميع الأشخاص الذين كان يعرفهم والذين ماتوا على المشنقة، وبعضهم ماتوا عن طريقه...وقد تتابعوا فى ذاكرته بسرعة جعلته لا يكاد يقدر على إحصائهم وكان قد رأى بعضهم يموتون، وسخر منهم أيضاً لأنهم ماتوا وعلى شفاهم صلوات يقولونها!

أيه قعقعة تحدثها ثقالة المشنقة حين تسقط؟! وما أسرع ما ينقلب المشنوق من رجل صحيح قوى إلى كتلة من الثياب معلقة فى الهواء!

لعل بعضهم قد أقام بهذه الزنزانة نفسها، وجلس على هذا المقعد الحجرى نفسه!

إن الظلام حالك!. فلماذا لا يجيئونه بمصباح؟

لقد بنيت هذه الزنزانة منذ سنوات عديدة، فلا ريب أن أناساً كثيرين قد قضوا فيها الساعات الأخيرة من حياتهم. إن المكث فيها يشبه المكث فى القبر تبعثرت على أرضه جثث الموتى!

أين الضوء؟.أين الضوء؟

وأخيراً بعد أن كلت يداه من الضرب على الباب السميك والجدران، جاء حارسان: كان أحدهما يحمل شمعة فوضعها فى شمعدان حديدى إلى جوار الجدار، وكان الآخر يحمل مرتبة ليبيت عليها، لأن السجين لن يترك وحده منذ ذلك!

ثم حل الليل وساد سكون لا يقطعه سوى دق ساعة الكنيسة وهى تعلن الساعة إن الناس عادة يسرهم أن يسمعوا دق الساعة لأنه تدل على الحياة وتنبئ عن يوم قادم. أما السجين فيجيئه دق الساعة باليأس! وكل صوت من ناقوس الكنيسة إنما يأتيه برسالة واحدة،هى رسالة الموت!

ثم إن ضجة الصباح البهيج وحركته قد نفذتا حتى إلى تلك الزنزانة. ولكنه لم يحسبهما إلا نذيراً جديداً. ومضى النهار كما يسميه الناس لأنه هو لم يكن له نهار، إذ سرعان ما ذهب كما جاء، واقترب الليل مرة أخرى. ليل طويل ومع ذلك جد قصير. طويل بسكونه الموحش، وقصير لمضى ساعاته مسرعة. وكان فيجن يصرخ صرخة جنون حيناً، ويعوى ويمزق شعره حينا آخر!

وجاء رجال دين ليصلوا معه ولكنه طردهم وشيعهم باللعنات!.ولما حاولوا من جديد، ضربهم حتى فروا من أمامه.

وحلت ليلة السبت! لم يبق له فى الحياة إذن..سوى ليلة أخرى يعيشها. وما كاد يفكر فى ذلك حتى انبثق النهار..نهار الأحد!

وفى الليلة الأخيرة فقط التى أعقبت ذلك اليوم المخيف الأخير، تملكه شعور اليأس والقنوط. أجل! إنه لم يأمل قط فى العفو عنه، ولكنه لم يكن قد أدرك تماماً أنه سيموت عما قريب. وكان لم يكلم حارسيه إلا قليلاً، وهما من جانبهما لم يحاولا أن يثيرا التفاته. أما الآن فقد صار يفزع كل دقيقة، وصار يروح ويجئ فى زنزانته فاغراً فاه، ملتهب الجلد، فى رعب شديد، حتى أن حارسيه مع اعتيادهما مثل هذا المنظر صارا يبتعدان عنه خائفين!

وأخيراً بلغت به الشناعة من تعذيب ضميره السوء أن أحدهما لم يقدر أن يمكث وحده لينظر إليه فصار الاثنان يراقبانه معاً!

ثم جلس على سريره الحجرى وأخذ يفكر فى ماضيه. وكان قد جرح من أحجار رماه بها الجمهور يوم القبض عليه، فربط رأسه بقطعة قماش. والآن صار شعره الأحمر مدلى على وجهه الذى لم يغسل، وقد غاض منه الدم. وكانت لحيته ممزقة وقد صارت عقداً مفتولة، وصار لعينيه بريق مخيف!

ودقت الساعة الثامنة، ثم التاسعة، ثم العاشرة..ولم تكن تلك حيلة لإرهابه بل كانت ساعات حقيقة تأتى إحداهما فى أعقاب الأخرى! أين يكون حين تدق تلك الساعات من جديد؟

ودقت الساعة الحادية عشرة! ودقت الساعة التالية قبل أن ينقطع صدى الساعة السابقة! إنه فى الساعة الثامنة صباحاً سيكون الحزين الوحيد فى جنازته!

إن جدران ذلك السجن طالما أخفت وراءها من الشقاء والألم ما لا يوصف، لا عن أعين الناس فقط بل كذلك عن أذهانهم، هذه الجدران لم تشمل قط منظراً كذلك المنظر!. والقليل من السابلة الذين كانوا يتساءلون عما ترى يفعله الرجل الذى سيشنق صباح غد، كانوا بلا ريب يأرقون ليلتهم تلك لو أنهم رأوه فى زنزانته!

ومنذ غروب الشمس إلى حوالى منتصف الليل، كانت جماعات قليلة من الناس– لا تزيد كل منهما على شخصين أو ثلاثة– تقدم إلى باب السجن. وكانوا يسألون بلهفة: هل صدر عفو عن المتهم؟ وحين يتلقون جواباً بالنفى كانوا يبلغون هذا النبأ السعيد إلى غيرهم بالطريق. وكانوا يشيرون إلى الباب الذى سيخرج منه لا محالة، وإلى المكان الذى ستنصب فيه المشنقة. ثم ذهبوا تدريجاً إلى حال سبيلهم. وترك الشارع ساعة فى بهيم الليل، إلى ظلمته ووحشته.

كان المجرم المحكوم عليه بالإعدام جالساً على سريره يتأرجح من جانب إلى آخر، وقد أصبح وجهه أقرب إلى وجه وحش وقع فى فخ، منه إلى وجه إنسان!

وكان الضوء الضعيف الذى جاء به نهار اليوم الجديد ينفذ من خلال القضبان التى على نافذة الزنزانة. وكان يسمع من الخارج أصوات أناس كثيرون، وقد اختلط بها صوت طرق المطارق ووضع ألواح الخشب. لقد كان العمال ينصبون المشنقة!

ولا ريب أن فيجن قد انتقل به ذهنه إلى حياته الماضية، فقد كان يغمغم وكأنه لا يشعر بوجود الحارسين الجالسين أمامه، ويهمس قائلا: "حسنا يا تشارلي. لقد أحسنت. و أوليفر أيضاً..ها..ها.ها. إن له الآن سمت السادة! إنى رجل عجوز يا سيدى القاضى رجل عجوز، عجوز جداً! أريد أن أكلمك يا أوليفر. قل لهم إنى أويت إلى فراشي. إنهم يصدقونك أنت!"

وفتح باب الزنزانة، وضع الحراس أيديهم عليه فجاهد المستيئس لحظة، ثم أخذ يصرخ صرخة بعد أخرى حتى نفذ صراخه من خلال الجدران السميكة!

ثم سحبوه من باب السجن. وكان هناك جمع حاشد من الناس، وكانت نوافذ البيوت مملوءة بالناس أيضاً وهم يدخنون ويلعبون بالورق لتمضية الوقت!

وكان النظارة يتدافعون ويتشاجرون، وينكتون. وكان كل شئ ينبئ عن الحياة والسرور ما عدا بقعة معتمة تجمعت بها أشياء وسط ذلك المنظر، ففيها المنصة السوداء، والمشنقة الخشبية، والحبل...وكل ما يتطلبه جهاز الموت الرهيب!

obeikandl.com

الفصل العشرون

خاتمة المطاف

obeikandl.com

-١-

إن حظوظ الأشخاص الذين تنتظمهم هذه القصة قد أوشكت على الختام، وما بقى منها يمكن ذكره فى كلمات قلائل!

لقد تبنى المستر براونلو أوليفر واتخذه ولداً له، وانتقل معه ومع مديرة البيت العجوز إلى بيت آخر فى بلدة تشرتسى لا يبعد سوى ميل واحد عن البيت الذى تعيش فيه المسز ما يلى وروز، وبذلك حقق أوليفر أعز أمانيه القلبية، وكون مجتمعاً صغيراً يغمره من السعادة الكاملة أكثر ما يمكن أن يوجد فى هذا العالم المتقلب!

ومن العسير أن نصف هناءة ذلك الغلام وطمأنينته فى جوف الريف ووسط تلاله الخضراء وسهوله الغريزة. فإن مناظر الحياة القروية الهادئة تستقر فى أذهان أولئك الذين أضنتهم الآلام فى الأماكن المزدحمة، وتغرس نضارتها فى قرار قلوبهم!

من الناس من عاشوا فى شوارع زاخرة بالناس، عيشة ملؤها الكد، من غير أن يتمنوا تغييراً لمعيشتهم..ومن الناس من يكادون يعشقون كل طوبة وحجر على حواف الطرقات الضيقة التى يمشون فيها كل يوم. ولكن هؤلاء أنفسهم حين اقترب أجلهم لم يتمنوا لأنفسهم شيئاً سوى أن يلقوا نظرة قصيرة على وجه الطبيعة المجردة!

وقد استقر المستر براونلو مع ولده الذى تبناه فى بقعة جميلة، وبدا أن أوليفر قد بدأ بذلك حياة جديدة، بعد حياته الماضية التى قضى سنيها بين جماعات منحطة ووسط الضجة والشجار. وهناك الورود تغطى جدران الكوخ، والعليِّق يزحف حول جذوع الأشجار. وأزهار البساتين تملأ الجو بشذاها العطري!

وهنـاك فنـاء كنيسـة، لم تشـوهه كثـرة القبـور العاليـة، بـل كان مليئـاً بربـوات مغطـاة بالأعشـاب الخضـراء، وقـد رقـد تحتهـا أهـالى القريـة القدمـاء. وكثـيراً مـا كان أوليفـر يذهـب إلى هنـاك، يفكـر فـى القـبر البائـس الـذى رقـدت فيـه أمـه، فيأخـذ فـى النحيـب مـن غـير أن يـراه أحـد. غـير أنـه لا يلبـث قليـلا حتـى يرفـع بصـره إلى السـماء فـلا يعـود يفكـر فـى أمـه تحـت الثـرى وعندئـذ كان يبكـى بحـزن خـال مـن الألم!

وفـى الصبـاح يكـون أوليفـر علـى قدميـه منـذ السـاعة السادسـة، ثـم يجـول فـى الحقـول ويجمـع الأزهـار، ثـم يعـود بهـا إلى البيـت ويرتبهـا فـوق مائـدة الفطـور، وأحيانـاً يحملهـا إلى المسـز مـا يلـى وابنـة أخيهـا. وفـى الضحـى يذهـب إلى سـيد أشـيب يسـكن قريبـاً مـن كنيسـة القريـة، وهـو الـذى علـم أوليفر الكتابـة وإتقـان القـراءة. وكان يكلمـه برفـق، ويعنـى بتعليمـه، فـكان أوليفـر يزيـد اجتهـاداً كسـباً لمرضاتـه. ومـع ذلـك يخـرج للتنـزه مـع المسـتر براونلـو أو مـع المسـز مـا يلـى وروز ويسـتمع إليهـم وهـم يحدثونـه عـن الكتـب. وأحيانـاً يجلـس معهـم فـى ظـل الأشـجار ويصغـى إلى السـيدة الصغـيرة وهـى تقـرأ لـه فـى كتـاب وكان عليـه بعـد ذلـك أن يـؤدى واجباتـه المدرسـية لليـوم التالـي. وهـو يجتهـد فـى أدائهـا فـى غرفـة صغـيرة تطـل علـى الحديقـة. ومتـى أمضـى المسـاء عـاد إلى الرياضـة، وإنـه ليسـعده أن تطلـب روز إليـه وردة يقتطعهـا لهـا مـن عـل، أو أن يحضـر لهـا شـيئاً نسـيته، وأنـه ليلبـى لهـا هـذا الطلـب أو ذاك بأقصـى مـا يسـتطيع مـن السـرعة! ومتـى حـل الليـل عـادوا إلى البيـت، وأحيانـاً تصحبـه روز وعمتهـا إلى بيتـه، وعندئـذ تجلـس روز إلى البيانـو وتعـزف بعـض القطـع الموسـيقية السـارة، وقـد تغنـى بصـوت رقيـق منخفـض بعـض الأغانـى القديمـة التـى يحلـو لعمتهـا والمسـتر براونلـو أن يسـمعاها، وإذ ذاك لا تضـاء شمـوع ويجلـس أوليفـر إلى النافـذة مصغيـاً إلى الموسـيقى الحلـوة فرحـاً بهـا!

وحـين يأتـى يـوم الأحـد، كان يقضيـه بشـكل لم يقـض بـه قـط أيـام الأحـد الماضيـة...وإنـه ليـوم سـعيد مثـل كل أيامـه فـى ذلـك الوقـت

الزاخر بالسعادة. فهناك الكنيسة الصغيرة فى الصباح، والأوراق الخضراء ترفرف على نوافذها، والطيور تغرد فى خارجها، والهواء الزكى الرائحة يملأ مبناها البسيط. والناس الفقراء الذين يرتادونها هم أناس نظاف لطاف، يركعون خلال الصلاة فى خشوع صادق. وإنهم ليرتاحون إلى اجتماعهم هناك ولا يعدونه فرضاً متعب الأداء!

وبعد الصلاة، تكون الرياضة كالمعتاد، تتبعها زيارات عديدة للعمال الزراعيين. وفى الليل يتلو أوليفر فصلا أو اثنين من الإنجيل!

وكثيراً ما يزور المستر جريمويج صديقه القديم مستر براونلو، وعندئذ يشغل نفسه بالعمل فى الحديقة أو بصيد الأسماك، مؤدياً كل عمل بشكل شاذ..وكلما أراد المستر براونلو أن يقومه، أنذره بأن يأكل رأسه إن لم يكن رأسه هو نفسه كافياً... ويحلو للمستر براونلو أن يسخر من صديقه بشأن نبوءته عن أوليفر، وكثيراً ما يذكره بالليلة التى جلسا فيها معاً والساعة بينهما فى انتظار عودة الغلام. غير أن المستر جريمويج يرد دائماً بأنه كان فى تلك الليلة على صواب، بدليل أن أوليفر لم يعد خلالها!. وعندئذ يضحك الاثنان! ولا يزال المستر جيلز وبرتيلز فى مكانهما القديم، وإن يكن الأول قد صار الرأس، و"الولد" قد أشرف على الخمسين من عمره. وهما يبيتان فى منزل المسز ما يلي، ولكن لكثرة ترددهما على بيت المستر براونلو أصبح القرويون لا يدرون أهما فى خدمة هذا أم تلك؟

وقد أثر فى نفس تشارلى بيتس جريمة سيكس وشعوره بأنه المسئول عنها بشكل غير مباشر إذ تبع نانسى فى تلك الليلة، وانتهى به الأمر إلى أن رغب فى العمل الشريف ونسيان الماضي، وقد جاهد كثيراً وقاسى حيناً من الزمن، ولكنه نجح فى النهاية لشرف مقصده. وقد أصبح صبى مزارع وهو الآن أكثر العمال الزارعين مرحاً فى جنوب انجلترا!

-٢-

صحب المستر براونلو أوليفر فى زيارة لبلدته التى نشأ فيها. ولم يتحدثا كثيرا فى الطريق فقد كان أوليفر شديد التأثر لقرب رؤيته الأماكن التى انقضت فيها طفولته التعيسة.

وكان قلبه مفعما بأحاسيس شتى حين حادت العربة بهما إلى الطريق الذى غادر منه تلك البلدة..لقد قطعه وقتئذ على قدميه، وكان غلاما بائسا لا مأوى له، ولا صديق يعاونه ولا سقف يبيت تحته!

وصاح وهو يمسك بيد المستر براونلو، ويشير من نافذة العربة:

– انظر هناك!.هذا هو السياج الذى مشبت خلفه خشية أن يدركنى أحد ويعيدنى عنوة!.وهذا الدرب وسط الحقل يؤدى إلى البيت القديم الذى عشت وأنا طفل صغير!. آه يا ديك! يا صديقى القديم العزيز..بودى لو أراك الآن!

فقال له المستر براونلو: "ستراه قريبا.. وستخبره بأنك جد سعيد، وبأنك وسط هناءتك كان قصارى أمانيك أن تجعله هو أيضاً سعيداً!"

فقال أوليفر: "أجل. أجل.. وسنأخذه من هنا ونلبسه ثيابا ونعلمه ثم نبعثه إلى مكان هادئ فى الريف ينمو فيه قويا صحيح البدن. أليس كذلك؟"

فأومأ المستر براونلو موافقا وقد اشتد به التأثر حتى عجز عن الرد، إذ كان أوليفر يبتسم والدمع يذرف من عينيه. ثم أمر السائق بالوقوف وذهب مع أوليفر إلى ذلك البيت. ولكن العالم ملئ بخيبة الأمل... فقد قيل لهما إن ديك قد مات!

وبعد ذلك دخلت بهما العربة البلدة، وسارت فى شوارعها الضيقة. وكان دكان سوربرى حيث كان، ولكنه صار أصغر وأقل أهمية مما وعته ذاكرة أوليفر. وإذ مرا أمامه خرج نوح كلايبول حاملا على ظهره تابوتا تم صنعه. وكانت هناك المبانى التى يعرفها أوليفر حق المعرفة، خصوصا الملجأ أو ذلك السجن الحزين الذى قضى فيه سنوات صغره، وكان المستر بمبل واقفا بالباب، فلما رآه أوليفر تراجع إلى الوراء خوفا منه!.ثم ضحك ساخراً من حماقته وبكى، ثم ضحك ثانية!

ولما وقفت العربة أمام باب الملجأ صاح المستر بمبل قائلا:

– أتخدعنى عيناى أم هذا أوليفر الصغير حقاً؟. آه يا أوليفر.. لو أنك علمت كيف حزنت لفراقك!

ثم قال للمستر براونلو: "لقد أحببت دائما هذا الغلام كما لو كان... كما لو كان... كما لو كان جدي!"

ثم استأذنا من المستر بمبل وركبا إلى باب الفندق الرئيسي. وكان أوليفر فى الأيام الخالية ينظر إليه ويحسبه قصراً عظيما...وأعد لهما طعام العشاء ثم أعدت غرف النوم!

-٣-

قضى المستر براونلو يوما بعد يوم وهو يملأ ذهن ولده الذى تبناه بكنوز العلم والمعرفة. وصار يزداد حبه له إذ تفتحت نفسه ونبتت بها بذور الخير التى كان يتمناها فيه، وكانا سعيدين حقاً. تلك السعادة التى تنشأ من الحب الصادق ومن شفقة القلب ومن حمد الله الرحيم[1].

(١) إلى هنا ينتهى ملخص رواية «أوليفر تويست» المقررة على طلبة الشهادة التوجيهية بجميع شعبها. والفصول التالية منقولة عن الرواية الأصلية المطولة وفيها إيضاح لأصل الغلام أوليفر تويست ومكائد بعض الناس لإخفاء أصله، كما أن فيها مآل بعض الأشخاص الآخرين فى الرواية.

obeikandl.com

مشروع زواج

كانت الليلة شديدة البرد وقد غطى الجليد الأرض وتكونت منه طبقة سميكة يابسة. وكانت من تلك الليالى التى يمكث الإنسان فيها أمام الموقد فى بيته ويحمد الله على أن له مئوى يأوى إليه. وكذلك جلست فى غرفتها أمام المدفأة مسز كورنى رئيسة الملجأ الذى نشأ فيه أوليفر تويست، وكانت قد وضعت على المدفأة وعاء شاى صغير وجلست مسندة كوعها إلى المائدة، تنتظر غليان الماء. ثم قالت تحدث نفسها: «الحق أن كل إنسان له ما يحمد الله عليه!» وهزت رأسها أسفاً وهى تفكر فى نزلاء الملجأ الذين لا يقدرون النعمة التى هم فيها حق قدرها... وما لبث الماء فى الوعاء الصغير حتى على وفاض فقالت لنفسها: «ما أحمقه من إناء! إنه لا يسع إلا ملء فناجين اثنين! إنه لا يصلح إلا لمخلوقة وحيدة مثلي!»

وأثار هذا الوعاء والفنجان الواحد الذى على المائدة، ذكرياتها عن المستر كورنى الذى مات منذ أكثر من خمس وعشرين سنة..وفكرت فيه هنيهة ثم قالت: «لن يتاح لى آخر...لن يتاح لى آخر...مثله!»

ولم تكد تتجرع رشفات من الشاى حتى أزعجها قرع خفيف على الباب فصاحت بشدة: «ادخل». وقالت لنفسها: «أحسب أن إحدى اللاجئات العجائز قد ماتت...أنهن دائماً يمتن حين أتناول طعامى أو أشرب الشاي!» ثم قالت للطارق: «ماذا حدث؟»

فرد عليها صوت رجل: «لا شئ يا سيدتي..لا شئ!»

فقالت المسز كورنى بلهجة أرق من قبل: «أهذا أنت يا مستر بمبل؟ تفضل بالدخول».

وكان المستر بمبل معاون الملجأ قد وقف لحظة بالباب يمسح حذاءه ويصلح هندامه ويخلع قبعته، قبل أن يدخل. ثم قال لها: «أأغلق الباب ورائى يا سيدتي؟»

فترددت السيدة لحظة خشية أن تكون ثمة شبهة فى أن تتحدث معه من وراء باب مغلق. فانتهز المستر بمبل فرصة ترددها وأغلق الباب وراءه فقالت له: «الجو قاس الليلة يا مستر بمبل!»

– حقاً يا سيدتي..إنه ضد مصالح الأبراشية!. تصورى أننا صرفنا بعد ظهر اليوم للفقراء عشرين رغيفاً، وقرصاً ونصف قرص من الجبن.. وهم مع ذلك غير راضين!

– بالطبع لا يرضون. ومتى كانوا راضين يا مستر بمبل؟

– تصورى يا سيدتى أننا صرفنا لأحدهم، مراعاة لأسرته، رغيفا كاملا ورطل جبن. فهل قدر هذا الصنيع؟ تصورى أنه بعد ذلك طلب بعض الفحم قائلا: ملء منديل فقط! وبالله ماذا يصنع بالفحم؟ أيأكل الجبن به؟.ولو أننا أعطيناه اليوم ملء مئزر من الفحم لجاء غداً فى طلب غيره!

فابتسمت الرئيسة ابتسامة تدل على الموافقة...وكان قد جاء بزجاجتين من النبيذ قرر مجلس إدارة الملجأ صرفهما للمرضى من اللاجئين، ففك المنديل الذى كانتا مربوطتين به ووضعهما على ظهر خزانة بالغرفة، ثم هم بالخروج، وهنا دعته مسز كورني– على استحياء– إلى تناول فنجان شاي...فقبل دعوتهما تواً ووضع قبعته وعصاه على كرسي، وسحب كرسياً آخر جلس عليه ببطء. ثم نظر إليها متفرساً فغضت من بصرها وجعلت تنظر إلى وعاء الشاي، بينما سعل هو بصوت مرتفع!

وقالت له وهى تقدم له صحفة السكر: «أتحبه حلوا يا مستر بمبل؟»

– حلو جداً يا سيدتي!

وتفرس فى وجهها وهو يقول ذلك. وإذا استطاع معاون ملجأ أن يكون رقيقا، فقد كان المستر بمبل أرق معاون فى تلك اللحظة...وقدمت المسز كورنى إليه الشاى فتناوله صامتاً وهو يصدر آهة بين حين وآخر!. وكانت هناك قطة وصغيراتها جلسن على مقربة من المدفأة فنظر المستر بمبل إليها وقال: «إن لديك قطة كما أرى يا سيدتي. وأولادها كذلك!»

– إنى أحب القطط يا مستر بمبل. إنها تؤنسني. إنها مرحة سعيدة. ثم إنها متعلقة ببيتها!

فرد المستر بمبل وهو يشير بمعلقة الشاي: «يا مسز كورني..يا سيدتي.. إن أية قطة أو أى قط. يعيش معك لابد أن يتعلق ببيته!»

فتصنعت المسز كورنى الخجل وقالت: «أوه يا مستر بمبل!.»

– لو أن القط الذى يعيش معك نفسه أسعد القطط لأغرقته بيدي!

– إذن أنت رجل قاس يا مستر بمبل، وجامد الحس أيضاً!

– أنا جامد الحس يا سيدتي؟!

وكانت المائدة التى جلسا إليها متقابلين، مائدة مستديرة. فأخذ المستر بمبل يقرب كرسيه رويداً رويداً من كرسى المسز كورني؟!.أأنت جامدة الحس يا مسز كورني؟

فارتشف فنجان الشاى حتى آخره، وأكل قطعة خبز يابس معه، ثم مسح شفته..وفى الوقت نفسه مال على الرئيسة بغتة وقبلها!.فقالت همساً وقد كادت تفقد صوتها من هول المفاجأة:

– يا مستر بمبل!.إنى سأصرخ يا مستر بمبل!

فلم يجب ولكنه أحاط وسطها بذراعه فى بطء ووقار!

ولعل المسز كورنى كانت ستنفذ وعيدها وتصرخ مستغيثة لولا أن دق الباب فى تلك اللحظة دقاً سريعاً، فقام المستر بمبل مسرعا إلى الخزانة وأخذ يزيح التراب عن زجاجتى النبيذ، بينما صاحت الرئيسة بالقادم أن يدخل.

ودخلت الغرفة امرأة عجوز نحيلة الجسم قبيحة المنظر وقالت: «أرجو منك يا سيدتي. إن المسز سالى تحتضر!»

فصاحت بها المسز كورنى غاضبة: «وما شأنى أنا بذلك؟ أأمنع عنها الموت؟!»

فأجابت المرأة العجوز: «كلا يا سيدتي! لا أحد يقدر أن يمنع الموت عن أحد. ثم هى قد تخطت المرحلة التى يفيد فيها العون...لقد رأيت كثيرين يموتون...أطفالا صغارا ورجالا أقوياء...وأنا أعرف دلائل الموت حين تبدو... ولكن المسز سالى تطلبك بالحاح ذاكرة أن لديها سراً تريد أن تقضى به إليك».

ولم يسع المسز كورنى حيال ذلك إلا أن تلفظ ببعض الشتائم. ثم تلفعت بشال سميك وطلبت إلى المستر بمبل أن ينتظرها حتى ترجع وخرجت وراء تلك اللاجئة العجوز.

ولما ترك المستر بمبل وحده فى الغرفة سلك مسلكا عجيباً...فقد فتح الأدراج، وعد الملاعق الفضية، ووزن ملاقط السكر، وفحص وعاء فضياً للبن ليستوثق من معدنه!. ولما اطمأن من هذه الناحية لبس قبعته مائلة إلى جانب ورقص حول المائدة!

كانت المسز سالى تحتضر، وقد خطت الهموم والأحزان أخاديد فى وجهها، وانكمش جسمها فصار أشبه بقلم رصاص! وكانت الغرفة التى رقدت بها غرفة صغيرة فى الطابق الأعلى تكاد تكون خالية من الأثاث. وكانت هناك امرأة عجوز أخرى جالسة إلى جوار السرير تراقب العجوز التى تجود بروحها، بينما وقف الشاب مساعد الصيدلى على قرب من الموقد، وقال هذا للمسز كورنى حين دخلت: «الجو بارد جداً يا مسز كورني!»

وأومأت هى برأسها موافقة وهى تقول:

– إلى متى ننتظر حتى تصحو المرأة من إغفائها؟»

فقالت لها العجوز التى تؤدى مهمة الممرضة: «لن يطول الانتظار يا سيدتي!» فقالت الرئيسة بغلظة: «إنها لن تجدنى هنا حين تصحو..وحذار أن تزعجنى إحداكن مرة أخرى.. ليس من واجبى أن أرى العجائز فى هذا الملجأ وهن يلفظن آخر أنفاسهن!» ثم همت بالخروج، ولكن المريضة صحت من غيبوبتها وجاهدت حتى قعدت فى سريرها ومدت ذراعيها قائلة:

– لن أرقد مرة أخرى وأنا على قيد الحياة. سأقول لها! هيا اقتربى مني...دعينى أهمس فى أذنك!

وأمسكت بذراع المسز كورنى وأرغمتها على الجلوس بجانب السرير، ثم لاحظت أن المرأتين العجوزتين تحاولان الاستماع فقالت للرئيسة:

– أبعديها من هنا..أسرعي!

فأشارت الرئيسة لهما بالخروج وأمرتهما بإغلاق الباب وراءهما، وعندئذ اطمأنت وقالت بجهد:

– الآن أصغى إلى. .فى هذه الغرفة، وعلى هذا السرير بالذات، كنت أعنى بشابة جميلة جاءت إلى هذا الملجأ ماشية حتى تقرحت قدماها وقد ولدت طفلا ثم ماتت على أثر الوضع...دعينى أتذكر السنة!

فقالت لها الرئيسة! «لا ضرورة للسنة».

ثم قالت المرأة بتأثر ظاهر: «لقد سرقت منها! أجل سرقت!. ولم يكن جسمها قد برد بعد!»

فصاحت بها الرئيسة: «ماذا سرقت؟.قولى !»

– سرقت الشئ الوحيد الذى كانت تملكه!. لقد كانت فى حاجة إلى ثياب تدفئها وطعام يسد جوعا، ومع ذلك احتفظت بتلك الأيقونة الذهبية المعلقة بجيدها ولم ترض أن تبيعها أو ترهنها!

فقالت لها الرئيسة باهتمام: «تكلمي...استمري... من هى تلك الشابة؟.من؟

– لقد عهدت إلى بتلك الأيقونة لأحتفظ بها لابنها...ولكنى عزمت على سرقتها منذ أرتنى إياها معلقة يجيدها!.إن ذنب ذلك الطفل على كاهلي!.لو أنهم عرفوا كل شئ لأحسنوا معاملته!

– عرفوا ماذا؟ تكلمي!

– لقد نشأ الطفل شبيها بأمه، وحين دخلت فى دور النزع همست فى أذنى بأن طفلها إذا عاش وكبر فسيأتى يوم لا يخجل فيه من ذكر اسم أمه.

– ما اسم الطفل؟

فأجابت المرأة بصوت ضعيف: «لقد سموه أوليفر... والذهب الذى سرقته...»

–أجل. أجل. ماذا؟

وكانت منحنية عليها لتسمع ما تقوله، ولكنها تراجعت مذعورة إذ رقدت المرأة ثانية فى سريرها وأمسكت غطاءه بكلتا يديها، ونطقت بألفاظ غير مفهومة، ثم سقطت على الفراش بلا حراك!

وعادت المسز كورنى إلى غرفتها فجلست على كرسى إلى جوار الموقد ووضعت إحدى يديها على عينيها والأخرى على قلبها وتنهدت. وعندئذ قام المستر بمبل من مكانه وانحنى عليها بعطف ظاهر وقال لها: «ماذا جرى يا مسز كورني؟ هل حدث شئ؟»

– آه يا مستر بمبل! .لقد أزعجت بشكل شنيع!

إذن احتسى قليلا من النبيذ!

– كلا...هذا مستحيل...الرف الأعلى من اليمين!

وأشارت بأصبعها إلى الخزانة وقد اعترى جسمها تشنج، فأسرع المستر بمبل وتناول الزجاجة التى أشارت إليها الرئيسة وصب لها منها ملء فنجان وقدمه لها فتجرعت نصفه، وما لبثت أن قالت: «أنا أحسن حالا الآن!».

ومالت بظهرها على مقعدها، فرفع المستر بمبل بصره إلى السماء شاكراً ثم خفضه، وأمسك الفنجان الذى به بقية السائل وأدناه من أنفه، فقالت له المسز كورنى بصوت ضعيف وهى تبتسم له: «انه نعناع..جربه.. إنه مضاف إليه قليل..من شئ آخر!»

فتجرع المستر بمبل رشفة منه، ثم أعقبها برشفة أخرى حتى أتى على آخر الدواء وهو يقول: «إنه حقاً مريح».

ثم سألها عما أزعجها فقالت له: «لا شئ!. إننى امرأة ضعيفة يزعجها أى شئ!»

فأدنى كرسيه منها وقال: «لست ضعيفة يا مسز كورني».

وسكتا برهة، مد خلالها يده وأمسك بيدها وقال: «إننا كلنا مخلوقات ضعيفة!»

وإذ تنهدت المسز كورنى قال لها: «لا تتنهدى يا مسز كورني!»

فقالت: ليس هذا بوسعى يا مستر بمبل!»

ثم تنهدت مرة أخرى!

فنظر المستر بمبل حوله وقال: «هذه غرفة مريحة يا مدام! وإذا أضيفت إليها غرفة ثانية صار لك مسكن مريح!»

فغمغمت قائلة: «سيكون فسيحاً بالنسبة لامرأة وحيدة!»

فرد بلهجة رقيقة: «لكنه يصلح لشخصين!.أليس كذلك يا مسز كورني؟!»

فحنت رأسها خجلا، وخفض هو أيضاً من رأسه لكى ينظر إلى وجهها. فأدارت وجهها جانبا وسحبت يدها من يده لتخرج بها منديلا من جيبها، وسرعان ما أمسكت بها يده مرة أخرى!

ثم سألها وهو يضغط يدها: «إن مجلس الملجأ يعطيك فحماً...أليس كذلك يا مسز كورني!»

فلم يسعها أن تقدر هذه العاطفة المتدفقة إلا بالارتماء بين ذراعية ! وبلغ من تأثره أن طبع قبله على أنفها الطاهر...ثم قال لها:

– أتعلمين يا خالبة لى أن المستر سلوت قد ساءت حالته الليلة؟

فأجابت فى خفر وحياء: «أجل!»

فاستطرد قائلا: «إنه لن يعيش أسبوعا...هكذا يقول الطبيب!.إنه مدير هذا الملجأ..وبموته تخلو وظيفته... وينبغى أن تشغل...آه يا مسز كورني: إن باب الأمل مفتوح أمامنا! ويالها من فرصة سنحت لجمع قلبين ومعيشتين معا!»

ولما تم الاتفاق بينهما هكذا بشكل ودي، أيداه بشرب ملء فنجان آخر من مزيج النعناع.. وكانت المسز كورنى فى حاجة شديدة إليه حتى تهدأ أعصابها فى تلك اللحظة... وفى أثناء تجرع ذلك الشراب أخبرته بموت اللاجئة العجوز فقال لها:

– سأمر على المستر سوربرى ليبعث تابوتا صباح غد. وخرج يكافح برد الليل وهو يفكر فى الترقية التى ينتظرها حتى وصل إلى دكان الحانوتي.

وكان المستر سوربرى وزوجته قد خرجا لتناول الشاى ثم العشاء. ولما كان نوح كلايبول لا يحب أن يجهد نفسه أكثر مما يجب، فقد ترك باب الدكان مفتوحاً بعد أن فات موعد إغلاقه، فدخل المستر بمبل وضرب بعصاه مراراً على لوحة الصراف دون أن يجيبه أحد. وكان هناك ضوء ينبعث من زجاج نافذة الغرفة الخلفية فتجرأ ونظر من خلال النافذة ما كاد يرى ما يجرى هناك حتى تولته دهشة بالغة.. فقد كانت المائدة معدة للعشاء وقد وضع عليها الخبز والزبد وعدد من الصحاف ومعها زجاجة نبيذ، بينما جلس عند طرف المائدة المستر نوح كلايبول وقد مد ساقيه على ذراع الكرسي، وفى إحدى يديه مدية وفى الأخرى قطعة خبز عليها طبقة من الزبد. ووقفت شارلوت وراءه مباشرة وهى تفتح له المحار فيتنازل بازدراده بشراهة ظاهرة! وكان احمرار أنفه وغمز إحدى عينيه يدلان على أنه فى نشوة من شرب الخمر. وقالت له شارلوت:

– هذه محارة سمينة لذيذة يا نوح ياعزيزي. جربها يا نوح... هذه فقط!

فازدردها تواً وقال لها: «ألا تحبين المحار؟»

– لا أحبها كثيراً... إنى أفضل أن أراك تأكلها على أن آكلها أنا!

ما أعجب ذلك!

– والآن خذ واحدة أخرى... ذات لحية!

– لا أقدر أن أكل من المحار أكثر مما أكلت!. تعالى يا شارلوت... أريد أن أقبلك!

وهنا اندفع المستر بمبل إلى الغرفة وصاح: «ماذا تقول؟..أعد ما قلته مرة أخرى!» فصرخت شارلوت وأخفت وجهها فى مئزرها!. أما نوح كلايبول فإنه لم يتحرك من مكانه وإنما رفع قدميه من فوق ذراع كرسيه ووضعهما على الأرض ونظر إلى المستر بمبل فى رعب شديد. فقال له هذا:

– قلها مرة أخرى أيها الوغد!. كيف تجرؤ على قول مثل هذه الكلمة؟! وأنت قليلة الحياء.. كيف تشجعينه على ذلك؟»

فقال نوح متلعثما: «إني لم أقصد ما قلته يا سيدي... إنها هي التي تريد مني أن أقبلها دائماً أردت أم لم أرد!..إنها تربت تحت ذقني يا سيدى وتطارحني الغرام!»

وهنا صاح به المستر بمبل: «اسكت!. وأنت يا قليلة الحياء اهبطي إلى الطابق الأدنى... أغلق المحل يا نوح وحذار أن تنطق بلفظ حتى يأتي سيدك...ومتى جاء قل له إن المستر بمبل يريد دفن جثة لاجئة عجوز صباح غد بعد الفطور...أسامع أنت؟.أم تفكر في التقبيل؟..إن شرور الطبقة الدنيا وآثامها في هذه الأبراشية قد بلغت مبلغاً مخيفاً! وإذا لم يعالج البرلمان هذه الحالة فسيكون في ذلك خراب البلاد وفساد أخلاق الفلاحين إلى الأبد!»

ثم غادر دكان الحانوتى مقطب الجبين فى كثير من الكبرياء!

غرام طاهر

ولى الربيع سريعا وحل فصل الصيف، وبدت القرية فى تمام زينتها التى حبتها بها الطبيعة ولبست الأشجار حلتها الزاهية. ولكن الحياة ظلت على حالها هادئة فى بيت المسز ما يلى وفى إحدى الليالى مشى أوليفر تويست معها ومع ابنة أخيها فى نزهة طويلة، وكان النهار حاراً فجاء المساء بنسيم عليل. وقطع الثلاثة معاً مسافة أطول كثيراً مما اعتادوه إذا خرجوا للرياضة. وقد شغلهم الحديث فطاب لهم المشى فى ضوء القمر ووسط النسيم المنعش. ولما شعرت المسز ما يلى بالتعب قفلوا راجعين.

وما إن خلعت روز قبعتها حتى جلست إلى البيانو وعزفت بضع دقائق. وخيل إلى المسز ما يلى أنها تبكى فقالت لها: «ماذا بك يا روز؟» ولكنها لم تجب فقامت عمتها وانحنت فوقها وإذا بها تتبين فى عينيها الدموع فقالت لها مرتاعة: «ما هذا يا عزيزتي! أتبكين؟» فكفكفت الفتاة دمعها وقالت: «لا شئ يا عمتي.. لا أدرى ماذا بى ولكنى أشعر..»

–لعلك لست مريضة يا عزيزتي؟

–كلا. كلا لست مريضة... وستتحسن حالتى توا...أرجو أن تغلق النافذة.. فسارع أوليفر إلى إغلاق النافذة، وحاولت روز أن تتغلب على ما بها فعادت تعزف على البيانو ولكن أصابعها خانتها فأوقفت العزف وارتمت على الأريكة وتركت لدمعها العنان! وهنا أحاطتها المسز مايلى بذراعيها وقالت لها:

–يا طفلتى العزيزة...إنى لم أرك قط هكذا!

–لقد بذلت جهدى كيلا أزعجك، ولكنى لا أستطيع المزيد... أحسبنى مريضة حقاً يا عمتي!

وقد كانت مريضة حقاً..ولما جئ بالشموع لوحظ أن وجهها قد علاه شحوب شديد وإن لم يفقد شيئاً من حسنه الفتان! ولم تمض لحظة حتى أصطبغ وجهها بلون قان وارتفعت درجة حرارتها إلى حد مخيف!

وتلا ذلك مرض طويل لزمت فيه الفراش. وكان الدكتور لوسبرن يعودها كل يوم، وإذا حاول أن يطمئن عليها عمتها وأوليفر بلسانه فإن مظهر الجد البادى عليه كان ينم عما بنفسه من قلق! «وباتت روز ليالى متوالية وهى تتأرجح بين الموت والحياة فكانت عمتها لا تنام الليل خوفاً عليها وكان أوليفر فى هم دائم وكذلك المستر جيلز و«الولد» بيلتيز إذ كانت تلك الفتاة الوديعة قد نالت محبة كل من عرفها من قريب!»

وأخيراً..زال عنها الخطر ودخلت فى طور التفاهة، فتبدل الحزن فرحاً، وحل الرجاء محل اليأس. وفى صباح أحد الأيام عاد أوليفر يحمل أزهاراً جمعها من الحقول لأجل روز، فوجد أمام باب البيت عربة وقفت ونزل منها المستر جيلز، ولما اقترب أوليفر من العربة وجد بداخلها شابا وسيما وجيه المنظر يقول للمستر جيلز:

– يحسن بك أن تذهب أنت تواً إلى أمى يا مستر جيلز.. أما أنا فسأمشى قليلا قبل أن أقابلها.. وقل لها أنى آت عما قريب!

– حسناً يا مستر هاري!

كانت المسز مايلى تواقة إلى ولدها هارى الذى لم تره منذ عهد بعيد.. وكان اللقاء بينهما مؤثراً، وما لبث هارى أن قال لها: «أماه..لماذا لم تكتبى إلى من قبل لتخبرينى بمرض روز؟»

– لقد كتبت خطابا إليك، ولكنى عدت فرأيت ألا أرسله حتى أعرف ما يقوله الدكتور لوسبرن عن حالتها!

– ولكن لماذا كنت تعرضيننى لوقع ذلك الحادث الذى كاد يقع؟. لو أن روز لا قدر الله... إنى لا أقدر أن أنطق بالكلمة!.. لو أن مرضها انتهى إلى نتيجة أخرى لا قدر الله فإنى ما كنت لأغفر لك ذلك أبداً!. إنى ما كنت لأعرف لى هناءة طول حياتي!

– لو أن ذلك قد حدث لقوض صرح سعادتك..غير أن مجيئك إلى هنا متأخراً يوما أو متقدما يوما كان يصبح قليل الأهمية!

– إن الأمر يا أماه...يجب أن تعرفى أن....

– إنى أعرف أنها أهل لأصدق حب يمكن أن يكنه قلب رجل! وأعرف أن إخلاصها يجب أن يقابله إخلاص يدوم مدى الحياة.. ولولا شعورى بذلك لما صعب علىَّ أداء ما يفرضه علىَّ واجبي!

فرد هارى قائلا: «هذه قسوة يا أماه! أتحسبيننى لاأزال فتى يجهل حقيقة شعوره؟» فقالت المسز مايلى وهى تضع يدها على كتفه: «أظن يا بنى العزيز أن الشباب يتأثر ببواعث كريمة قد لاتدوم. وأن بعض هذه البواعث متى أشبع مضى سريعاً!»

ثم تفرست فى وجهه وقالت: «وأظن قبل كل شئ أن الشاب الطموح إذا تزوج فتاة تشوب اسمها شائبة– وإن لم تكن من ذنبها وليس لها يد فيها– فقد تبقى هذه الشائبة عالقة بها وبأولاده منها، وكلما زاد نجاحا فى الحياة زاد غمز الناس ولمزهم من جرائها، فرد هارى قائلا: «أماه.. إن الشاب الذى يسلك مثل هذا المسلك إنما يكون وحشاً أنانياً، غير جدير باسمه ولا بالمرأة التى تفنيها! إن العذاب الذى قاسيته فى اليومين الأخيرين ليحفزنى على الاعتراف لك بغرام ليس ابن أمس وليس بالنزعة العابرة..إنه غرامى بروز، تلك الفتاة الحلوة الوديعة! إن قلبى مفعم بحبها كما لم يحب رجل امرأة قط. وأنا ليست لى أمنية فى الحياة أعز من الزواج بها. وأنت إذا عارضت رغبتى هذه

فإنما تقضين بيدك على طمأنينتى وهناءتي. ففكرى فى ذلك يا أماه.

فقالت المسز ما يلي: «إننى إنما أحرص على القلوب النقية الحساسة، ولهذا أريد أن أحول دون كل جرح قد يصيبها! ولكنا قد تحدثنا بهذا الشأن بما فيه الكفاية».

فى صباح اليوم التالى كانت روز وحدها فى غرفة الفطور، فدخل عليها هارى وقال لها بعد تردد: «أرجو أن تسمحى لى بدقائق أكلمك فيها». ثم أردف قائلا:

– إن ما أريد أن أحدثك عنه قد خطر ببالك ولا ريب. إن أعز آمال فؤادى ليس غريباً عنك وإن كنت لم أصارحك بها بعد!

وكانت روز قد شحب وجهها منذ دخل الغرفة، ولكن ربما يكون ذلك من أثر مرضها الطويل. وقد ردت عليه بانحناءة بسيطة من رأسها، ثم مالت على بعض أزهار فى آنية قريبة منها ومكثت تنتظر ما يقول!

وبدأ حديثه قائلا: «كان ينبغى لك ذلك.. سامحينى إذ أصارحك بهذا ولكنى كنت أتمنى لو سافرت!»

– لقد جئت إلى هنا مدفوعاً بأشد المخاوف، إذ خشيت أن أفقد أعز مخلوق عقدت عليه آمالي!. لقد كنت مشرفة على الموت، تتأرجحين بينه وبين الحياة. وزاد فى خوفى أن علمت بأن أجمل الشباب وأرقاه حين ينتابه المرض يحد به روحه الطاهرة نحو مستقره الأمين، وأن أجمل الأزهار وأحسنها تبادر عادة إلى الذبول!

فانهمل الدمع من عينيها وهى تسمع هذه الكلمات. ثم استطرد قائلا:

– لقد كانت مخلوقة تشبه الملائكة طهراً تواجه خطر الموت! ولكنى صرت أدعو الله آناء الليل وأطراف النهار حتى ردك إلى الحياة!. وكنت أرقبك وأنت تعودين إلينا من عالم الملائكة الذى يحاول أن يجذبك إليه..

كنت أرقبك بعينين كادتا تفقدان البصر من القلق والحب....فلا تقولى لى الآن إنك تودين لو أنى حرمت هذه المتعة التى ملأت قلبى حباً للإنسانية كلها!

فقالت روز وهى تبكي: «إنى لم أقصد ذلك! وإنما وددت لو سافرت قبل اليوم لتتابع السعى وراء مقاصدك السامية التى هى جديرة بك!»

– ليس لى مقصد أسمى من أن أكسب لنفسى قلباً طاهراً كقلبك.. وأمسك بيدها فى يده. يا روز! يا حبيبتى روز!. لقد أحببتك منذ سنوات... وإنما أردت أن أشق طريقى إلى الشهرة والمجد لكى أعود إليك فخوراً وأقول لك إنما وصلت إلى ما وصلت إليه من أجلك، لكى تشركينى فيه. وكنت أتصور نفسى فى أحلام اليقظة وأنا أذكرك، هأنذا أعرض عليك قلبى الذى هو ملكك من زمن، وأعقد كل أملى فى الحياة على الكلمة التى تخرج من فمك!

فقالت الفتاة وهى تجاهد كى تمالك شعورها: «إن مسلكك نحوى كان دائماً مسلكا نبيلا!.. ولا تحسبننى ناكرة للجميل، أو غير مقدرة لشعورك الكريم، إذ أدلى إليك بالجواب!»

– تريدين أن أسعى كى أكون أهلا لك يا روز. أليس كذلك؟

فأجابت قائلة: «بل هو أن تحاول أن تنساني!. تنسانى لا كرفيقة قديمة مخلصة لك فإن ذلك يجرح قلبي...ولكن على أنى مقصد حبك...انظر إلى العالم، وما أكثر القلوب التى تكون أنت فخوراً بكسبها لنفسك! وامنحنى أية عاطفة من نوع آخر إذا شئت، وثق بأنى سأكون أخلص صديقة لك!»

وسكتت برهة انهمر فيها الدمع من عينيها فغطت وجهها بإحدى يديها، وأخيراً قال لها هارى بصوت منخفض حزين:

–ما هى الدوافع التى أملت عليك هذا القرار يا روز؟–
أجل.. من حقك أن تعرفها! ولكن مهما تقل فلن يغير شيئاً من القرار الذى انتهيت إليه....إنه واجب يجب أن أؤديه، وأنا مدينة به لنفسى وللغير على السواء!

– لنفسك؟!

– أجل يا هاري! فإنني وأنا الفتاة التى لا أهل لها، والتى يشوب اسمها شائبة، لا يصح أن أدع أصدقاءك يعتقدون أنى استسلمت لأول عاطفة بدرت منك، وأنى جعلت من نفسى قيداً يعوق آمالك ويثقل مستقبلك. وأما واجبى نحوك فهو أن أحول دونك ووضع هذا العائق فى طريقك

فقال هارى: «إذا كانت ميولك تتفق مع شعورك بالواجب...».

فقاطعته وقد احمر وجهها: «كلا! إنها غير متفقة مع هذا الشعور!

فقال هارى: «إذن أنت مستجيبة لحبي! .قولى ذلك يا روز..وخففى من مرارة خيبة الأمل التى صدمتنى بها!»

–لو أننى استطعت أن أمنع الضرر عمن أحبه، لكنت...

–لكنت تلقيت غرامى بشكل آخر؟.لا تخفى ذلك على الأقل يا روز!

فسحبت يدها من يده وقالت: «أجل! ولكن لماذا نطيل من هذا الحديث المؤلم؟

إنه شديد الإيلام لي، ولكنه مع هذا سيبعث فى نفسى سعادة لا حد لها، لأنه سوف يسعدنى أن أذكر أنى فى وقت ما كنت موضع تقديرك، وكل فوز تكسبه فى حياتك سيمدنى بشعور القوة والثبات! وداعاً يا هاري! ولن نلتقى أبداً بالصفة التى التقينا بها اليوم! ولكن ستجمعنا رابطة أخرى هى رابطة الأخوة السعيدة. وسأدعو الله لك بالفوز والنجاح فى الحياة!»

– كلمة أخرى يا روز. أريد أن أسمع من شفتيك السبب الذى دعاك إلى ذلك!

فقالت روز بثبات: «إن مستقبلك فى الحياة العامة سيكون مستقبلا باهراً كما يؤهلك له مواهبك ونفوذ ذوى قرباك...وهؤلاء قوم ذوو كبرياء. وأنا لا أريد أن أجعل أمى موضع تحقيرهم، كما لا أحب أن أكون سبباً فى فشل

ابـن سـيدة كانـت لى بمنزلـة الأم وبالإجمال، وهنا أدارت وجههـا إذ خانها ثباتها لحظـة، توجـد شـائبة تشـوب اسمـي، وقـد اعتـاد العـالم أن يراهـا علـى رؤوس الأبريـاء. ولـن أدع هـذه الشـائبة تحـل فـوق رأس سـواى بـل سـأحملها وحـدي!»

–كلمـة أخـرى يـا روز، يـا أعـز النـاس.. لـو أننـى كنـت أقـل حظـاً فـى نظـر النـاس، أعنـى لـو كنـت فقـيراً خامـلا، أكنـت ترفضـين حبـى وقتئـذ؟ أم أن احتمـال وصـولى إلى الثـروة والمجـد هـو الـذى حفـزك إلى ذلـك؟

–أرجـو ألا تلـح فـى طلـب الجواب...علـى أن الفـرض الـذى قـام عليـه سـؤالك لا يمكـن أن يكـون... ليـس مـن العـدل ولا مـن الشـفقة أن تطلـب منـى جوابـاً عـن هـذا السـؤال!

–لـو أن جوابـك هـو مـا أمـل أن يكـون لـكان مصدر سـعادة لى فـى حياتى ولـكان هـو النـور الـذى يضئ لى الطريق! بـالله يا روز لا تضنى علـى ببضع كلمات قـد تحـى مـوات الأمل فى نفسـى وأنا الـذى أحبك أكثر من أى شئ فى الوجود!

–إذن.. أقـول لـك إنـك لـو كان حظـك غـير مـا هـو، ولـو كان مسـتواك أعلـى منـى قليـلا لا بمراحـل، ولـو أنـى اسـتطعت أن أجلـب لـك الأمـن والطمأنينـة فـى حيـاة متواضعـة، بـدل أن أكـون عائقـاً لـك فـى طموحـك، إذن لوفـر القـدر علـى هـذه التجربـة...إن لـدى الآن كل أسـباب السـعادة... ولكنـى أقـر يـا هـارى بأنـى فـى تلـك الحالـة كنـت أصـير أسـعد حتـى الآن!

ولم تسـتطع أن تتمالـك شـعورها بعـد ذلـك، فجـرى الدمـع مـدراراً علـى خديهـا، وقالـت وهـى تمـد إليـه يدهـا:

–معذرة!.إنى لا أستطيع التغلب على هذا الضعف..يجب أن أتركك الآن!

إنـى أطلـب منـك وعـداً واحـداً.. هـو أن تسـمحى لى بـأن أحدثـك عـن هـذا الأمـر مـرة أخـرى، مـرة واحـدة فقـط، وقـد يكـون ذلـك فـى خـلال سـنة وقـد يكـون قبـل ذلـك، ولآخـر مـرة!

فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت: «لا تحدثنى وقتئذ لكى أغير القرار الذى انتهيت إليه، فلا جدوى من ذلك».

كلا. بل لأسمعك تكررينه...سأضع قلبى تحت قدميك مهما يكن لى من ثروة أو مركز! .فإذا صممت وقتئذ على رأيك هذا فإنى لن أحاول تغييره بقول أو عمل!

فليكن ذلك! .إنما هو ألم جديد أتحمله، وقد أكون وقتئذ أقدر على حمله!

ومدت إليه يدها ولكنه ضمها إلى صدره وطبع قبلة على جبينها وخرج من الغرفة!

ولما تأهب هارى للسفر قال لأوليفر تويست همساً: «أتتقن الكتابة الآن يا أوليفر؟»

– آمل ذلك يا سيدي!

– إنى لن أعود إلى البيت...وأحسبنى سأغيب فترة طويلة. وسأطلب منك أن تكتب إلى خطاباً كل أسبوعين مثلا... وتكتب اسمى على العنوان وتحته «يحفظ بكتب البريد العام– لندن»..أتعدنى بذلك؟

– بالتأكيد يا سيدي. وسأكون فخوراً بذلك.

وأحب أن تخبرنى فى خطاباتك عن صحة والدتى وروز...ويمكنك أن تملأ ورقة الخطاب بأن تخبرنى عن رياضتك معهما...وعما تتحدثون به. وعما أن كانت هي...أعنى هما، سعيدتين وهكذا. أفاهم يا أوليفر؟

– أجل يا سيدي!

– وأنا أفضل ألا تخبرهما بذلك، فقد يدفع ذلك أمى إلى أن تزيد فى الكتابة إلىَّ مع أن كتابة الخطابات تتعبها. فليكن هذا الأمر سراً بينى وبينك. ولا تنس أن تكتب لى عن كل شئ.. إنى أعتمد عليك!

سر فى بئر

جلس المستر بمبل فى غرفة الاستقبال بالملجأ ينظر نحو الموقد مقطب الجبين، مستغرقاً فى الفكر. وكان قد تزوج المسز كورنى وصارت تدعى المسز بمبل، وتحقق أمله الآخر فى الترقية فأصبح مدير الملجأ، وحل غيره محله فى وظيفة المعاون. ثم قال يحدث نفسه: «غداً يتم شهران». وتنهد ثم قال: «لكأنه عمر طويل!» وسكت لحظة ثم استطرد: «لقد بعت نفسى فى مقابل ست ملاعق شاى وملعقتى سكر ووعاء لبن، تضاف إليها قطع قليلة من أثاث قديم، وعشرون جنيها نقداً! ما كان أرخصني! حقاً أنى رخيص! «ولكنه ارتاع إذ سمع صوتا يقول له بحدة: «رخيص؟.إنك تعد غالياً لو دفع فى مقابلك أى ثمن مهما يكن زهيداً جداً!. وقد اشتريتك بثمن فادح كما يعلم الله!».

والتفت المستر بمبل ليرى أمامه زوجته، وكانت قد سمعت الجملة الأخيرة من حديثه لنفسه. ولكنه استنفر نخوته وقال لها: «المسز بمبل؟ مدام».

– ماذا تريد؟

فرمقها بنظرة صارمة وقال لها: «انظرى إلىَّ» ،ثم قال لنفسه: «إنها إذا لم تخضعها هذه النظرة التى طالما أخافت اللاجئين واللاجئات، فقد ضعت لا محالة!»

ولسنا ندرى أكان اللاجئون يخشون نظرة المستر بمبل من أثر الجوع الذى يعانونه، أم أن زوجته رئيسة الملجأ كانت بطبعها فى أمان من أثر كل نظرة مهما تشتد، ولكنها، أيا كان الحال، لم ترعبها نظرة زوجها الجديد، بل على العكس قابلتها

بـازدراء شـديد، وزادت علـى ذلـك أن ضحكـت سـاخرة وقالـت لـه:

– قم واغرب عن وجهى إلا إذا أردت منى أن أفعل شيئاً خطيراً..!

فقام المستر بمبل وهو يسائل نفسه عما تعنى بذلك الشئ الخطير، ونظر نحو الباب فقالت له: «أذاهب أنت؟»

فأسرع نحو الباب أكثر من قبل وأجاب قائلا: «بالتأكيد يا عزيزتي.. بالتأكيد!. إننى لم أقصد أن...أنا ذاهب يا عزيزتي... لم أكن أحسبك عنيفة إلى هذا الحد!»

غير أنه لم يكن قد شرب بعد كأس الهوان حتى الثمالة. فقد ذهب يطوف بأنحاء الملجأ، وهو يفكر لأول مرة فى أن قوانين الفقر هى حقاً قاسية،وأن أولئك الرجال الذين يهجرون زوجاتهم ويدعونهن عالة على المجتمع، يستحقون التكريم لا العقاب!. ثم دخل غرفة بها عدد من اللاجئات كن مشغولات بغسل بياضات الملجأ، وهن يتحدثن معاً فيسمع لكلامهن ضجة، فقال لنفسه: «إن هؤلاء النسوة على الأقل لا يزلن يعترفن بامتياز الرجل وسلطانه عليهن!» ومن ثم صاح بهن قائلا: «أنتن هناك! ما هذه الضجة التى تحدثنها؟»

وبهذه الكلمات دخل الغرفة غاضباً متكبراً، غير أنه سرعان ما بانت عليه الذلة والمسكنة فقد أبصر زوجته بين أولئك النسوة، فقال لها بلهجة المعتذر:

– يا عزيزتي..لم أكن أعلم أنك هنا!

ولكن المسز بمبل لم تكن تطيق أى تردد فى تنفيذ أوامرها، فأمسكت وعاء ممتلئا بغسالة الصابون وأنذرته بصبه عليه إن لم يغادر المكان توا!

ومشى من شارع إلى آخر حتى يخفف المشى ما به من حزن. ثم شعر بالظمأ، ومر على عدة حانات حتى وقف أخيراً بنافذة إحداها، وكانت بشارع جانبي، وقد لحظ أنها ليس بها «سوى عميل

واحـد، فشـجعه ذلـك علـى الدخـول، وقصـد إلى غرفـة فيهـا منعزلـة!

وكان الرجـل المقيـم هنـاك طويـل القامـة أسمـر السـحنة، يرتـدى معطفاً كبـيراً، ويبـدو عليـه أنـه مـن الغربـاء، وتـدل نظراتـه الكليلـة والتراب الـذى على ثيابـه، علـى أنـه قـد سـافر مسـافة طويلـة. ولما دخل المستر بمبـل نظـر إليه ذلك الرجـل نظـرة تسـاؤل، ولكنـه لم يكد يتنازل إلى رد تحية القادم بإيماءة من رأسـه!

ولـما كان للمستر بمبـل كرامـة يكفـى شـخصين لا شـخصاً واحـداً، فقـد تجـرع الشـراب الـذى طلبـه صامتـاً، وأخـذ يقـرأ إحـدى الصحـف بكبريـاء ظاهـرة. غـير أنـه شـعر برغبـة جامحـة فـى أن ينظـر خلسـة إلى ذلـك الغريـب بـين حـين وآخـر، وكان فـى كل مـرة يديـر بصـره عنـه مسـرعاً إذا حـاول هـذا أن ينظـر إليـه كذلـك. حتـى إذا تقابلـت نظرتهمـا مـراراً قـال لـه ذلـك الغريـب:

– لقـد جئـت إلى هـذه البلـدة لألقـاك. وقـد جـاءت بـك المصادفـة إلى هنـا قبـل أن أبحـث عنـك. والآن أريـد منـك بعـض معلومـات تهمنـي. ولا تظـن أنـى أطلبهـا بغـير مقابـل مهمـا تكـن معلومـات طفيفة...خـذ هـذا فـى البدايـة!»

وإذ قـال ذلـك وضـع علـى المائـدة أمامـه جنيهـين مـن الذهـب ببـطء وعنايـة حتـى لا يسـمع رنينهمـا فـى الحانـة. ولـما فحصهمـا المسـتر بمبـل ليسـتوثق مـن أنهمـا غـير زائفـين، ووضعهمـا فـى جيبـه مطمئنـا، قـال الشـاب: «أتذكـر طفـلا ولـد فـى الملجـأ، كان وديـع الطبـع، شـاحب الوجـه، اختـاره حانوتـى فـى هـذه البلـدة صبيـاً لـه، ثـم هـرب إلى لنـدن!»

فقـال المسـتر بمبـل: «أنـت تعنـى أوليفـر تويسـت! إنـى أذكـره طبعـاً!. لم يكـن مـن غلمـان الملجـأ مـن يماثلـه عنـاداً... لقـد كان..»

فقاطعـه الشـاب الغريـب ولم يدعـه يسـرد مسـاوئ أوليفـر وقـال لـه: «إنـى لا أريـد أن أسمـع عنـه. وإنمـا أسـألك عـن المـرأة. عـن تلـك الحيزبـون التـى عنيـت بأمـه حتـى ماتـت..»

فقال: لقد ماتت فى فصل الشتاء الأخير!»

فنظر إليه الشاب، ثم استغرق فى الفكر دون أن يحول بصره عنه، وكأنه لا يدرى أيسر لذلك النبأ أم يأسف، ولكنه أخيراً بدا عليه الارتياح وقام يريد الانصراف! غير أن المستر بمبل قد أوتى مكراً ودهاء، وقد رأى أن الفرصة سائحة لاستغلال سر لدى زوجته. وقال له بشكل يحيط به الخفاء والغموض: «هناك امرأة انفردت بالعجوز سالى قبيل موتها وأنه يعتقد أن فى إمكانها إلقاء شئ من الضوء على ما يستعلم عنه!»

فقال الشاب باهتمام وقد ثارت مخاوفه من جديد: «وكيف أعثر على هذه المرأة؟»

فقال المستر بمبل: «غدا!»

فقال الشاب: «فى الساعة التاسعة مساء...أحضرها معك. ولست بحاجة لأن أوصيك بالكتمان، فإن الأمر يتعلق بصالحك!» وخرج دون تحية بعد أن أكد الموعد الذى حدده له!

وفى اليوم التالى ترك المستر بمبل وزوجته الشارع الرئيسى للبلدة، ومضيا فى طريق ضيق صوب عدد من البيوت المتهدمة المبعثرة على مسافة ميل ونصف تقريباً من البلدة وقد شيدت فى مكان مستنقع منخفض يحف بالنهر!

وكان المستر بمبل وزوجته ملتفين بثياب قديمة رخيصة، تؤدى غرضاً مزدوجا، هو وقايتهما من المطر، وعدم لفت الأنظار إليهما فى الوقت نفسه. وكان الزوج يحمل مصباحاً غير مضاء بعد، وقد تقدم زوجته بخطوات لتمشى فى أثره فى ذلك الطريق

وكان ذلك المكان معروفاً بأنه موئل أناس يدعون أنهم عمال، ولكن الواقع أنهم يعيشون على السرقة والإجرام. وكان فى الواقع مجموعة من العشش، بعضها مبنى بالطوب المفكك وبعضها الآخر مقام من خشب

السفن المتآكل، من غير أى نظام يشملها!.

وكانت لا تبعد إلا مسافة بضع أقدام من شاطئ النهر. وقد أسند إلى الجدران بعض زوارق محطمة، وظهر هنا وهناك مجداف أو حبل من حبال السفن، ليدل على أن ساكنى تلك المنازل يشتغلون بصناعة تتعلق بالنهر. ولكن من يمعن النظر لا يلبث حتى يرى أن تلك الأشياء إنما تركت هناك لحفظ المظاهر لا لغرض استخدامها فعلا!

ووسط تلك المجموعة من الأكواخ قام بناء كبير كان فيما مضى معملا لصناعة ما. ولعله فى زمانه كان يشغل الأيدى العاملة فى المنطقة المجاورة، ولكنه صار مهجوراً منذ سنين، وتداعى بناؤه ونالت الجرذ والديدان والرطوبة من الأعمدة التى يقوم عليها. وقد سقط جانب كبير منه فى الماء. وبقى الجانب الآخر منحنياً على النهر وكأنه ينتظر فرصة موائمة لينقض كذلك!

وأمام هذه الدار وقف المستر بمبل وزوجته، إذ ومض أول برق وبدأ المطر يهطل بعنف! وكانت بيد الزوج ورقة رجع إليها وقال: «لابد أن يكون المكان هنا!» وعندئذ صاح به صوت مكان مرتفع: «هالو! أنت!»

وتبع المستر بمبل هذا الصوت ورفع رأسه فرأى رجلا يطل من الطابق الثانى. وقال له هذا: «انتظر.. سأوفيك بعد لحظة!»

وسألت المسز بمبل زوجها: «أهذا هو الرجل؟»

فأومأ برأسه موافقاً بينما استطردت هى فقالت:

– كن حذراً كما قلت لك! ولا تذكر له إلا أقل ما يمكن!

وكان المستر بمبل قد نظر إلى ذلك البناء بكثير من الريبة، حتى لقد بدأ يسائل نفسه عما إن كان يجدر به أن يستمر فى هذه المجازفة، وإذا بمونكس قد جاء من باب صغير عند المكان الذى وقفا فيه، وصاح به وهو يضرب الأرض بقدمه:

– هيا ادخلا..لا تدعانى أقف هنا فى العراء!

وكانت المرأة قد ترددت لحظة ثم دخلت بشجاعة. وتبعها زوجها وقد خجل من أن يبدى خوفه...ولكنه كان متضايقاً وقد ولى عنه مظهر الوقار الذى يحب أن يظهر به!

ولما دخلا وأوصد مونكس الباب وراءهما التفت إلى المستر بمبل وقال له: «لماذا كنت وافقاً فى المطر كأنك لا تريد أن تدخل؟»

فتلعثم الرجل وأجاب: «لقد كنا...نلتمس شيئاً من برودة الجو!»

فقال له مونكس: «برودة الجو؟ إن كل المطر الذى يمكن أن ينزل من السماء لا يمكن أن يطفئ نار جهنم التى قد تحملها بين جنبيك!»

ثم التفت مونكس إلى المرأة وتفرس فيها حتى اضطرت برغم شجاعتها أن تحيد ببصرها عنه وتنظر إلى الأرض!. ثم سأل المستر قائلا:

– هل هذه هى المرأة؟

فتنحنح وأجاب: «أجل ! هذه هى المرأة!»

وهنا قالت المسز بمبل؟ «أحسبك تظن أن النساء لا يكتمن سراً؟»

– إنى أعرف أنهن دائماً يحتفظن بسر واحد حتى يكتشف

فسألته الرئيسة: «وما هو؟»

– فقدان سمعتهن الطيبة! وبناء على هذه القاعدة، إذا كانت المرأة شريكة فى سر قد يؤدى إلى الحكم عليها بالنفى أو الإعدام، فإنى لا أخشى أن تفشيه لأى أحد. لست أنا الذى يخشى ذلك..هل فهمت؟

فقالت وقد احمر وجهها قليلا: «كلا!» فقال مونكس: «بالطبع لا تفهمين!»

ثم تفضل عليهما بما هو بين الابتسامة والعبوس وأشار إليهما ليتبعاه، وأسرع فى ذلك الجناح الذى كان فسيحاً ولكنه واطئ السقف. وهم بأن يصعد سلماً شديد الانحدار بل هو بالأحرى سلم معلق، يؤدى إلى طابق أعلى، وإذا بوميض من البرق يضئ، ثم يتبعه رعد هز البيت من أساسه!

فتراجع إلى الوراء وقال: «اسمعا هذا الرعد! لكأنه يتردد صداه فى ألف كهف تختبئ بها الشياطين! إنى أكره هذا الصوت!»

ومكث صامتهاً لحظة، ثم أزاح يديه من فوق وجهه، فظهر للمستر بمبل مبلغ خوفه وذعره. وأدرك مونكس أنه قد لحظ ذلك منه فقال: «إن هذه النوبة تنتابنى أحيانا! وقد يأتى بها الرعد. ولكنها انتهت الآن!»

ثم صعد السلم المعلق وهما يتبعانه، حتى وصل بسرعة إلى غرفة بأعلى السلم، فأنزل مصباحاً معلقاً بحبل وبكرة فى السقف، وسلط ضوءه الضعيف على مائدة وثلاثة كراس. ولما جلس الثلاثة إلى تلك المائدة قال مونكس:

– والآن كلما أسرعنا فى أداء عملنا كان ذلك خيراً لنا..إن المرأة تعرف ما نحن بصدده..أليس كذلك؟

وكان هذا السؤال موجها إلى المستر بمبل، ولكن زوجته أجابت بأنها تعرف الموضوع حق المعرفة!

–إذن كان صادقاً إذ قال لى أنك كنت مع تلك المرأة الشمطاء فى الليلة التى ماتت فيها، وأنها أخبرتك بشئ ما!

فقالت المسز بمبل مقاطعة كلامه: «لقد أخبرتنى عن الغلام الذى ذكرت اسمه».

فسألها مونكس: «إن أول سؤال أوجهه إليك هو..من أى نوع كان الخبز الذى أسرته إليك؟»

فقالت المرأة: «ها هو السؤال الثاني..أما السؤال الأول فهو..ما قيمة ذلك؟»

فقال لها: «من الذى يقدر أن يعرف قيمته قبل معرفة نوعه؟»

فأجابت المسز بمبل، وكانت لا تنقصها الجرأة كما لحظ محدثها، فقالت: «إنى موقنة أنه لا يعرف قيمته أحد مثلك!»

– تعنين أنه يساوى مبلغا من المال؟

– أحسبه كذلك!

فقال مونكس: «لقد كان شيئاً أخذ منها.. شيئاً كانت تلبسه؟»

فأجابت المسز بمبل: «ما عليك إلا أن تعرض الثمن... لقد سمعت الآن منك ما يكفى دلالة على أنك الرجل الذى ينبغى أن أكلمه فى هذا الأمر!»

ولم يكن المستر بمبل قد أطلعته زوجته على ما قالته لها المرأة سالل حين ماتت، ولذلك أخذ يصغى إلى هذا الحوار باهتمام ودهشة. ثم قالت المسز بمبل: «ما قيمة هذا السر؟»

فأجاب مونكس قائلا: «قد لا يساوى شيئاً، وقد يساوى عشرين جنيها..تكلمى تعرف كم يساوي؟»

فقالت له: «أضف خمسة إلى المبلغ الذى ذكرته وسلمنى خمسة وعشرين جنيها ذهبا أقل لك ما أعرفه.. أما قبل ذلك فلا!»

فصاح مونكس وقد تراجع إلى الوراء مندهشاً: «خمسة وعشرين جنيها؟»

وردت المسز بمبل قائلة:

– لقد كان كلامى واضحاً جداً!.على أنه ليس بالمبلغ الفادح!

– ليس ثمناً فادحا لسر تافه قد لا يكون شيئاً إذا ذكر، وقد بقى ميتا مدة اثنتى عشرة سنة!»

فأجابت الرئيسة بعدم الاكتراث الذى أظهرته منذ البداية:

– أن مثل هذا السر يحفظ قسمته..أنه كالخمر المعتقة، تتضاعف قيمتها مع مضى الزمن...أما أنه بقى ميتاً فهناك أموات يرقدون تحت الثرى اثنى عشر ألف سنة أو اثنى عشر مليون سنة، ثم يحكون حكاية عجيبة فى النهاية!

– وماذا لو دفعت ثمنا لشئ ثم يتضح أنه بلا قيمة؟

– فأجابت الرئيسة: «عندئذ تستطيع استعادة ما دفعته فوراً، بغير عناء...إننى لست امرأة وحيدة هنا لا يحميها أحد!»

وهنا قال المستر بمبل بصوت يرتعش من الخوف:

– لست وحيدة يا عزيزتي..إننى هنا! وفضلا عن ذلك أرى المستر مونكس أنبل نفسا من أن يستعمل العنف مع موظفى الأبراشية...إن المستر مونكس يعلم يا عزيزتى أنى لست شابا بل أنى أقرب إلى الشيخوخة.. ولكنه لابد قد سمع بأنى رجل ذو حزم وعزم، وإن لى قوة خارقة، إذا أثيرت ثائرتي!..وإنما أحتاج إلى شئ يثيرني. هذا كل ما فى الأمر!

وإذ قال ذلك قبض على المصباح الذى معه بقوة مفتعلة...فالتفتت إليه زوجته وقالت له:

– أنت رجل أحمق! ويحسن بك أن تمسك لسانك!

وقال مونكس وهو متجهم الوجه: «كان خيراً له أن يقطع لسانه قبل أن يأتى إلى هنا، إذا كان لا يمكنه أن يتكلم بصوت أكثر انخفاضا!.إذن هو زوجك؟هيه؟»

فغمغمت الرئيسة قائلة: «أجل هو زوجي!»

– لقد حسبت ذلك حين جئتما! هذا أفضل لي. فإنى لا أتردد فى التعامل مع شخصين حين أرى أن إرادة واحدة تسيرهما...إنى جاد فى قولي. انظرى هنا!»

ومد يده فى جيبه وأخرج كيساً وأخذ منه خمسة وعشرين جنيها ذهباً ووضعها على المائدة، ثم أزاحها نحو المرأة قائلا:

– الآن خذى هذا المبلغ.. وحين تنتهى قعقعة الرعد الذى أراه قريب الحدوث، دعينى أسمع ما لديك!

– ولما سكت قصف الرعد، رفع مونكس رأسه من فوق المائدة ومال إلى الأمام ليستمع إلى ما تقوله المرأة.. وكادت رؤوس الثلاثة تلتصق إذ مال الرجلان كى يسمعا همسها وكان ضوء المصباح الضئيل يسقط على وجوههم فيبدى ما بها من شحوب وما على ملامحها من إرهاق، ثم شرعت الرئيسة تقول:

– حين ماتت تلك المرأة التى كنا ندعوها سالى كنت معها ولا ثالث لنا!

فسألها مونكس همساً: «ألم يكن أحد على مقربة منكما؟ألم تكن هناك امرأة مريضة أو بلهاء فى سرير آخر؟ ألم يكن هناك أحد يستطيع أن يسمع أو يفهم ما قالته؟»

– كلا! بل كنا وحدنا..وكنت واقفة وحدى إلى جوار سريرها حين لفظت آخر أنفاسها!

– حسناً...استمري!

فاستطردت رئيسة الملجأ تقول: «لقد حدثتنى عن شابة ولدت طفلا قبل بضع سنوات لا فى الغرفة نفسها فقط بل على السرير نفسه الذى ماتت هى عليه!»

فقال مونكس بشفتين مرتعشتين: «ما أعجب توافق الأشياء!»

– وكان الطفل الذى ولدته تلك الشابة هو الذى ذكرت أنت اسمه له أمس، وهنا أشارت إلى زوجها بإيماءة من رأسها. وأما الأم فقد سرقت منها المولدة المدعوة سالى...

– سرقت منها وهى على قيد الحياة؟

– كلا، بل بعد الموت! لقد سرقت من الجثة قبل أن تبرد شيئاً كانت الميتة قد توسلت بها لها وهى تجود بروجها أن تحتفظ به لأجل الطفل!

فقال مونكس فى قلق شديد: «هل باعته؟ أين؟ متى؟ لمن؟»

– أنها بعد أن قالت لى إنها سرقته سقطت إلى الوراء وماتت تواً!

– من غير أن تقول لك شيئاً آخر؟.أنت تكذبين! إنى لا يخدعنى أحد. لقد قالت لك شيئاً أخر.. سأقضى عليكما معاً إذا لم تخبرنى بكل ما قالته لك!

ولكن المرأة لم تظهر عليها بارقة من خوف، على عكس زوجها، وقالت:

– لم تنطق بكلمة أخرى ولكنها أمسكت بجلبابى بإحدى يديها، ولما ماتت وأبعدت يدها عنى بقوة، وجدتها مطبقة على رقعة من الورق!

فقال مونكس باهتمام: «ماذا كان بها»؟

فأجابت المرأة: «لا شئ. لقد كانت وثيقة رهن!»

– رهن ماذا؟

– سأقول لك..أحسب أن المرأة سالى قد احتفظت بتلك الحلية أملا فى استغلالها بشكل ما. ثم رهنتها. وقد ادخرت سنة بعد أخرى لتدفع فائدة الرهن، لعلها تقدر أن تفى بالدين إذا لاحت لها فرصة لاستغلال تلك الحلية. ولكن لم تلح تلك الفرصة على أن يظهر، وعلى هذا فقد احتفظت بتلك الورقة حتى كادت تبلي. وكان قد بقى يومان على إنهاء الرهن، ولذلك بادرت إلى دفع الدين واستعدت الحلية!

فسألها مونكس: «أين هى الآن؟»

فأجابت: «ها هى ذى!»

وكأنما سرها أن تتخلص من الحلية التى معها، فوضعت على المائدة علبة صغيرة لا تسع ساعة جيب صغيرة، فأسرع مونكس وفتحها بيدين ترتعشان، وأخرج منها أيقونة ذهبية انطوت على خصلة شعر صغيرة وخاتم زواج ذهب.

وقالت المرأة: «لقد حفر عليها اسم أجنس»، وترك إلى جانبه مكان للقب..ويتبع التاريخ، وكان قبل عام من ميلاد الطفل!»

وبعد أن فحص مونكس محتويات العلبة بعناية سألها: «أهذا كل ما هنالك؟»

فأجابت المرأة: «أجل».

فتنفس المستر بمبل الصعداء دلالة على ارتياحه لانتهاء الأمر من غير أن يطلب مونكس استرداد الخمسة والعشرين جنيها!.ثم تشجع ومسح العرق الذى كان ينحدر على أنفه من غير عائق طول مدة ذلك الحوار!

وبعد أن فحص مونكس محتويات العلبة بعناية سألها: «أهذا كل ما هنالك؟»

ثم قالت المسز بمبل بعد برهة: «إنى لا أعرف شيئا عن تلك القصة، ولا أريد أن أعرف شيئاً.. ولكنى أريد أن أسألك سؤالين!

فدهش مونكس لذلك ولكنه قال: «يمكنك أن تسأليني، ولكن لى أن أجيب أولا أجيب!»

– هل هذا ما كنت تريد أن تعرفه مني؟

– أجل! وما هو السؤال الآخر؟

– ماذا تنوى أن تفعل بما وقفت عليه، وهل يمكن اتخاذه ضدي؟

– كلا!. ولا ضدى أيضاً! انظرى هنا!. ولكن حذار أن تتحركا وإلا لم تساو حياتكما شيئاً!

إذ قال ذلك أزاح المائدة جانباً، وجذب حلقة حديدية بالأرض، فانفتح باب سرى كبير عند قدمى بمبل فاندفع هذا إلى الوراء خائفاً!

وأدلى مونكس المصباح إلى الهوة وقال لهما:

– انظر إلى تحت!. لا تخافا فقد كان فى إمكانى أن أسقطكما فى هذه الهوة بسهولة حين كنتما جالسين فوقها لو كان ذلك قصدي!

وشجع هذا القول المسز بمبل على أن تقترب من الحافة، وكذلك فعل زوجها مدفوعا بدافع الفضول. وكان الماء العكر قد بدأ يرتفع مستواه من المطر فى سرعة ظاهرة، فغطى خريره كل صوت آخر!

وكانت هناك طاحونة ماء فى الأزمان الخالية، وكان الماء يندفع إلى الأمام وهو يرتطم بأعمدة الدار وبقايا الآلات التى كانت بها. وأخذ مونكس يلوح بالمصباح فوق تلك البئر ثم قال:

– لو أنى قذفت بجسم إنسان إلى هناك، فأين يكون صباح غد؟

فأجاب المستر بمبل وقد فزع من هذه الفكرة: «يكون على بعد اثنى عشر ميلا فى النهر، وقد قطع جسمه!»

فأخرج مونكس العلبة الصغيرة التى بها الأيقونة من جيبه وربط بها قطعة حديد التقطها من فوق الأرض لتثقلها، ثم قذف بها هكذا فى مجرى الماء، فاختفت كلمح البصر!

سر أوليفر تويست

كان الشفق قد بدأ فى الأفق حين نزل المستر براونلو من عربة أمام بيته، وقرع الباب بلطف. ولما فتح الباب نزل رجل قوى البنية متين العضل من العربة ووقف عند أحد جانبيها، بينما نزل رجل آخر كان جالساً إلى جوار الحوذى ووقف عند الجانب الآخر. وأشار إليهما المستر براونلو فأنزلا من العربة رجلا ثالثاً أمسك كل منهما بإحدى ذراعيه وأدخلاه هكذا فى الدار، وكان هذا الرجل هو مونكس!

وصعدوا الدرج بهذا الشكل صامتين، وكان المستر براونلو قد سبقهم، فقادهم إلى غرفة خلفية فى الطابق الأعلى. ووقف مونكس بالباب عازفاً عن الدخول، فالتفت الرجلان إلى المستر براونلو يسألانه عما يجب أن يفعلاه فقال لهما الأخير:

– إن له الخيار. فإذا تردد أو رفض ما تأمرانه به فما عليكما إلا أن تسحباه إلى الشارع وتناديا البوليس وتسلماه إليه باسمى بوصفه مجرماً يقدم إلى المحاكمة!

– فقال مونكس: «كيف تجرؤ أن تقول ذلك عني؟»

فحدجه المستر براونلو بنظرة صارمة وقال له: «كيف تجرؤ أنت على أن تدفعنى إلى ذلك؟ هل بلغ بك الجنون أن تريد مغادرة هذا البيت؟» ثم قال للرجلين: «أتركاه!» فلما رفعا أيديهما عن ذراعيه قال المستر براونلو:

– أنت الآن حر. لك أن تذهب إذا شئت. لكننا أيضاً أحرار فى تتبعك...أقسم بكل ما هو مقدس أنك فى اللحظة التى تضع فيها قدميك على أرض الشارع، لأدعون الشرطة إلى القبض عليك بتهمة النصب والاحتيال والسرقة. لقد عقدت نيتى على ذلك ولن يحولنى عنه شئ فى

الوجـود. فـإذا كنـت لا تريـد أن ترعـوى عـن غيـك، فـلا تلومـن إلا نفسـك!

فقـال مونكـس وهـو يـردد بصـره بـين الرجلـين الواقفـين إلى جانبيـه: «مـا الـذى خـوَّل لهذيـن الكلبين أن يختطفانى من الشـارع وأن يأتيـا بى إلى هنا عنوة؟»

فأجـاب المسـتر براونلـو قائـلا: «أنـا الـذى خولـت لهمـا ذلـك!.إن هذيـن الرجلـين فـى خدمتي..فـإذا سـكتُّ فقـدت حريتـك الشـخصية بهذا الشـكل، فقد كان فـى اسـتطاعتك أن تسـتعيد حريتـك وأنـت قـادم إلى هنا، لكنـك رأيت أن من صالحـك أن تلـزم جانـب السـكون، وأن تعتمـد علـى حمايـة القانـون إيـاك، وأنـا أيضـاً سـأعتمد علـى القانـون. فـإذا تماديـت فـى طريقـك ولم ترتـدع فـلا تنتظـر أيـة رأفـة مـني، بـل يكـون الأمـر قـد خـرج مـن يـدى إلى أيـدى أنـاس آخريـن. ولا تهمنـى يومئـذ بأنـى رميتـك فـى هاويـة أنـت الـذى أوقعـت نفسـك فيهـا!»

وظهـر علـى مونكـس الارتبـاك والخـوف حـين سمـع ذلـك. ثـم اسـتطرد المسـتر براونلـو قائـلا فـى ثبـات وحـزم: «عليـك أن تبـت فـى الأمـر فـورا!. فـإذا أردت منـى أن أتهمـك علنـاً، وأن أعرضـك لعقوبة شـديدة تتولاك رعـدة إذا فكرت فيهـا، فمـا عليـك إلا أن تطلـب ذلك. أما إذا ارتكنت إلى تسـامحى وطلبت الغفران مـن أولئـك الذيـن أنزلـت بهـم أشـد الأضـرار، فمـا عليـك إلا أن تجلـس الآن على ذلـك الكرسـى مـن غـير أيـة معارضـة، لقـد انتظـرك هـذا المقعـد يومـين كاملين!»

فغمغـم مونكـس ببعـض ألفـاظ غـير مفهومـة ولكنـه كان لا يـزال متـرددا. فقـال لـه المسـتر براونلـو:

«يجـب أن تبـت فـى الأمر فوراً، وإلا فإن كلمة منى تكفى لتقرير مصيرك!»

ولكـن مونكـس بقـى وافقـاً لا يتكلـم. فقـال لـه المسـتر براونلـو: «إنـى لسـت مسـتعداً للجـدل، ولا يحـق لى ذلـك وأنـا أدافـع عـن أعز المصـالح لغيري!»

فقـال مونكـس متعلمـاً: «ألا يوجـد...ألا يوجـد... حـل وسـط؟!» فـرد عليـه قائـلا: «كلا!»

فنظر مونكس إلى السيد الشيخ نظرة فاحصة، لكنه لم يتبين فى وجهه سوى الجد والصرامة، وعندئذ دلف إلى الغرفة، وهز كتفه، ثم جلس! فقال المستر براونلو لتابعيه:

– أوصدا الباب من الخارج! وأتيا حين أدق الجرس!»

فأوصد الرجلان الباب وانصرفا، وبقى هو و مونكس وحدهما بالغرفة فوضع هذا قبعته ومعطفه جانباً ثم قال:

– هذه معاملة ما كنت أنتظرها من رجل كان أعز أصدقاء أبي!

فرد المستر براونلو قائلاً: «إنها لكونى كنت أعز أصدقاء والدك أيها الشاب، ولكونى قد اشتركت معه فى آمالنا ورغباتنا أيام الشباب، ولكون تلك المخلوقة الجميلة التى من لحمه ودمه قد لحقت بربها فى عنفوان شبابها وتركت لى الوحدة والحسرة. ولكونى قد ركعت معه أمام جثمان أخته الوحيدة فى صباح اليوم الذى كنت سأقترن بها فيه لولا أن مشيئة الله قضت بغير ذلك، ولكون قلبى المحطم قد تعلق به منذ ذلك اليوم فأخلصت له الود وسط تجاربه وأخطائه. ولكون الذكريات القديمة تغمر قلبى حتى إن رؤيتك الآن تثيرها..لذلك كله أريد الآن أن أعاملك برفق يا إدوارد ليفورد برغم كل ما حدث، وأشعر بالخجل لأنك تحمل ذلك الاسم العزيز علي!»

واستمع مونكس إلى هذا الكلام المتدفق فى صمت مشوب بالدهشة ثم قال: «ما شأنى بهذا الاسم؟.وما قيمته عندي؟»

– لا شئ!. لا شئ بالنسبة لك..ولكنه كان اسمها هي! وبرغم كر السنين وأنى أصبحت شيخاً..مازلت أنتشى حين أسمع أحداً يذكر أمامى هذا الاسم! ولقد سرنى كثيراً أنك اتخذت لنفسك اسماً آخر غير هذا الاسم الحبيب!

وساد بينهما الصمت برهة جلس المستر براونلو خلالها مغطياً وجهه بيده، فى حين كان مونكس يهتز فى مجلسه إلى الأمام وإلى الخلف فى

تحد صامت. ثم قال أخيراً: «هذا كله حسن!. ولكن ماذا تريد مني؟»

فقام مستر براونلو من مقعده وقال له: «إن لك أخا...وقد كان همسى باسمه فى أذنك حين وقفت وراءك فى الشارع، كافياً لأن يجعلك تأتى معى إلى هنا فى عجب وخوف معاً!»

فأجاب مونكس قائلا: «ليس لى أخ! إنك تعرف أنى كنت وحيد أبوي..فكيف تحدثنى عن أخ أو أخوة لي؟ إنك تعرف ذلك كما أعرفه!»

– إذن..أصغ لما أعرفه أنا، وسيثير اهتمامك تدريجاً...أنى أعرف أنك كنت الثمرة الوحيدة غير الطبيعية لذلك الزواج التعيس الذى أرغم عليه أبوك وهو ما زال غلاماً، يدافع كبرياء الأسرة والمطامع الدنيئة!.

فقاطعه مونكس بقوله ضاحكاً: «لا أبالى بالشتائم!.إنك تعرف هذا الأمر..وفى هذا الكفاية!»

فاستطرد السيد الشيخ قائلا: لكنى أعرف ما نتج عن ذلك الزواج الخاطئ من شقاء دائم وعذاب مقيم. وأعرف كيف كان يسير مثقلا بأغلاله فى عالم مسمم له! وأعرف كيف أن المراسم الجافة بين الزوجين قد استحالت إلى بغض متبادل. حتى انتهيا إلى قصم تلك الرابطة التى بينهما وإيجاد هوة سحيقة تفصلهما، وحمل كل منهما قطعة من ذلك الحطام، لا يذهب بها إلا الموت، ولكنه يخفيها فى مجتمع جديد تحت ستار من السرور الظاهري. وقد نجحت أمك فى ذلك؛ إذ سرعان ما نسيت ذلك الزواج. أما أبوك فإن نصيبه من ذلك الحطام قد مكث معه يصدأ ويتآكل سنوات عديدة!»

فقال مونكس: حسناً! لقد افترفا.. وماذا فى ذلك؟»

فاستطرد المستر براونلو قائلا: «بعد أن مكثا متفرقين بضع سنوات، وانغمست أمك فى مباهج القارة الأوروبية، نسيت زوجها الشاب الذى مكث فى وطنه، وكان أصغر منها بعشر سنين، ولعلك تعرف أنه تعرف

بعد ذلك إلى أصدقاء جدد؟.إنك تعرف هذا الظرف على الأقل؟!

فقال مونكس وقد أدار بصره جانبا وضرب الأرض بقدمه كمن اعتزم إنكار كل شئ: «كلا! لا أعرف شيئاً من ذلك!»

–إن أسلوبك، فضلا عن أعمالك، يدلنى دلالة قاطعة على أنك لم تنس ذلك الظرف قط، ولم تنقطع عن التفكير فيه بمرارة!.إنى أتحدث عن خمس عشرة سنة مضت حين كان عمرك لا يزيد على إحدى عشرة سنة، وكان عمر أبيك لا يعدو إحدى وثلاثين سنة..نعم إنى أكرر القول بأنه كان غلاما حين أرغمه والده على ذلك الزواج..

الآن أتريد أن أستعيد الحوادث التى تلقى ظلا على ذكرى أبيك؟. أم توفر هذا على نفسك بأن تذكر لى الحقيقة؟»

فرد مونكس قائلا: «ليس لدى ما أقوله.! ويمكنك أن تستمر فى الكلام إذا شئت!» فقال المستر براونلو: «إن أولئك الأصدقاء الجدد كان بينهم ضابط بحرى متقاعد ماتت زوجته قبل ذلك بستة أشهر وتركت له طفلتين..وكان قد أنسلها غيرها ولكن أطفالهم ماتوا ما عدا البنتين. وكانت أحداهما إذ ذاك كبرت وصارت فى التاسعة عشرة من عمرها، أما الأخرى فكانت ما زالت طفلة فى الثانية أو الثالثة من عمرها!»

فقال له مونكس مقاطعاً: «ما شأنى أنا بذلك كله؟!»

واستطرد المستر براونلو فقال غير عابئ بتلك المقاطعة:

– كانوا يقيمون بالبلدة التى لجأ إليها أبوك بعد طول مطاف واتخذها له مقراً..وسرعان ما قامت بينه وبينهم معرفة ثم مودة وثيقة. وقل من الرجال من كان موهوباً مثل أبيك: لقد كان له مثل روح أخته وشخصيتها. ولما عرفه الضابط العجوز عن كثب أحبه حباً شديداً، وليت الأمر انتهى عند ذلك. ولكن الذى حدث أن ابنته أحبته أيضاً!

وهنا سكت السيد الشيخ، بينما كان الشاب يعض شفتيه وينظر إلى الأرض. ثم استطرد الأول قائلا: «فى نهاية ذلك العام، كان أبوك قد ارتبط بابنة ذلك الضابط برباط مقدس، هو الحب الأول الطاهر الذى طرق قلب تلك الفتاة...»

فتململ مونكس فى كرسيه وقال: «إن قصتك هذه من أطول القصص!»

– إنها قصة واقعية سداها الألم ولحمتها الشقاء أيها الشاب! وأمثال هذه القصص تكون هكذا عادة. ولو كانت قصة مبهجة قوامها الفرح والسعادة لكانت قصة موجزة...

وأخيراً مات أحد أقارب أبيك، وكان أبوك قد ضحى بنفسه فى سبيل صالحة، فأراد أن يعوضه مما قاسى من أجله، ولذا ترك له ثروته. وكان لزاما على أبيك أن يسافر تواً إلى روما حيث مات قريبه ذاك وهو يستشفى، فسافر تاركاً شؤونه كلها فى ارتباك شديد. ثم أصيب فى روما بمرض وبيل.. وما سمعت أمك وهى فى باريس بنبأ تلك التركة ونبأ مرض أبيك حتى سافرت إلى روما مسرعة، حاملة إياك معها...وهناك مات أبوك يوم وصولكما إلى روما من غير أن يترك وصية، وبذا صارت كل تركته ملكاً لها ولك!

وعند هذا الجزء من القصة حبس مونكس أنفاسه وبان على وجهه شدة الاهتمام، وإن حاد ببصره عن محدثه!

ثم قال المستر براونلو ببطء وهو يتفرس فى وجه مونكس: «وقبل أن يسافر أبوك إلى الخارج، مر بلندن فى طريقه، وزارني...»

فقاطعه مونكس بلهجة أراد منها أن تدل على عدم تصديقه ولكنها دلت على دهشته واستيائه: «إنى لم أسمع بذلك قط!»

واستطرد المستر براونلو قائلا: «لقد زارنى وترك معى ضمن أشياء أخرى صورة كان قد رسمها بنفسه لتلك الفتاة البائسة. ولم يرد أن يخلفها وراءه، كما لم يستطع أن يأخذها معه فى سفره السريع. وكان قد أضناه القلق

وتأنيب الضمير حتى صار أشبه بشبح من الأشباح. وحدثنى فى اضطراب وذهول عن الخراب والعار اللذين جرهما على نفسه. وأسر إلىَّ بعزمه على أن يحول كل ما يملك إلى مال مهما يتكبد من الخسائر فى سبيل ذلك، ثم يترك جانبا من الميراث الجديد الذى وافاه، لك ولأمك، ويهرب من البلاد إلى الخارج، ثم لا يعود بأى حال. وقد أيقنت أنه لن يهاجر إلى الخارج وحده...على أنه لم يرد علىَّ ذلك، ولم يعترف لى بشئ آخر خاص، مع أنى صديقه القديم وقد امتدت جذور صداقتنا فى الأرض التى احتوت أعز مخلوقة لنا كلينا. وإنما وعد بأن يكتب إلىَّ ويخبرنى بكل شئ...

وأسفاه!. لقد كانت تلك آخر مرة.. ولم أتسلم منه كتابا ولا رأيته بعد ذلك!»

وسكت المستر براونلو برهة عن الكلام ثم واصل حديثه قائلا: «لما انتهى كل شئ...ذهبت إلى مكان حبه «الآثم» طبقاً لاصطلاح الناس. وكنت قد عزمت على أنى إذا تحقق ما أخشاه، فإن الطفل الذى يكون ثمرة ذلك الحب يجب أن يلقى قلباً رحيماً ومثوى كريماً. ولكن أسرة الضابط البحرى المتقاعد كانت قد هجرت تلك النواحى منذ أسبوع، وغادرت دارها فى ظلام الليل بعد أن سددت ديونها الصغيرة. ولا يدرى أحد لماذا رحلت، ولا إلى أين قصدت!»

وهنا تنفس مونكس الصعداء، ونظر حوله نظرة يتجلى فيها الظفر. بينما اقترب منه المستر براونلو بكرسيه وقال: «ثم إذا بأخيك الذى أصبح طفلا ضعيفاً منبوذا شقياً، يرميه القدر فى طريقي، فأنقذه من حياة الإجرام والرذيلة التى كانت تهدده!»

وهنا صاح مونكس قائلا: «ماذا!» فواصل السيد الشيخ كلامه قائلا:

– أجل! أنقذته...لقد قلت لك إنى لا ألبث حتى أثير اهتمامك بما أقصه عليك...أقول لك إنى أنقذته...إنى أرى الآن أن شريكك الماكر قد أخفى عليك اسمي. ولما أنقذته، ولبث فى بيتي، فى دور النقاهة

من مرضه، لفت نظرى الشبه الكبير الذى بينه وبين الصورة التى تركها أبوك عندي. بل أنى حين رأيته أول مرة فى قذارته وفقره لاح لى فى ملامح وجهه ما ذكرنى بصديق قديم وكأنه تبدى لى فى رؤيا. ولست بحاجة لأن أقول لك إنه قد نصب له شرك قبل أن أعرف تاريخه!

– ولم لا تقول ذلك ؟

– لأنه شئ تعرفه أنت حق المعرفة!

– أنا؟

– فأجابه المستر براونلو: «من العبث أن تنكر!. سأريك تواً أنى أعرف المزيد!» فقال مونكس متلعثما: «لا يمكنك!. لا يمكنك أن تثبت أى شئ ضدي!»

– سترى!.ثم فقدت الغلام وضاعت جهودى فى البحث عنه..ولما كانت أمك قد ماتت، فقد أيقنت ألا أحد سواك يقدر أن يكشف خافية الأمر. وآخر مرة سمعت فيها عنك، كنت أنت فى مزرعة لك بجزر الهند الغربية وقد سافرت إلى هناك وعقب وفاة والدتك فراراً من نتائج بعض أعمالك الشريرة هنا... وعلى ذلك سافرت أنا إلى تلك الجزر لكى ألقاك. ولكنى لما وصلت إليها علمت أنك غادرتها منذ شهور، وأن المفروض أنك فى لندن ولا يعرف أحد مكانك فيها. وعلى ذلك عدت أنا إلى هنا. ولم يستطع وكلاؤك أن يدلونى على مكانك، بل ذكروا أنك تحضر ثم تغيب بشكل مفاجئ، وأنهم قد لا يرونك شهوراً متوالية. وعلمت أنك ما زلت ترتاد الأماكن المشبوهة وتختلط بقرناء السوء الذين ألفتهم وأنت فتى يافع لا تحكمه سوى نزعاته. وقد جعلت أقطع الطرق ليل نهار بحثاً عنك، ولكن جهودى كلها ذهبت عبثاً...إلى أن وجدتك أخيراً منذ ساعتين!

– فقام مونكس من مقعده كذلك وقال: «لم أكن أدرى ذلك حقاً.. ولكنى علمت كل شئ فى خلال الأسبوعين الأخيرين..إن لك أخاً. وأنت تعرف ذلك كما يعرفه هو..وكانت هناك وصية تركها أبوك ولكن أمك

مزقتها، حتى إذا حل أجلها تركت لك الميراث كله مع ذلك السر... وكانت تلك الوصية تشير إلى طفل ربما يأتى ثمرة لتلك الرابطة الأسيفة. وقد ولد ذلك الطفل فعلاً بعد ذلك، ورأيته أنت مصادفة فاسترعى التفاتك شبهه الشديد. وعندئذ قصدت أنت إلى المكان الذى ولد فيه. وكانت هناك أدلة على مولده وعلى بنوتة لأبيك.. أخفيت طويلا.. فأتلفت أنت هذه الأدلة، وأكرر لك الآن ما قلته لشريكك المدعو فيجن من أن الأدلة الوحيدة على شخصية الغلام هى الآن فى قاع النهر، والعجوز الشمطاء التى تسلمتها من أمه عند مولده راقدة فى تابوتها.

بل أقول لك أيها الابن العاق أنت جبان كذاب، وقد تآمرت مع اللصوص والقتلة ليلا فى الغرف المظلمة وثبت بمكايدك وألاعيبك موت من كان يساوى مليونا من أمثالك. أنت الذى كنت منذ مولدك نكبة على أبيك. أنت الذى عششت فى نفسك البغضاء والضغينة والطمع، وكل الرذائل حتى جعلت من وجهك صورة لنفسك المريضة، أنت يا إدوارد ليفورد ألا تزال تتحدانى؟»

ولم يسع هذا وقد غلب على أمره، إلا أن يغمغم قائلا: «كلا. . كلا». فصاح به الشيخ: إنى أعرف كل كلمة دارت بينك وبين ذلك المجرم البغيض، وقد ارتكبت جريمة قتل كنت فيها شريكا.

فقاطعه مونكس قائلا: «كلا. إنى لا أدرى شيئا عن ذلك. لقد كنت ذاهبا لأستعلم عن حقيقة الأمر حين باغتنى لم أكن أعرف الدافع إلى الجريمة، وكنت أحسب الأمر شجارا عاديا. لقد كان الدافع هو كشف جانب من أسرارك فهل تكشف الحقيقة كلها.

أجل سأفعل. فقال المستر براونلو: «يجب أن تفعل ما هو أكثر من ذلك. يجب أن تصلح ما أفسدته على طفل بريئ لم يأت ذنبا. نعم إنه بريئ فى الواقع وإن جاء ثمرة زواج غير شرعى، إنك لم يئن لك أن تنسى شروط الوصية، فما عليك إلا أن تنفذها فيما يتعلق بأخيك، ثم تذهب حيث تشاء، ولا ينبغى لنا أن نلتقى فى هذا العالم بعد اليوم.

وساد الصمت برهة، كان مونكس خلالها يتحرك فى الغرفة قلقا، ثم قال له المستر براونلو: «هل اتفقنا؟»

وكان مونكس قد علم بموت سيكس والقبض على فيجن فلم يسعه إلا الإذعان.

نهاية سعيدة

بعد يومين من الحوادث التى وقعت فى الفصل الماضى كان أوليفر فى الساعة الثالثة بعد الظهر راكبا عربة تقله إلى البلدة التى نشأ فيها، وكان يصحبه فيها المستر مايلى وروز والمستر بدوين والدكتور لوسبرن، أما المستر براونلو فكان يتبعهم فى عربة البريد ومعه شخص لم يذكر اسمه، ولما وصلوا جميعا إلى الفندق الكبير، كان المستر جريمويج فى استقبالهم إذ كان قد وصل قبلهم ببضع ساعات، وقد قبل روز والمستر مايلى أيضا حين نزلتا من العربة وكان مسرورا كما لو كان جدا للجميع. ولم ينذر بأكل رأسه فى هذه المرة، حتى حين كان يجادل ساعى بريد عجوزا بشأن أقرب طريق إلى لندن، ويؤكد أنه يعرف الطريق خيرا منه، مع أنه لم يقطعه إلا مرة واحدة فى حياته. وكان نائما إذاك. وقد أعد طعام العشاء وجهزت غرف النوم ورتب كل شئ.

ولم يتناول المستر براونلو طعام العشاء معهم، بل مكث فى غرفة أخرى، أما السيدان الآخران فكانا يدخلان عنده ويخرجان بين حين وآخر، ودعيت المسز مايلى إلى الخارج، ثم عادت بعد ساعة وقد ورمت عيناها من البكاء، كل ذلك جعل روز وأوليفر فى حال من القلق إذ كانا لا يعرفان شيئا من تلك الأسرار التى علمها سواهما من الحاضرين وقد جلسا صامتين فى عجب وتساؤل، وإذا تبادلا معا كلمات ففى همس لا يكاد يبين.

ولما حانت الساعة التاسعة دخلا الغرفة الدكتور لوسبرن والمستر جريمويج وتبعهما المستر براونلو ومعه رجل ما رآه أوليفر حتى صاح دهشة، ثم زادت دهشته حين ذكروا له أن هذا الشخص أخوه، مع أنه الشخص الذى لمحه منذ أيام مع فيجن حين كانا ينظران إليه من خلال نافذة غرفته.

ورمقه مونكس بنظرة بغض لم يستطع أن يخفيه، ثم جلس على مقربة من الباب وكان المستر براونلو يحمل بيده أوراقا، فقصد إلى منضدة كانت روز وأوليفر جالسين بالقرب منها. ثم قال لمونكس:

«إن هذه مهمة مؤلمة لى. غير أن هذا الإقرار الذى وقع فى لندن أمام شهود عدول يجب أن يعلن هنا. وكان بودى لو أوفر عليك هذا الهوان ولكن يجب أن نسمع الإقرار منك شخصيا قبل أن نفترق وأنت تعرف السبب.

فقال مونكس وهو يدير وجهه جانبا: استمر وأسرع وأحسبنى قد فعلت ما فيه الكفاية، فلا تبقنى هنا طويلا.

وهنا جذب المستر براونلو إليه أوليفر تويست ووضع يده على رأسه قائلا: «إن هذا الطفل هو أخ غير شقيق لك. إنه ابن غير شرعى لأبيك يا صديقى العزيز أدوين ليفرود وأمه هى الشابة المسكينة أجنس فلمنج التى ماتت عقب وضعه.

فنظر موتكس إلى أوليفر عابسا وكان قلب الغلام يدق دقا سريعا عاليا حتى ليكاد تسمع دقاته ثم قال: أجل هذا ولدهما ابن الحرام.

فرد عليه المستر براونلو بشدة : إن هذا اللفظ الذى ذكرته هو لوم لاثنين اصبحا جد بعيدين عن انتقاد هذا العالم وهو لفظ لا يلقى ظلا من العار على أحد سوى ما قاله، والآن دعنا من ذلك. لقد ولد أوليفر تويست فى هذه البلدة. إن القصة مدونة هنا فى هذه الأوراق.

فقال المستر براونلو: «لكن يجب أن تعلن القصة هنا».

وعندئذ قال مونكس: اسمعوا إذن إن أباه لما مرض فى روما لحقت به زوجته أعنى أمى وكانت قد انفصلت عنه وأقامت بباريس وقد أخذتنى معها إلى روما ولم تذهب إلا من أجل ثروته، ذلك بأنها لم تكن له محبة كما لم يكن يحبها، غير أنه لم يعلم بقدومنا لأنه

كان قد فقد وعيه، وقد ظل كذلك حتى مات فى اليوم التالى، ومن بين الأوراق التى وجدناها على مكتبه ورقتان بتاريخ اليوم الذى بدأ فيه مرضه وكانتا موجهتين إلى المستر برونلو ومعهما بضعة أسطر كتبها إليه. وقد كتب على المظروف ألا يرسل إلا بعد وفاته، وإحدى الورقتين كانت رسالة موجهة إلى فتاته أجنس والورقة الأخرى كانت وصيته.

وهنا سأله المستر براونلو: «ماذا كان فى الرسالة؟»

فأجاب قائلا: «كانت الورقة بها شطب كثير، وتحوى اعترافا وندما ودعاء لله بأن يكون فى عونها، وكان قد أخبرها أن هناك سرا خفيا، سيوضحه لها فيما بعد، يحول دون زواجه بها فى ذلك الحين. وهكذا استمرت العلاقة بينهما فى انتظار ذلك الزواج. وقد وضعت الفتاة ثقتها فيه، حتى زادت هذه الثقة على الحد اللازم وفقدت ما لم يمكن استعادته.

ولم يكن قد بقى سوى أشهر قليلة على ميعاد وضعها طفلها فطمأنها ووعدها بعمل كل شئ لإخفاء عارها إذا بقى على قيد الحياة، وطلب إليها إذا مات ألا تلعن ذكراه، وألا تظن أن عاقبة خطيئتهما ستقع على عاتقها أو عاتق الطفل الذى تلده لأن الذنب ذنبه وحده، ثم ذكرها باليوم الذى أعطاها فيه الأيقونة الصغيرة والخاتم الذى حفر عليه اسمها الأول وإلى جانبه فراغ ليكتب فيه اسمه بعد الزواج الذى يأمل اتمامه يوما ما، وطلب إليها أن تحفظ تلك الأيقونة، وأن تلبسها ملاصقة لقلبها كما كانت تفعل من قبل.

ثم ورد فى الرسالة تكرار لذلك يليه تكرار وكأن كاتبه قد أصابه ذهول، فنسى ما كتب، وأحسب أن هذا ما حدث له فعلا.

وكانت دموع أوليفر تنهمر من عينيه وهو يستمع إلى كل ذلك، ثم قال المستر براونلو: والوصية؟ فسكت مونكس ولم يجب.

فاستطرد المستر براونلو قائلا بالنيابة عنه: «إن الوصية كتبت بالروح التى كتب بها ذلك الخطاب، وقد تحدث فيها عن الشقاء الذى جلبته

إليه زوجته وعن تمرد ولده وسوء طباعه ورذائله وكونه قد علمته أمه منذ الصغر أن يبغض أباه. وبرغم ذلك ترك لك ولأمك راتبا سنويا قدره ثمانمائة جنيه لكل منكما. أما تركته فقد قسمها إلى قسمين متساويين أحدهما لأجنس فلمنج والآخر لطفلها منه إذا قدر له أن يعيش حتى يبلغ سن الرشد. وقد اشترط فى الوصية ألا يرثه هذا الابن إلا إذا لم تشب حياته شائبة من عار أو جبن أو إجرام. وأشار فيها إلى أنه ما اشترط ذلك إلا لثقته بالأم ولاعتقاده، وهو على باب القبر، بأن ولدها سيكون مثلها نبلا ورقة، أما إذا خيب هذا الابن أمله فيه فإن نصيبه فى التركة يؤول إلى ابنه الآخر.

فقال مونكس بصوت مرتفع: «أمى قد فعلت ما كانت أية امرأة أخرى تفعله فى هذه الحالة، لقد حرقت تلك الوصية، أما الخطاب فلن يرسل قط إليك، ولكنها احتفظت به وبأدلة أخرى احتياطا لأية محاولة لدحض تلك الوصمة، وقد علم أبو الفتاة الحقيقة منها، ففر بعاره وعار اسرته إلى ناحية قصية من إقليم ويلز وغير اسمه حتى لا يعرف أحد مكانه، ثم وافاه أجله بعد حين وجيز، أما الفتاة فكانت قد هربت من بيت أبويها خفية قبل أسابيع من ذلك، وبحث أبوها عنها فى كل بلدة وكل قرية قريبة وهو سائر على قدميه، وفى الليلة التى عاد فيها إلى بيته موقنا أنها انتحرت لإخفاء عارها مات محطم القلب.

وساد الصمت برهة ثم قال المستر براونلو:

«بعد سنوات من ذلك جاءت إلىَّ أم هذا الرجل إدوارد ليفرود وكان ابنها هذا قد هجرها وهو فى الثامنة عشرة من عمره، بعد أن سرق حليها ومالها وقامر وسرق وزيف ثم هرب إلى لندن حيث مكث سنتين يخالط طريدى العدالة، وكانت فى انهيار مطرد من أثر مرض أليم استعصى على العلاج، فأرادت أن تراه قبل أن تموت. وعلى ذلك دار البحث عنه فى كل مكان. ومكثت الجهود مدة بلا فائدة. . وأخيرا عثر عليه، فسافر مع أمه إلى فرنسا!

وعندئذ قال مونكس: «وقد ماتت هناك بعد مرض بطئ! وعلى فراش مرضها أفضت إلىَّ بكل هذه الأسرار مع بعضها لكل من تناولتهم، ولم تكن بحاجة إلى ذلك لأنى كنت قد أبغضتهم قبل ذلك بوقت طويل، وكانت تعتقد أن الفتاة لم تنتحر، وأن الطفل لم يذهب معها، بل تملكها إلهام قوى بأنه طفل ذكر لا يزال على قيد الحياة. فأقسمت لها أنه إذا صادفنى فلن أدعه يستقر أبدا، بل أطارده إلى النهاية وأحيطه بكل ما أملك من بغض، وأسعى جهدى حتى أسحبه إلى عتبة المشنقة، سخرية منى بتلك الوصية المهينة!.. وقد عثرت عليه فى النهاية، وبدأت أنفذ خطتى ضده. ولولا خيانة امرأة منحطة لانتهيت معه إلى النتيجة التى كنت أرجوها!»

وهنا شبك مونكس ذراعيه وأخذ يلعن نفسه لعجزه عن إشباع ضغينته، بينما الآخرون يستمعون إليه فى ذعر. فالتفت إليهم المستر براونلو وقال لهم:

– إن فيجن كان قد وعده مونكس بمبلغ كبير من المال، جزاء له على اختطاف أوليفر، وإن ذلك قد دعاهما إلى الذهاب لبيت المسز مايلى فى الريف ليستوثقا من شخصية الغلام. وقد نظرا إليه فى غرفته من خلال زجاج نافذة. ولما أبصرهما هربا مسرعين. ثم خرج خدم الدار يلاحقونهما، ولكنهم لم يستطيعوا إدراكهما!

ثم التفت المستر براونلو إلى مونكس وقال له: «والأيقونة والخاتم؟»

فقال مونكس: لقد اشتريتهما من الرجل والمرأة اللذين ذكرتهما لك، وكانا قد سرقاها من المولدة التى سرقتهما من الجثة.. وأنت تعرف ما حدث بعد ذلك».

وهنا أومأ المستر براونلو إلى المستر جريمويج، فخرج هذا مسرعا وما لبث حتى عاد وهو يدفع المسز بمبل أمامه، ويجر زوجها خلفه!

وما إن دخل المستر بمبل حتى قال بحماسة مصطنعة: «أتخدعنى عيناى أم هذا أوليفر الصغير حقا؟.. لو علمت يا أوليفر كم حزنت على فراقك!»

ولكـن زوجتـه قاطعتـه وقالت له بشـدة: «أمسـك عليك لسـانك يا أحمق!»

فقـال لهـا : «أليـس طبيعيـا أن أشـعر بالفـرح حـين أراه جالسـا بـين هـؤلاء السـيدات والسـادة الأمجـاد وأنـا الـذى ربيتـه؟»

وعندئذ قال له المستر جريمويج بحدة: «كفى!»

ثـم قـال المسـتر بمبـل موجهـا الـكلام للمسـتر براونلـو: «كيـف حالـك يـا سـيدى!. لعلـك بأحسـن حـال؟»

وكان المسـتر براونلـو قـد اقـترب مـن المسـتر بمبـل وزوجتـه فقـال لهـذه وهـو يشـير إلى مونكـس:

«أتعرفين هذا الرجل؟» فأجابت قائلة: «كلا!»

فقال لزوجها: «وأنت. . ألا تعرفه أيضا؟»

فأجاب المستر بمبل قائلا: «إنى لم أره قط فى حياتى!»

فسأله: «ألم تكن فى حوزتك أيقونة ذهبية وخاتم؟»

وسـارعت زوجتـه إلى الإجابـة فقالـت: «كلا!. . لمـاذا جـئ بنـا إلى هنـا؟ ألنجيـب عـن هـذا الهـراء؟»

فأومـأ المسـتر براونلـو برأسـه إلى المسـتر جريمويـج مـرة أخـرى، وخـرج الأخـير يعـدو بأقصـى سـرعته ثـم عـاد ومعـه امرأتـان مصابتـان بشـلل جزئـى وهمـا تسـيران فـى بـطء!

وقالـت الأولى منهمـا موجهـة كلامهـا إلى المسـز بمبـل: «لقـد أغلقـت البـاب عليـك وعلـى سـالى العجـوز قبيـل وفاتهـا، ولكنـك لم تقـدرى أن تحـولى دون وصـول الصـوت إلى آذاننـا!»

وقالت الأخرى وهى تلتفت حولها: «لا. لا. ». ثم استطردت الأولى قائلة: «لقد سمعناها تذكر لك ما قامت به، ثم رأيناك تأخذين ورقة من يدها، ورأيناك فى اليوم التالى وأنت تدخلين محل الرهونات!»

وأردفت المرأة الثانية: «أجل!. . وقد رهنت وقتئذ أيقونة وخاتما. أجل. . لقد كنا نراقبك!»

ثم قالت المرأة الأولى: «نحن نعرف أكثر من ذلك. . لأن سالى كانت قد ذكرت لنا أنها علمت من الأم الشابة أنها حين دهمها المرض كانت قاصدة إلى القبر الذى دفن فيه أبو طفلها لكى تموت إلى جواره!»

وعندئذ قال المستر جريمويج للمسز بمبل: أتريدين أن ترى صاحب محل الرهن أيضا؟»

فأجابت قائلة: «كلا!. ولكن إذا كان هو، وأشارت إلى مونكس، قد اعترف لجبنه كما أرى، وإذا كنت قد استجوبت اللاجئات العجائز حتى عثرت على هاتين، فإنى لا أجد ما أقوله!. . أجل!. لقد بعت الأيقونة والخاتم وهما الآن حيث لا يقدر أحد أن يعثر عليهما. . فماذا بعد ذلك؟!»

فأجاب المستر براونلو قائلا: «لا شئ سوى أن واجبنا يقتضينا الآن ألا ندعكما فى وظيفة تتطلب الثقة!. والآن يمكنكما الخروج!»

فقال المستر بمبل وهو ينظر حوله بعد أن خرج المستر جريمويج بالمرأتين العجوزتين:

آمل ألا تكون هذه المسألة الطفيفة فى حرمانى من منصبى؟!»

فأجاب المستر براونلو: «الحقيقة أنها ستؤدى إلى ذلك! ويمكنك أن ترتب أمورك على هذا الأساس وتعد نفسك مع هذا سعيدا!»

فقال المستر بمبل بعد أن اطمأن إلى خروج زوجته: «لقد كان الأمر كله من تدبير زوجتى. إنها أهل لذلك!»

– ليس هذا عذرا!. فقد كنت حاضرا عند اتلاف الحليتين. بل إن القانون يعدك أكثر ذنبا من زوجتك لأنه يفترض أنها عملت بتوجيهك!

فقال المستر بمبل وهو يعصر قبعته فى يديه: «إذا كان القانون يفرض ذلك فلابد أن يكون القانون عزبا لم يتزوج! وقصارى أملى أن يتعلم القانون بالتجربة!».

ثم وضع قبعته على رأسه ويديه فى جيبه وخرج مسرعا ليدرك زوجته!

والتفت المستر براونلو إلى روز وقال لها: «أيتها السيدة الصغيرة. . ناولينى يدك ولا ترتعدى! لا حاجة بك لأن تخشى الكلمات القليلة الباقية!»

فقالت روز: «إذا كانت لها أية علاقة بى فإنى أرجو أن تدعها إلى فرصة أخرى. . فإنى لم تعد بى قوة لسماعها!»

فرد المستر براونلو وهو يتأبط ذراعها: «كلا! بل إنى موقن بأن لك من الثبات أكثر من ذلك».

ثم التفت إلى مونكس وقال له: «أتعرف هذه السيدة؟» ولما أومأ مونكس موافقا، بدت الدهشة فى وجه روز وقالت له مستغربة: «إنى لم أرك قط من قبل!»

فرد مونكس قائلا: «لكنى رأيتك مرارا!»

ثم قال المستر براونلو: «إن والد أجنس كان له ابنتان. فماذا كان مصير صغراهما؟»

فرد مونكس قائلا: «لقد مات الأب غريبا، وهو يحمل اسمه المستعار، ولم يترك وراءه أية ورقة لأصدقائه أو أقاربه فأخذ بعض القرويين الفقراء تلك الطفلة وربوها كأنها ابنتهم!»

فقال له المستر براونلو: «استمر. استمر!» وأشار إلى المسز مايلى لتقترب. ثم استطرد مونكس قائلا: لقد عجزت أنت عن معرفة المكان الذى أوى إليه هؤلاء الناس، ولكن البغضاء قد تنجح حيث تفشل المحبة. وعلى هذا سرعان ما عرفت أنا مكانهم بعد سنة من البحث الماكر، ووجدت الطفلة!»

– وأخذتها؟ أليس كذلك؟

– كلا! لقد كان أولئك القوم فقراء، وما لبثوا – أعنى الرجل على الأقل – حتى ندموا على مروئتهم نحو الطفلة. . ولذلك تركتها أمى لديهم بعد أن أعطتهم مبلغا قليلا من المال لا يكفى مدة طويلة، واعدة إياهم بأن ترسل المزيد، ولم تكن تقصد الوفاء بهذا الوعد! ثم إنها فى سبيل جلب الشقاء لتلك الطفلة، لم تركن إلى فقرهم وحدهم، بل ذكرت لهم عار أختها الكبرى وقالت لهم: إنها طفلة غير شرعية وإنها بالتأكيد ستسير سيرة سوء فى وقت ما بعد أن تكبر. وأيدت الظروف هذا القول، وصدقه أولئك القوم. ومكثت الطفلة تعيش عيشة الشقاء التى كنا نتمناها لها، حتى أبصرتها سيدة أرملة تقيم فى تشستر فأشفقت عليها وأخذتها إلى بيتها. . وأحسب أن القدر كان يحاربنا، لأنها برغم كل جهودنا بقيت مع تلك السيدة سعيدة مكرمة. وقد غابت عن بصرى منذ سنتين أو ثلاث سنوات، ولم أرها بعد ذلك إلا منذ بضعة أشهر!

فسأله المستر براونلو: «أتراها الآن؟»

– أجل !. معتمدة على ذراعك!

وهنا صاحت المسز مايلى وهى تحتضن روز: «إنى لا أعدها إلا ابنة أخى العزيزة! وأنا لا أرضى كنوز الأرض كلها بديلا منها !. إنها رفيقتى الوديعة، إنها ابنتى الحبيبة!»

فبكت روز وقالت: «إنك الصديقة الوحيدة لى فى حياتى! إنك أحن الناس على. إن قلبى يكاد ينفجر. إنى لا أحتمل ذلك!»

فقالت لها المسز مايلى وهى تعانقها: «لقد احتملت ما هو أشد! وبقيت برغم كل شئ سبب سعادة لكل من حولك. . تعالى يا عزيزتى. . انظرى من هذا الذى يريد أن يحتضنك؟»

فقال أوليفر وهو يحيط جيدها بذراعيه: «لن أدعوك منذ الآن إلا بأختى العزيزة! لقد ألهمت حبك منذ البداية. يا روز. يا عزيزنى!»

وكانت الدموع التى ذرفتها الأعين وقتئذ دموعا طاهرة. . لقد حسب أوليفر أيا وأختا وأما وفقدهم فى لحظة واحدة. واختلط الفرح بالحزن فى كأس واحد. ولكن ذلك الحزن نفسه كان رقيقا، منبعثا عن ذكريات أسيفة حلوة حتى انقلب سرورا وخلا من عنصر الألم!

وترك أوليفر وروز وحدهما برهة، ثم سمع نقر خفيف على الباب ففتحه أوليفر وما أن رأى القادم حتى ترك مكانه لهارى ما يلى!

وقال هارى وهو يجلس إلى جوار الفتاة الحسناء: «إنى أعرف المسألة كلها يا عزيزتى روز!»

ثم قال بعد صمت طويل: «إننى لست هنا مصادفة! ولم أسمع بالأمر الليلة فقط. بل علمته أمس. ألا ترين أنى جئت لكى أذكرك بوعدك؟»

فقالت له روز: «مهلا! انك تعلم الآن كل شئ!»

– كل شئ؟ . لقد سمحت لى بأن أعود إلى الموضوع الذى كنت أحدثك به فى خلال سنة. . وأنا لا أقصد أن أحضك على تغيير رأيك، ولكن أن أسمعك تعيدين ذكره إذا شئت. لقد كان فى نيتى أن أضع تحت قدميك كل ما أملكه من مركز أو مال، وإذا كنت لا تزالين مصممة على رأيك فقد وعدت ألا أحاول تبديله بقول أو عمل!

فقالت روز بعزم: «إن الأسباب التى حدت بى وقتئذ إلى ذلك القرار لا تزال تحدونى الآن إلى عدم تغييره. . وإذا كان على واجب نحو تلك

أنقذتنى بكرمها وعطفها من حياة البؤس والألم فإنى الليلة أشد شعورا بهذا الواجب منى فى أى وقت مضى!. إنه جهاد شاق، ولكن يسعدنى أن أقوم به !. إنه ألم ولكن قلبى يتحمله!»

فقال هارى: «إن السر الذى كشف الليلة. ..».

فقاطعته روز قائلة: «إنه فيما يتعلق بك، يدعنى فى الموقف نفسه الذى كنت فيه من قبل!»

– إنك تجعلين قلبك يقسو على روز!

فبكت روز وقالت: «آه يا هارى! وددت لو استطعت ذلك وأوفر على نفسى هذا الألم!»

– إذن. . لماذا تحكمين به على نفسك!. . فكرى يا روز فيما سمعته الليلة!»

فقالت روز باكية: «وماذا سمعت؟ ماذا سمعت؟ إن الشعور بالعار قد أثر فى أبى حتى أنه هجر الناس جميعا!. . لقد قلنا ما فيه الكفاية يا هارى!»

– كلا! لم أقل بعد كل ما عندى!

وأمسك يدها فى يده ومنعها من القيام ثم استطرد قائلا: إن كل آمالى ورغباتى وأحاسيسى – ما عدا حبى لك – قد تغيرت. . وأنا الآن لا أعرض عليك أن تختلطى بمجتمع لا يسوده إلا الحقد والنميمة، وإنما أعرض عليك بيتا. أجل قلبا وبيتا. أجل يا روز. إن هذين هما كل ما أملك!»

فغمغمت قائلة: «ماذا تعنى بذلك؟»

– أعنى أنى حين تركتك آخر مرة ، تركتك وأنا عازم عزما صادقا أن أزيل كل الحواجز المفتعلة التى تقف حائلا بينى وبينك. . وإذا كان عالمى ليس عالمك فقد عزمت أن أجعل من عالمك عالمى! ولقد فعلت ذلك! والذين نفروا منى لأجل ذلك قد نفروا منك أيضا وبرهنوا على أنك

على صواب. وأصحاب الألقاب والنفوذ من أقاربى الذين كانوا يبتسمون لى قد أخذوا ينظرون إلىَّ الآن نظرة جفاء! ولكن هناك حقولا بسامة وأشجارا خفاقة فى أغنى إقليم بانجلترا. وهناك إلى جانب كنيستى بالقرية: بيت ريفى هادئ أملكه وفى إمكانك أن تجعلينى أشد فخرا به من أى مركز كنت أصبو إليه!.. هذا هو مركزى ومقامى الذى أعرضه عليك الآن!

وقال المستر جريمويج وهو يصحو من إغفاءه: «حقا إن انتظار المحبين على مائدة العشاء يستنفد الصبر!»

والواقع أن طعام العشاء كان معدا منذ مدة طويلة. ولما جاءت المسز مايلى وهارى وروز معا، لم يجد أحد منهم كلمة يقولها فى معرض الاعتذار.

ثم قال المستر جريمويج: «لقد كنت أفكر فى أن آكل رأسى فعلا هذه الليلة، إذا وجدتنى لا ألقى ما آكله. والآن أسمح لنفسى - بعد استئذانكم - بأن أقبل عروسنا المقبلة!»

ولم ينتظر إذنا من أحد، وقال فقبل روز وقد اصطبغ وجهها بحمرة الخجل! ولعل مسلكه هذا كان معديا، فقد قلده الدكتور لوسبرن والمستر براونلو!

كان فيجن قد أمضى آخر ليلة له على قيد الحياة فى ذعر وصل به إلى حد الخبل! وفى الفجر جاء المستر براونلو ومعه أوليفر، وكان الأول يحمل ترخيصا فى مقابلة السجين. وقال له الحارس الذى قاده إلى زنزانة فيجن:

- هل هذا السيد الصغير سيزور السجين معك؟ إنه منظر لا يليق بالصغار يا سيدى!

فقال له المستر براونلو: «صدقت! غير أن المهمة التى جئت من أجلها، لها علاقة وثيقة به. ولما كان هذا الطفل قد شهده فى ذروة شروره فلا ضير أن يراه الآن ولو عانى من ذلك بعض الألم والخوف!»

وقد قال ذلك للحارس على حدة حتى لا يسمعه أوليفر. . فنظر الرجل إلى الغلام مستغربا، ثم فتح بابا آخر يقابل باب السجن الذى دخلا منه، وقادهما فى سراديب مظلمة حتى وقف أمام زنزانة وقرع بابها بسلسلة المفاتيح فى يده، فخرج الحارسان اللذان كانا يلازمان فيجن، وتبادل معهما الحارس الآخر بضع كلمات، وعلى أثر ذلك قاد الزائرين إلى داخل الزنزانة!

وكان فيجن فى تلك الساعة قد عاد به الذهن إلى الماضى فسمعاه يقول: «أحسنت يا تشارلى. . وأوليفر أيضا. . ها. ها. ها. لقد أصبح الآن من السادة. . خذه إلى فراشه».

فصاح به السجان لينبهه: «يا فيجن!»

– هذا أنا !. أنا رجل عجوز يا سيدى القاضى. رجل عجوز جدا؟

– هنا أحد من الناس يريد أن يسألك سؤالا:

فنظر إلى السجان بوجه ارتسم عليه الرعب وقال: «اقتلهم جميعا! ما الذى يخول لهم أن يقضوا على حياتى؟»

وإذ قال ذلك تنبه إلى وجود أوليفر والمستر براونلو، فتراجع إلى طرف مقعده الحجرى وسألهما عما يريدان. ثم صاح: «يا أوليفر. . تعال أهمس شيئا فى أذنك!»

وأراد المستر براونلو منع أوليفر من الاقتراب منه ولكن هذا قال له: «إنى لست خائفا!» ثم اقترب من فيجن فجذبه هذا إليه وقال له: «إن الأوراق فى كيس من القماش مخبأ فوق المدفأة فى الغرفة الأمامية. إنى أريد أن أكلمك يا عزيزى!»

فقال له أوليفر: «أجل! دعنى أشترك معك فى الصلاة. . هيا اركع مثلى على ركبتيك وصل معى!»

وعندئذ دفعه فيجن نحو الباب وقال: «اخرج! اخرج!»

فقال الغلام والدمع يترقرق فى عينه: «أسأل الله أن يغفر لهذا الرجل!»

وقال فيجن: «هذا حسن! إنه سيعيننا فى طريقنا. . من هذا الباب أولا. وإذا كنت أرتعش وأرتجف وأنا أسير نحو المشنقة فلا تبالوا ذلك ولكن أسرعوا أسرعوا!»

بعد ثلاثة أشهر من ذلك عقد قران روز فلمنج وهارى مايلى فى كنيسة القرية التى أصبحت منذ ذلك مقر عمل ذلك القسيس الشاب، وفى اليوم نفسه سكنا بيتهما الجديد السعيد!

وسكنت المسز مايلى ذلك البيت مع ابنها وعروسه لتقضى معهما أيامها الأخيرة فى هدوء واتضح من البحث أن بقية التركة التى كانت بيد مونكس إذا قسمت بينه وبين أخيه أوليفر بالتساوى فإن كلا منهما ينال نحو ثلاثة آلاف جنيه. وطبقا لوصية أبيهما كان لأوليفر الحق فى التركة كلها، ولكن المستر براونلو لم يرد حرمان الابن الأكبر من فرصة تمكنه من أن يبدأ حياته من جديد، وأن يسلك طريق الشرف والنزاهة، ولذا قسم بقية التركة على هذا الشكل. واحتفظ مونكس باسمه هذا المستعار وأخذ نصيبه من التركة وهاجر إلى مكان قصى فى أمريكا. وهناك بدد المال الذى معه ثم عاد إلى مسكله القديم فقبض عليه وسجن ثم مرض مات فى السجن!

وقد تبنى المستر براونلو أوليفر، وانتقل معه ومع المسز بدوين إلى بيت يبعد ميلا واحدا وعاد الدكتور لوسبرن إلى تشرتسى ومكث فيها شهرين أو ثلاثة وهو يشعر بالوحدة لبعد أصدقائه عنه. ثم ترك عيادته لمساعده وانتقل إلى القرية التى بها صديقه القسيس الشاب وسكن كوخا جميلا فيها. وأخذ يشغل وقته بفلاحة البساتين وصيد الأسماك والنجارة، حتى اشتهر فيها بالمنطقة. وكان قبل انتقاله من تشرتسى قد توطدت الصداقة بينه وبين المستر جريمويج. فصار هذا يزوره فى مقره الجديد مرات فى السنة ويقضى

معه كل مرة أياما عديدة حيث يشاركه فى ضروب تسليته.. ولا يفوت المستر جريمويج قط أن ينتقد الوعظ الذى يسمعه فى الكنيسة يوم الأحد من القس الشاب هارى مايلى. . ثم يقول للدكتور لوسبرن فيما بينهما بعد ذلك:

– إنه فى الحقيقة معجب بذلك الوعظ، ولكن لا ينبغى له أن يمتدح هارى أمامه!. ويحلو للمستر براونلو دائما أن يذكر صديقه القديم المستر جريمويج بالليلة التى مكثا فيها ينتظران أوبة أوليفر والساعة على منضدة بينهما فيقول المستر جريمويج: «لقد كنت على حق، لأن أوليفر لم يعد فعلا فى تلك الليلة!»

أما المستر نوح كلايبول فقد عفى عنه منذ انقلب شاهد ملك ضد فيجن. وقد بان له أن مهنة اللصوص لا تخلو من خطر فرأى أن يمارس عملا شريفا يكسب به معاشه. . وقد اختار لنفسه أن يكون مخبرا. فهو يخرج مع زوجته شارلوت كل يوم أحد وقد ارتديا أحسن ثيابهما، ثم تتظاهر هى بالإغماء أمام إحدى الحانات فيهرع صاحب الحانة إليهما ويعطى الشاب ما قيمته ثلاثة بنسات من البراندى لكى تفيق من إغمائها. . وعندئذ يبلغ كلايبول الشرطة ضده ثم يقبض نصف الغرامة التى تفرض على صاحب الحانة!

وقد فصل المستر بمبل وزوجته من منصبيهما بالملجأ، ومكثا حينا يقاسيان العوز والفاقة وانتهى بهما المطاف إلى أن يصبحا لاجئين فى ذلك الملجأ نفسه الذى كانا يديرانه!

أما المستر جيلز وبريتلز فبقيا فى مركزيهما وإن كان الأول قد أصبح أصلع الرأس، والثانى قد صار ولدا أشيب الشعر!

وأما السيد تشارلس بيتس فقد روعته جريمة سيكس فرأى أن يترك حياة الإجرام ويبحث عن عمل شريف. وقد قاسى شظف العيش حينا حتى نجح فى النهاية. وقد بدأ حياته الجديدة عاملا زراعيا ثم حمالا،

وأخيرا صار أكثر الكلافين مرحا في نورت هامبتونشير، ومكث المستر براونلو يملأ ذهن أوليفر بكنوز العلم والمعرفة، ويزداد حبا له يوما بعد يوم إذ تبدى له ما يملأ نفس هذا الغلام من فضائل.

وهناك الآن في فناء كنيسة القرية، قبر عليه لافتة من الرخام كتب عليها اسم «أجنس». وليس بهذا القبر تابوت ولابد أن روح أجنس ترفرف فوقه هانئة مطمئنة.

obeikandl.com

الكتاب القادم

غادة اللآمپلپا

obeikandl.com

obeikandl.com

طبع بمؤسسة بسطرون
٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩